

مَطَالِعُ الْبُدُورِ
فِي مَنَازِلِ السُّرُورِ

obeikandi.com

مَطَالِعُ الْبُدُورِ فِي مَنَازِلِ السُّرُورِ

تأليف

الشيخ الأديب والفاضل الأريب
علاء الدين علي بن عبد الله البهائي الغزولي

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

جميع الحقوق محفوظة للناشر
طبعة

١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٦ م

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت. ٥٩٢٢٦٢٠ - ٥٩٢٨٤١١ / فاكس ٥٩٢٦٢٧٧

ص. ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

E-mail: alsnakfa_alDinaya@hotmail.com

٩٩/٩٧٥٨	رقم الإيداع
977-5250-48-X	الترقيم الدولي



مقدمة الناشر

يسر مكتبة الثقافة الدينية أن تقدم لقرائها الأعزاء كتاب:

«مطالع البدور في منازل السراور»

للغزولى.

ومؤلفه هو: على بن عبد الله الغزولى البهائى الدمشقى، شاعر، أديب، تركى الأصل، من

المماليك.

نسبته إلى مولى له اسمه أو كنيته بهاء الدين.

وقد عاش الغزولى وتوفى فى دمشق، وزار القاهرة مراراً.

لا يعرف له مؤلفات سوى هذا الكتاب.

توفى المؤلف - رحمه الله تعالى - سنة ٨١٥هـ - ١٤١٢م.

لا يعرف له تاريخ ميلاد.

الناشر

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

أما بعد: فهذا كتاب مجموعته لفريق أهل الأدب مفيد، وتذكرة فيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، جاء في تأليفه الشريف علوى النسب وتاريخاً أدبياً لو سمعه الذهبي لكتبه بماء الذهب، ما وصل إلى حلاوة تأليفه ابن خلكان، ولا ينظر مع وجوده بوجه في مرآة الزمان، فإيا له من مجموع أقسم بشانئ اثنين أنه تفرد، وهامت به كتب الأدب وأمسّت عارية من الجلد وما عسى أن تتجلد، لقد أصبح من حسان المعاني بحور مقصورات في خيام الطروس ممدوداً وأوتى من كنوز الأدب وأنبائه مالا ممدوداً، وبين شهوداً، صرفت الذهن إلى ترصيفه واستعنت بالناقد البصير عند الصرف، وبالصانع القدير عند الرصف، وأعربت بناء عن وصف دار ملك فجاء في حسنه زائد الوصف، فأقسم من وصف هذه الدار بالبيت المعمور أنها نزهة الناظر والسامع، واتلو على بيت حاسدها أن عذاب ربك لواقع، ما مرّ الأدباء على أبوابها إلا سلموا سلام الخاشعين عسى أن يقال لهم ادخلوها بسلام آمين.

ولاني وإن لم أستطع خلوة بكم

أمرّ على أبوابكم فأسلم

فتح على من وصفها بخمسين باباً فسبحان الفتاح، ولكن جعلت سودانة منها وبياض طرسها نزهتي في الليل والصباح، وجاورتها بأوصاف علت بحسن طباقها البديعة على بيوت الأشعار، فاستحققت التمتع بها دون الغير لأن جار الدار أحق بدار الجار، وتالله لقد أحجم الفضلاء عن وصف هذه الدار المباركة أعتابها فكيف إذا جاءوها وفتحت أبوابها، وأمسّت قلوب معانيها المختلفة بأنواع البدائع تتألف، وهي تتلو على بيت حاسدها ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف﴾^(١) كم طرق بابها بوصف فأتيت بالدقة الأدبية من الافتتاح، وأبدت ما لو ناظره ابن سكرة لعسر ذلك عليه ولو أتى بالمفتاح، وإن دخلت إلى وصف الدهليز من بابه فلا تركت لأحد فيه مدخل، أو إلى البادهنج نقلت حديث الهوى صحيحاً وإن كان معلل، أو إلى وصف الخدام استعبدت حر الكلام،

(١) الآية: ٦٣ من سورة الأنفال.

وأظهرت قوة العزائم فى الاستخدام، وإن ترويت فى البركة رفعت لها من الوصف راية فوق قناتها، أو فى النوفرة الغضة حققتها من زهور البديع بخضراتها، كم سهرت فى الفرش لوصف المساند وهم على الأرائك ينظرون، ودرت إلى وصف الدواليب وهالات بدورها ونجوم نثرتها ﴿وكل فى فلك يسبحون﴾^(١) وكم سجت فى وصف الطيور المسموعة بما يغنى عن سجع المطوق والحن السواجع، وهذبت النفس فى وصف الشطرنج فعقدلى الدست من حسن فرزنتى من غير مانع، وروّحت الخاطر لوصف المروحة فهب لى نسيم القبول من غير تعب، واقتبست من شعل الدهر وصف الشمعة والفانوس ولم أقل للهيب الفكر تبت يد أبى لهب، وأطلقت عنان الذهن القادح فى وصف السراج، فكنت فارس القبيلة، وأتيت بما يفحم السراج، ولو طول لسانه لقل له لا تكن طويل الفتيلة، وحدقت فى البساتين ووصف غصونها وزرد خمائلها، فهمت إلى بان الحمى وزرود، وتفزلت فى رياحينها وورودها بما أخمل زهر الآداب وشوق إلى العوارض والحدود، وتمسكت بالغوالى من المعانى المعشوقة فى وصف الطيب فاطربت حتى قال أهل العود طيب، وملت إلى صرف الذهن فى وصف الراح فمازجته من الشعر الذى يقطر ماء الحسن منه بصيب، ووصفت الأوانى حتى قالت الكاسات جانا دو وقهقهت فرحة ثغور القناني، وحليت سادجها بذهب الوصف حتى قالت أنا ذهبية عصرى وأوانى، وجرعت العدو فى وصف النديم، والصديق الحميم، وألفت فى وصف الشعراء قصصا تركت الحسود لما عبس وتولى عنها فى ألف لام ميم، وأتيت فى وصف الفضلاء بنظم ونثر يحير الفاضل، وأرقصت طربا فى وصف المطربين وما خرجت عما هو فى السمع داخل، واسترقيت فى وصف الجوارى والغلمان كل حر من المعانى دقيق، وجئت بما لو سمعه ابن نباتة لصار له عبدا بسوق الرقيق، ووصفت الباه بما يحرك الشهوات، وأتيت بما هو أوضح من الصبح ولكن لم يكن قاطع اللذات، ودخلت إلى الحمام بقلب وأنشراح صدر فأبدت ما لو شاهده الحمامى لقال ما أنا قبالة هذا التشبيه، ومن هنا عرفت حر الأشياء وباردها وأخذت الماء من مجاريه، وأضرمت الفكر فى وصف النار فأتيت من الأدب بحشمة قطعت عندها الألسن الجمرية، وأفحمت كل ذهن وقاد وأخمدت الأفكار اللهيية، وقعدلى الدست فى الطباخ فأتيت فى وصف القدور بما طاب وعلى سوقه استوى، وقلت للأفكار ألا هبى بصحنك فأتت بما ترك قلوب الأعداء خوافقا على غير الاستواء، وتصيدت من وصف الأسماك ما غصت خلفه من الشعر الى أقصى البحور، وأتيت بما حير الثورانى والجزار فى وصف

الجزور، ولم أدخل إلى السفرة بجبن، بل مددتها بما يليق بمثلى، وتركت يقول تقول لمن لا عنده رشاد وهو غير حاذق ما أنت من خل بقللى، ومددت الخوان بمائدة من المعانى صيرت الشعراء عند وصفها فرقان وتنوعت فى الأطعمة الشهية بألوان وتفقهت فى الوصف لما دخلت إلى باب المياه وقلت وقد جرى جواد الفكر فى وصف الباء سبحان من أجراه، وأتيت فى وصف الحلوى بما لو ذاقه ابن الحلوى لشبك عليه. وعقد الخناصر، وفى وصف المشروب بما أصبح كل ظام من أهل الذوق إلى مورده الغذب صادر وتركت الضد فى بيت الخلا حائرا يبحث فى باب الطهارة، وكم طلب أن يستعير له وصفا فلم يطق وشابت ذقنه فى باب الاستعارة، وعالجت وصف الأطباء وأعطيت الذهن دستورا فأتى بما هو من القانون أطرب، وإن جحد ذلك حمار ضعيف الذهن فمفردات ابن البيطار له أوجب، وأتيت فى وصف الوزراء بما لو ناظره الغير لقالوا عنه ﴿كلا لا ورر﴾^(١). وبأشرت وصف الحساب فأتيت بما لو شاهده ابن الصاحب رجع عن ديوانه وعلم أنى صاحب النظر واصطبحت بخمرة الانشاء فى رياض الوصف فأتيت بما أشار إليه بأصبعه زهر المنثور، وطرقت بابه ففتح على ودخلت من غير دستور، وأتحتف الأسماع من الهدايا بكل هدية صالحة لطيفة، وجلبت من معادن الأدب فى وصف الجواهر ما لو سمعه صاحب العقد نسي نظامه وتأليفه، وسنتت الفكر فى وصف السلاح فجزت الحد وكنت فارس الكلام، وتغزلت فى حواجب القسى واصداغ السيوف وقامات الخطى وأهداب السهام، ووصفت الكتب وأبوابها بكل قرينة صالحة وأسكتتها فى أجمل بيت، وأتيت فى وصفها بما لو ناظره الغير لغلقت الأبواب وقالت هيت، وركضت بشدة الحزم إلى وصف الخيل فلم ألحق فى ذلك المضمار، وأتيت فى وصف الدواب بما لم يقع عليه حافر ولا يلحق له غبار، وقنصت فى وصف المصائد ظباء البديع فما نفرت، وحشرت وصف الوحوش فى حضائرها وناهيك إذا الوحوش حشرت، وصدحت فى وصف الحمام بما هيحج البلابل حين علا أوراقه، وأصبح طائر قلب الضد واقعا دونه ولو طار نحوه بطاقه، وأطلت فى وصف القصور فأتيت بكل بيت لم يكن له فى علو طباقه مطابق، وأتيت فى وصف الحصون المنيعه بما عودته بالسما ذات البروج من الطارق، وشوقت إلى الاوطان فأتيت فى وصف علائم المنازل بأبيات، إذا رآها الشيق إلى أوطانه قال هى المنازل لى فيها علامات، ودخلت إلى الجنة ففرغت بأوصاف تركت الأعداء فى نار الحسد يتقلبون، وتلى عليهم ﴿لا يستوى

أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون^(١) واستوعبت هذه الأوصاف التى بعد مرامها وأمست عينا يشرب بها المقربون وهنا يحسن الالتفات فنقول والله المسعتان على ما تصفون:

وهذا أوان إيراد الأبواب المذكورة، وشرح المحاسن المأثورة، وبالله التوفيق والإعانة، فى لطف الإنابة وحسن الإبانة، لارب غيره ولا خير الا خيره وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الباب الأول: فى تخير المكان المتخذ للبيان.

الثانى: فى أحكام وضعه وسعة بنائه وبقاء الشرف والذكر ببقائه.

الثالث: فى اختيار الجار والصبر على أذاه وحسن الجوار.

الرابع: فى الباب

الخامس: فى ذم الحجاب.

السادس: فى الخدم والدهليز.

السابع: فى البركة والفؤارة والدواليب وما فيهن من كلام وجيز.

الثامن: فى البادهنج وترتيبه.

التاسع: فى النسيم ولطافة هبويه.

العاشر: فى الفرش والمساند والأرائك.

الحادى عشر: فى الأرايح اللذيذة والمروحة وما شاكل ذلك.

الثانى عشر: فى الطيور المسموعة.

الثالث عشر: فى الشطرنج والتزد وما فيهما من محاسن مجموعة.

الرابع عشر: فى الشمعة والفانوس.

الخامس عشر: فى الخضرات والرياحين.

السادس عشر: فى الروضات والبساتين.

السابع عشر: فى آنية الراح.

الثامن عشر: فيما يستجلب بها من الأفراح.

التاسع عشر: فى الصاحب والتديم.

العشرون: فى مسامرة أهل النعيم.

الحادى والعشرون: فى الشعراء المجيدين.

- الثاني والعشرون: فى الحذاق المطربين.
- الثالث والعشرون: فى الغلمان الحسان.
- الرابع والعشرون: فى الجوارى ذوات الألحان.
- الخامس والعشرون: فى الباه.
- السادس والعشرون: فى الحمام وما غزا مغراه.
- السابع والعشرون: فى النار والطباخ والقذور.
- الثامن والعشرون: فى الأسماك واللحوم والجزور.
- التاسع والعشرون: فى السفرة والبقول.
- الثلاثون: فى الخوان والمائدة وما فيها من كلام مقبول.
- الحادى والثلاثون: فى الوكيرة والأطعمة المشتهاة.
- الثانى والثلاثون: فى الماء وما جرى مجراه.
- الثالث والثلاثون: فى الحلوى والمشروب.
- الرابع والثلاثون: فى بيت الخلا المطلوب.
- الخامس والثلاثون: فى نبلاء الأطباء.
- السادس والثلاثون: فى الحساب والوزراء.
- السابع والثلاثون: فى كتاب الإنشاء وهو فصلان.
- الثامن والثلاثون: فى الهدايا والتحف النفيسة الأثمان.
- التاسع والثلاثون: فى خواص الأحجار وكنائها فى المعادن.
- الأربعون: فى خزائن السلاح والكنائن.
- الحادى والأربعون: فى الكتب وجمعها.
- الثانى والأربعون: فى الخيل والدواب ونفعها.
- الثالث والأربعون: فى مصائد الملوك الجليلة المقدار.
- الرابع والأربعون: فى حضائر الوحوش المتخذة لنزهة الأبصار.
- الخامس والأربعون: فى الأسد والزرافة والفيل.
- السادس والأربعون: فى الحمام وما فيه من قيل.
- السابع والأربعون: فى الحصون والقصور والآثار.
- الثامن والأربعون: فى الحنين إلى الأوطان وما فيه من رائق الأشعار.
- التاسع والأربعون: فى دار سكنت بها كثيرة الحشرات.

الخمسون: فى جنات النعيم وما فيها من غرفات، وبتمامه تمت الأبواب.
 والمقصود: من الواقف على كتابنا هذا الاقصار عن تباع أخطائنا والصفح عما يقف
 عليه عن اغفالنا والتجاوز عما ينتهى إليه من إهمالنا وإن أداه التصفح إلى صواب نشره وإلى
 خطأ ستره فقد كان يقال من ألف كتابا فقد استشرف، فإن أصاب فقد استهدف وإن أخطأ
 فقد استقذف، وكان يقال لا يزال الرجل فى فسحة من عقله ما لم يقل شعراً أو يضع كتاباً
 وكان يقال اختيار الرجل وافد عقله ويقال دل على عاقل اختياره، وقيل لبعض العلماء اختيار
 الرجل قطعة من عقله، قال بل مبلغ عقله، وقال الخليل بن أحمد لا يحسن الاختيار الا من
 يعلم ما يحتاج اليه من الكلام، وقال الشعبي: العلم كثير والعمر قليل فخذوا من العلم
 أرواحه يعنى عيوبه ودعوا ظروفه، وقال ابن عباس رضي الله عنه: العلم أكثر من أن يحصر فخذوا
 من كل شيء أحسنه، ونحن نستعين الله على كل حاسد والله در القائل:

لمن أبوح بشعري حين أنظمه	أم من أخص بمن فيه من الزبد
إما جهول فلا يدري مواقعه	أو فاضل فهو لا يخلو من الحسد
على أن الإنصاف من شيم الأشراف.	

وهذا أوان الشروع فى ايراد ما قصدناه والأمر الذى نحوناه وبالله المستعان.

الباب الأول

فى تخير المكان المتخذ للبيان

قال ارسطاليس: أول الصناعات الضرورية الصيد، ثم البناء، ثم الفلاحة، وذلك لو أن رجلاً سقط فى فلاة لا أنيس بها ولا زرع لم يكن همه إلا حفظ قوام نفسه بالغذاء، فليس يفكر إلا فيما يصيد، فإذا صاد واغتذا فليس يفكر بعد ذلك إلا فيما يسكن فيه وهو البناء، فإذا تم له فكر حيثنَّذ فيما يزرعه ويغرسه.

وقال إبراهيم بن إسحاق المصعبى بمياء الملوك العمارة ولا يحسن بهم التجارة. وقال ابن كلدة جميع خصال الدار المستخسة أن تكون على طريق نافذ وماؤها يخرج منها وليس عليها مشترف وحدودها لها وتكون بين الماء والسوق ويصلح فناؤها لحط الرجال وبل الطين ووقوف الدواب وان كان لها بابان فذاك أمثل وينبغى أن يكون أيضاً فى طرف البلد لأن الأطراف منازل الأشراف.

وقال البحتري، توفى سنة أربع وثمانين ومائتين:

عجب الناس لاعتزالى وفى الأطر	راف تلفى منازل الأشراف
وقعودى عن التلفت والار	ض لمثللى رحيبة إلا كناف
ليس عن ثروة بلغت مداها	غيرانى امرء كفانى كفافى

قيل: وإنما كانت الأطراف منازل الأشراف لأنهم يتناولون ما يريدونه بالقدرة ويصل إليهم من يريدهم بالحاجة إليهم.

وقيل لرجل فى أى موضع من القرآن الأطراف منازل الأشراف فقال قوله تعالى: ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾^(١) فهنا أشرافهم وكان ينزل أقصى المدينة.

وقيل ليس فى الأرض بخيل ولا جواد إذا ابتاع داراً إلا بنى فيها شيئاً وهدم شيئاً وإن قل لأن حاجته ومنافعه ومرافق المالك الأول لا يستويان، قال الجاحظ رأيت بخلاء فى نهاية البخل يسرفون فى الإنفاق على البيان.

(١) سورة يس الآية: ٢٠.

وقال الحكماء لذة الطعام والشراب ساعة ولذة النوم يوم ولذة المرأة شهر ولذة البنیان دهر كلما نظرت إليه تجددت لذته فى قلبك وحسنه فى عينك.

وقال ناصر بنى أمية فى مبانيه العظيمة بمدينة الزهراء بالأندلس:

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنیان
إن البناء إذا تعاضم شأنه أضحى يدل على عظيم الشأن

ولما دخل الرشيد إلى منبج قال لعبد الملك بن صالح الهاشمى وكان لسان بنى العباس هذا البلد مقر لك، فقال يا أمير المؤمنين هو لك ولى بك، قال كيف منازلك به، قال دون أهلى وفوق منازل غيرهم، قال كيف صفة مدينتك، قال عذبة الماء طيبة الهواء قليلة الأدواء، قال كيف ليلها قال سحر كله وهى تربة حمراء وسنبلة صفراء وشجرة خضراء وفياف فيح بين قيصوم وشيخ، فقال الرشيد والله هذا الكلام أحسن منها.

ولما بنى عيسى بن جعفر قصره بالرصافة دخل إليه عبد الصمد فقال بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع فضاء على أحسن بهاء بين صحار وحيثان وضباء، فقال كلامك أحسن من بنائها.

وكان ابن جعفر بن سليمان الهاشمى يقول العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق والمرید عين البصرة ودارى عين المرید.

وقال بعض أهل التجربة إذا ابتنى أحدكم داراً فليترك فى واجهتها ثلثة ثقيها شر عين الكمال.

قلت: ولا بأس بإيراد نبذة مما يتعلق بكبرى الدار.

فمن ذلك ما حكى أن رجلاً دخل حجرة يكتريها فقال أين المطبخ فقيل له فى الجيران من يطبخ لك ويكفيك المؤنة، قال فأين المخبز فقيل إذا اختمر العجين خبزوا لك أيضاً، قال فبيت الخلاء فقيل بالقرب خربة تقضى فيها الحاجة، قال فالسطح فقيل على الباب ساحة يطيب فيها النوم فى الصيف، قال فأنا فى دار وما أعلم بروحى فأستمر على ما أنا فيه وأريح الأجرة.

وقال الحكيم بن سعيد قال لى ملك بسرنديب صف لى معایش أهل البصرة فقلت قوم منهم لهم فضول منازل يكرونها وقوم لهم ارقاء يستعملونها وقوم لهم رءوس أموال يغدون إلى أسواقهم فيأكلون فضولها وقوم لهم نخيل يأكلون ثمارها فقال من كان معاشه من كرى فلتام الناس ومن استعمل الارقاء فكلاب الناس والذين يغدون إلى أسواقهم فذئاب الناس ولكن أصحاب النخل، وقال بعضهم:

قد رضىنا من الزمان بقوت وثبوت ومسكن لا زياده
ورضىنا من الاله بما ير ضى ومن غيره تركنا الإراده
غير أنا نروم خاتمة الخيس ر فان يسرت فتلك السعاده

لطيفة: ذكرها الحريرى فى كتابه الموسوم بتوشيح البيان أن أحمد بن المعدل كان يجد بأخيه عبد الصمد وجداً شديداً على تباين طريقتهما لأن أحمد كان صواماً قواماً وكان عبد الصمد سكيراً خميراً وكانا يسكنان داراً واحدة ينزل أحمد فى غرفة أعلاها وعبد الصمد أسفلها فدعا عبد الصمد ذات ليلة جماعة من ندمائه وأخذ فى القصف واللذات والعزف حتى منعوا أحمد الورد ونقصوا عليه التهجد فاطلع عليهم وقال ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض﴾^(١) فرفع عبد الصمد رأسه وقال ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾^(٢)

قلت: وعلى ذكر الغرفة فالأطف ما ذكره علاء الدين الوداعى فى تذكرته قال: رأيت مكتوباً على غرفة يصعد منها إلى سطح قبة الصخرة المقدسة قوله تعالى: ﴿أولئك يجرزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحيةً وسلاماً﴾^(٣) فعجبت من اتفاقها وكأنى لم أسمعها، ورأيت أيضاً فى طاقة زجاج بقبر طالوت - عليه السلام - بسفح قاسيون قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض﴾^(٤) وهذا من عجيب ما يكتب على طاقة زجاج.

نادوة: كان بعضهم فى دار بكرى فقال لصاحبها اعمل لى السقف فإنه يفرقع إذا مشينا عليه فقال لا بأس عليك فإنه يسبح الله، فقال أخشى أن تدركه الرقة فيسجد.

وطلب بعضهم داراً للكرى فدلوه على دار فدخل غيرها فوجد واحداً ينيك أمرد فاستحى وقال هل عندكم دار للكرى فقال له ما أحمقك نحن من الضيق بعضنا على بعض. كان بعض النحويين له مال كثير وليس له سكن يأوى إليه فقيل ابن بيتاً، فقال والله لا بنيت ما اتفق النحويون على إعرابه.

ومما قاله المرحوم القاضى فتح الدين بن الشهيد الذى كان مولده بالرملة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وقد توفى مقتولاً بالقاهرة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة وكتبه على عمارة له:

(١) الآية: ٤٥ من سورة النحل.

(٢) الآية: ٣٣ من سورة الأنفال.

(٣) الآية: ٧٥ من سورة الفرقان.

(٤) الآية: ٣٥ من سورة النور.

فللفتح أبوابى وصدرى للضم
ومن أجل ذدار الطراز على كفى

بنيت على وقف المكارم والعلی
سنا الملك يبدو فى موشح زیتى
ومما كتبه على الرفرف قوله:

أزین سمائی بل أزین سماحی
ویمشون فى ظلى وتحت جناحی

رفعت كما شا الترفه رفرفا
فلا بدع أن الناس يهوون بهجتى

الباب الثانى

فى أحكام وضعه وسعة بنائه

وبقاء الشرف والذكر ببقائه

وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما بلغه أن سعداً وأصحابه بنوا بالمدر كتب: أكره لكم البنين بالمدر فإذا فعلتم فعرضوا الحيطان وأطيلوا السُّمك وقاربوا بين الخشب. ولما بنى معاوية داره بدمشق باللبن دخلها وفد الروم فقالوا ما أحسن ما بناها للعصافير فهدمها وبناها بالحجر.

ورأى بعضهم رجلاً قد بنى حائطاً بالحجر وهو يبيضه فقال هذا يستر الذهب بالفضة. وحكى أن يحيى بن خالد كان جالساً للقصاص فرفعت إليه قصة متظلم من بعض عماله فقربه وسأله عن ظلامته، فقال له إن عاملك فلاناً ظلمنى وأخذ مالى واغتصب صنيعتى وهدم شرفى، فقال له فهمت جميع ما ذكرته إلا قولك هدم شرفى فما معناه، فقال له أنا من أبناء فارس كانت لى ضيعة وبالقرب منها قصر على الطريق فيه سقاية ينزلها الناس ويسقون منها ويذكرون بانيتها ويترحمون عليه فغصبنى الضيعة وهدم القصر فأمر يحيى بالكتابة إلى العامل أن ترد عليه ضيعة وجميع ما أخذته منه وتبنى القصر حتى ترده على هيئته كما كان، وقال لبنيه ابنوا فان الذكر والشرف باقيان ببقاء البنين.

وقيل لأبى الدهمان أين دارك؟ فقال إذا دخلت سكة بنى العنبر فالدار التى تدل على شرف أهلها دارى.

وعلى ذكر السؤال ما أحسن ما ذكره ابن رشيقي فى الانموذج أن عبد الرحمن بن محمد القراسى جلس مع بعض شيوخ يونس وكان الشيخ نهاية فى المجون فاجتاز بهم رجل يسأل عن دار ابن عبدون فأقبل الشيخ عليه فقال هى فى تلك الرابعة حيث يقوم ايرك فقال القراسى لأنظمنه، فما رأيت مثل هذا المعنى، وأنشد من وقته.:

إن شئت أن تعرف عن صحة	دارى التى تعزى لعبدونه
فامش فإن ايرك أبصرته	قام فإن الباب من دونه

وقد عكس الشيخ صلاح الدين الصفدى (ومولده سنة أربع وتسعين وستمائة ووفاته سنة أربع وستين وسبعمائة) هذا المعنى فقال:

أقول لمن يسائل عن محلى تقدم وامش من خلف السوارى
ومر فحيثما تلقى حكاكا بسررك لا تعد فثم دارى

رجع: خرج الخطيب الحافظ أبو بكر في تاريخه قال لما بنى المهدي قصره بالرصافة دخل بطوف فيه ومعه أبو البحتري وهب بن وهب فقال له هل تروى في هذا شيئاً؟ قال نعم حدثني جعفر بن محمد عن ابنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير صحنكم ما سافرت فيه أبصاركم».

وقال المأمون يوماً لجلسائه أتدرون من أهنى الناس عيشاً، فقالوا أمير المؤمنين فقال لا قالوا فأمر المؤمنين أعلم، فقال أهنى الناس عيشاً رجل له دار قوراء وامرأة حسناء وكفاف من العيش لا يعرفنا ولا نعرفه.

قال سلمة الأحمر دخلت على الرشيد في قصره الذى بناه فقلت:

أما يبيوتك في الدنيا فواسعة فليت قبرك بعد الموت يتسع
فجعل يكي.

وقيل: إن خالد بن الوليد رضي الله عنه شكى إلى النبي ﷺ ضيق مسكنه، فقال: ارفع البناء وسل الله السعة.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر وقد همّ ببناء دار استوسع فإن الهمة في السعة.

سئل بعضهم ما الغنى فقال سعة البيوت ودوام القوت.

وقال بعضهم طيب المساكن بثلاثة: سعة الصحن، وخرير الماء، وشيء من الخضرة.

(يحيى بن خالد) الدنيا ثمانية: الطعام الطيب، والماء البارد، والشوب اللين، والفراش

الوطى، والدار الواسعة، والمرأة الموافقة، والخادم الفاره، والقدرة على الإخوان بالإحسان.

وكان يقال جنة الرجل داره.

وذكر الأحنف الدور فقال: ليكن أول ما يشتري وآخر ما يباع.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر دارك قميصك فوسعه كيف شئت.

وقيل لبعضهم ما السرور فقال: دار قوراء وامرأة حسناء وفرس مرتبط بالفناء وينشد:

ومن المروءة للفتى ما عاش دار فآخره
فما قنع من الدنيا بها واعمل لدار الآخره

وكان يقال: دلي الرجل عيشه.

قال السلامى فى كتابه نطف الطرف الدور للناس كالأعشة للطير والأوجرة للوحش والحجرة للحشرات فدار الرجل حال نفسه وموضع أمه ومسكن قلبه ومجمع أهله ومحرز ملكه ومأنس ضيفه وملتقى صديقه وعدوه ولا شيء أصعب على الناس من الخروج من ديارهم.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الخروج منها بالقتل حيث قال تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾^(١) وقال أحد الأشراف لابنه يا بنى أحسن أثرك فى هذه الدنيا بالبناء الحسن واسمع قول الشاعر:

ليس الفتى بالذى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار
ولا تنس قول الآخر:

إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار
ومن أحسن ما قيل فى بناء الملوك قول على بن الجهم المتوفى سنة تسع وأربعين ومائتين:

وما زلت أسمع أن الملو ك تبنى على قدر أخطارها
فلما رأيت بناء الإمام م رأيت الخلاف فى دارها
حكى أن أبا العيناء دخل على المتوكل فى قصره فقال له: كيف ترى دارنا هذه؟ فقال
الناس بنوا دورهم فى الدنيا وأنت بنيت الدنيا فى دارك.
أخذه البيزىدى فقال:

لما بنا الناس فى دنياك دورهم بنيت فى دارك الغراء دنياها
فلو رضيت مكان البسط أعيننا لم يبق عين لنا إلا فرشناها

obeikandi.com

الباب الثالث

في اختيار الجار والصبر على أذاه وحسنه الجوار

وقيل الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق، وقيل لبعضهم أين معك في القرآن الجار قبل الدار، فقال قوله تعالى: ﴿وَرَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(١) وقال ﷺ: «من أشرط الساعة سوء الجار نعوذ بالله من ثلاث هنّ القوافر: إمام سوء إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، ومن جار سوء إن رأى حسناً ستره وإن رأى قبيحاً أذاعه، ومن سوء امرأة إن غبت عنها خانتك وإن دخلت عليها لستك».

حكى: أبو السعادات بن الشجري (مولده سنة خمسين وأربعمائة وفاته سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة) في شرح الحماسة أن العباس بن الفرج الرياشي قال وفد زياد الأعجم على حبيب بن المهلب وهو بخراسان فبينما هما يشربان ذات عشية إذ سمع زياد صوت حمامة تغني على شجرة في دار حبيب فقال:

تغني أنت في ذمّي وعهدي بأن لا يذعروك ولا تضاري

إذا غيبتني وشربت كأساً ذكرت أحبتي وذكرت داري

فإما يقتلوك طلبت نارك لأنك في حماي وفي جوارى

فأخذ حبيب سهماً فرماها فأنفذها فقال زياد قتلت جاري، بيني وبينك المهلب فاختمنا إليه فقال المهلب أبو امامة لا يروع جاره وقد ألزمتك العقل ألف دينار فدفعها إليه من يومه.

ولما بنى كسرى إيوانه كانت بجواره ديرة لعجوز لا يكمل تربيع الإيوان إلا بها فدفع لها جملة من المال، فقالت لا أبيع جوار الملك بملئها ذهباً ولا أخرج عن جواره طائفة فإن غصبتني إياها فهو قادر على ذلك فعلم كسرى بذلك، فقال ترك وبينى الإيوان فليل لا يجيء مستحکم التربيع، فقال بينى ما اتفق وكان فيه عوج، فكان بعد ذلك يقال له ما أحسن بناء هذا الإيوان لولا هذا العوج فيقول بهذا العوج تم حسنه.

قلت: وعلى ذكر الإيوان ما أحسن ما أنشدني من لفظه لنفسه أجازة الشيخ عز الدين

(١) الآية: ١١ سورة التحريم.

على ابن الشيخ بهاء الدين الحسين الموصلى - رحمه الله تعالى - أحجبيه كتب بها إلى
القاضى صلاح الدين الصفدى تغمده الله بالرحمة:

يا من له الطول فى المعالى وبالمعاني لنا يبصر
إنى كما قلت فى سؤالى ما مثل قولى نعم مقصر

رجع: وكان لابن المعقع بجانب داره دار وكان يستامها من صاحبها وهو يمتنع من
بيعها فانفق أنه ركه دين فاحتاج إلى بيعها فعرضت عليه فسأل عن سبب بيعه إياها بعد غبطة
بها فأخبره بقصته، فقال ما قمت إذا بحرمة الجار ان اشتريتها وقد باعها معدما فحمل إليه
ثمن الدار وقال أبق دارك عليك بارك الله لك فيها ورد هذا فى دينك.

وقال الأصمعى رأى بعضهم عدى بن حاتم الطائى يفت للنمل خبراً بفناء داره، فقال له
يا أبا طريف ما تصنع، فقال جارات ولهن حرمه.

قلت: وعلى ذكر حاتم الطائى ذكرت ما أنشدنيه سيدى الجناب المجدى فضل الله بن
المرحوم صاحب الفاضل فخر الدين عبد الرحمن بن مكانس - سلمه الله تعالى - قال:
أنشدنى والدى من لفظه قال أنشدنى صاحبنا الشيخ شمس الدين الواسطى (توفى المذكور
قريباً من سنة ثمانين وسبعمائة) لنفسه موالياً:

ما مت حتى جفانى كل من فى الحى وملنى وقلانى كل من لوشى
وأنت ما فى العجم والعرب مثلك حى يا من طوى بالمكارم ذكر حاتم طى

قلت: وأنشدنى من لفظه لنفسه صاحب المرحوم فخر الدين بن مكانس من قصيدة
(وتوفى تغمده الله بالرحمة سنة أربع وتسعين وسبعمائة) وذلك بمنزله بقنطرة قدادار بتاريخ
عاشر صفر من شهور عام ثلاث وتسعين وسبعمائة:

وكم طربت لما أبدته من ملح يصبو له كل ذى عقل وآراء
وجدت بالتبر من مالى ومن أدبى فكنت فى كل حال منهما الطائى

رجع إلى ما كنا بصده وقال محمد بن عبد الرحمن الزهرى كانت بينى وبين أبى
العباس ثعلب مودة أكيدة وكنت أستشيريه فى أمورى فجئت يوماً أشاوره فى الانتقال من دار
إلى أخرى لتأذى بها بالجوار، فقال يا أبا محمد العرب تقول صبرك على أذى من تعرفه خير
لك من استحداث ما لا تعرفه.

من غريب الاتفاق أن بشار بن برد كان قد حلف أنه لا يجاور حماد عجر ولا يظله وإياه
سقف بيت ولا مسجد وأنه يهجو به بالف قصيدة فانفق أن مات حماد فى قرية من سواد
البصرة وعرضت لبشار هناك حاجة فمات فيها ودفن إلى جانب حماد عجرد.

وقريب من هذه الحكاية ما حكى أن روحا بن حاتم بن قبيصة بن المهلب كان واليا على السند وأخوه يزيد واليا على أفريقية فتوفى بها فى سنة سبعين ومائة بالقيروان، فقال أهل المدينة - أعنى أفريقية - ما أبعد ما يكون بين قبرى هذين الأخوين فإن أخاه بالسند وهذا هنا فاتفق أن الرشيد عزل روحا عن السند وسيره إلى موضع أخيه يزيد فدخل إلى أفريقية فلم يزل واليا بها إلى أن مات ودفن مع أخيه فى قبر واحد فعجب الناس من غريب هذا الاتفاق. عود: وكان لأبى حنيفة جار اسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جن الليل رجع إلى منزله بلحم أو سمك فيطبخ اللحم أو يشوى السمك فإذا دب فيه السكر أنشد:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريبهة وسداد ثغر
فلا يزال يشرب ويردد البيت إلى أن يغلبه السكر وينام وكان أبو حنيفة يصلى الليل كله ويسمع جلسته وإنشاده ففقد صوته ليال فسأل عنه، فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيام وهو محبوس فصلى صلاة الفجر وركب بغلته ومشى واستأذن على الأمير، فقال ائذنوا له وأقبلوا به راكبا حتى يطأ البساط ففعل ذلك به فوسع له الأمير فى مجلسه وقال له ما حاجتك؟ فقال لى جاراسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة ليال فتأمر بتخليته، فقال نعم وكل من أخذ تلك الليلة إلى يومنا هذا، ثم أمر بتخليته وتخليتهم أجمعين فركب أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - وتبعه جاره الاسكاف فلما وصل إلى داره قال له أبو حنيفة أترانا أضعنك، قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيرا عن صحبة الجوار ورعاية الحق والله على أن لا أشرب خمرا أبدا فتاب ولم يعد إلى ما كان عليه.

قلت: وقد ضمن هذا البيت الشيخ برهان الدين القيراطى تضمينا حسنا (ومولده سنة ست وعشرين وسبعمائة، ووفاته سنة إحدى وثمانين وسبعمائة):

فقال دعانى منيتى لكربة راح ورشف الثغر منه عقيب سكر
فقلت له دعوت فتى يرجى ليوم كريبهة وسداد ثغر
ونقلت من المستجاد فى فعلات الأجواد عرض محمد بن الجهم دارا بخمسين ألف درهم فلما حضروا ليشتروا قال بكم تشتروا منى جوار سعيد بن العاص وكان بجواره، فقالوا وإن الجوار ليباع، فقال وكيف لا يباع ويفرد بثمان وهو جوار من إذا سأله أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن أسأت أحسن فبلغ ذلك سعيدا فوجه إليه بمائة ألف درهم وقال أمسك عليك دارك.

وعلى ذكر الجار فما أحسن قول الشيخ جمال الدين بن نساة (ومولده سنة ست وستمائة، ووفاته سنة ثمان وستين وسبعمائة).

بروحى جيرة أبقوا دموعى وقد رحلوا بقلبي واصطبارى
 كأننا للمجاورة اقتسمنا فقلبي جارهم والدمع جارى
 وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب (ومولده سنة ست عشرة وسبعمائة، ووفاته سنة
 ثمان وثمانين وسبعمائة) وقد انتقل النيل السعيد عن بر مصر إلى البر الغربى شط الجيزة.
 بأيها السلطان إن النيل عن مصصر تنقل بعد طول جوار
 فاحفظ لنا جريانه وجواره فالله قد أوصى بحفظ الجار
 وأنشدنى سيدى وأخى الجناب المجدى فضل الله بن مكائس أبقاه الله - تعالى - من
 موشحة لنفسه:

أجريت ما بين دموعى الغزار * مثل البحار * ولم يدع لى طول دهرى قرار
 هجر حببى وهو منى قريب * مع الرقيب * قد صيرانى بين قومى غرب
 دأبى النحيب * فأه من جورك يا ذا الحبيب * على الكشيب
 وما احتبالى فى قريب الديار * ونائى المزار * هو على الحالين يا قلب جار
 رجع إلى ما كنا فيه: كان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له يا هذا إنك قد اخترتني جاراً
 واخترت دارى داراً فجناية يدك على دونك وإن جنيت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على
 أهله.

وذكر ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء قال رجل يا رسول الله إن لى جاراً يؤذنى قال
 انطلق وأخرج متاعك إلى الطريق، فانطلق فأخرج متاعه فاجتمع الناس إليه فقالوا ما شأنك؟
 قال لى جار يؤذنى فجعلوا يقولون اللهم العنه اللهم اخزه اللهم أخرجه، فبلغه ذلك فأناه
 فقال ارجع إلى بيتك فوالله لا أؤذيك بعدها. وهذه من الحيل التى أباحها الشرع الحديث
 رواه الإمام أحمد فى مسنده.

وورد أن أبا مسلم الخراسانى صاحب الدعوة عرض عليه فرس سابق فقال لأصحابه
 لما يصلح هذا الفرس؟ فقالوا ليوم الحرب، فقال كلا ولكن ليهرب عليه من جار السوء.
 وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «ثلاث كن فى الجاهلية الإسلام أولى بها: كان الرجل
 منهم إذا نزل به ضيف سعى له أهل البيت كبيرهم وصغيرهم حتى ينقلب وهو راض، وكان
 الرجل منهم إذا طال نواء امرأته معه كره طلاقها لثلاث تذل بعده، وكان الرجل إذا جنى جاره
 جريمة باع فيها ولو ولده حتى ينقذ جاره.

الباب الرابع

فى الباب

الباب يجمع على أبواب وقد قالوا فيه أبوية للازدواج، وقيل أبواب مبنية كما قيل أصناف مصنفة، ول بعضهم فيما يكتب عليه.

لذ بذو البسبب كلما خفت ضيق المناهج
فهو باب مجرب لقضاء الحوائج

وأنشد الأصمعى وفى أبيات المعانى قول بعض العرب:

وذى رجلين لا يمشى عليها ولكن فى القيام له صلاح
فندفعه إذا احتجنا إليه ونجذبه إذا حان الرواح

وقال الحاتمي فى باب بمصرعين (توفى المذكور سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة):

عجبت لمحرومين من كل لذة يبتان طول الليل يعتقان
إذا أمسيا كانا على الناس مرصدا وعند طلوع الفجر يفترقان

وقال الشيخ شمس الدين بن دانيال (توفى سنة عشر وسبعمائة):

قل للوزير محمد بن محمد يا من هو المسك الذكى لمن درج
أنت الذى دار السعادة داره طول الزمان وبابه باب الفرج

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

بشر أمير المعالى باتصال هنا يحفه السعد من أقصى جوانبه
واكتب على بابه الغربى معتمدا عز يدوم وإقبال لصاحبه

وقال:

أيا دار دار اليمن من كل وجهة عليك ولا زال الهنا لك يجاب
ولا عدم القصصا ببابك إنه لنجح الرجا باب صحيح مجرب

قلت: قوله صحيح على غير طائل وصاحب الذوق السليم يشهد والمعنى يقدم.

وقال:

يا زاترى قاضى القضاة لينهمكم ما صحح التجريب من أبوابه
أقسمت ما الحجر المكرم للغنى الا الذى تغشون من أعتابه

وقال:

يا مالكا تقصر عن وصفه بدائع الشاعر والكاتب
فى بابك العلم وفبيض الندى فلا خلا بابك من طالب

وقال ناصر الدين ابن النقيب فى المعجون (توفى سنة سبع وثمانين وستمائة):

قال لى الخارج صف لى مثل ما أعرف وصفك
ابن باب الخرق قل لى قلت باب الخرق خلقك

وعلى ذكر باب الخرق فلا بأس بإيراد نبذة مما قيل فى باب زويلة، فمن ذلك قول

إبراهيم المعمار (توفى سنة تسع وأربعين وسبعمائة):

زويلة بابك هذا سفيه يشرب ماء الخمر جهرا بفيه
ولم يزل يألف سفك الدما وكل ما يقطع الشرع فيه

وله فيه:

حاذر زويلة إن مررت ببابها وطعامها كن آيسا من خيرها
فوسط القتلا يقول به انظروا من لم يمت بالسيف مات بغيره

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة (مولده سنة خمس وعشرين وسبعمائة، ووفاته سنة

ست وسبعين وسبعمائة):

برت زويلة إذ أمسى يقول لنا باب لها قول صدق غير مكذوب
إذا وعدت حراميا بسفك دما فى الحال علق من وعدى بعرقوب

وقال الشيخ شمس الدين الضفدع فيما يكتب على الباب (مولده سنة ثلاث وتسعين

وستمائة، ووفاته سنة ست وخمسين وسبعمائة):

من ذا الذى ينكر فضلى وقد فزت من الحسن بمعنى غريب
عندى لمن يخذه دهره «نصر من الله وفتح قريب» (١)

وقال إبراهيم المعمار:

يا من بباب عسلاه العيش للناس طابا
أرسلت مدحى غلاما إليك يخدم بابا

وما أظرف قول من قال وإن كان غير ما نحن فيه لا تحسبه لك وحدك إن كنت راقداً

انتبه كما فتحت الطاقة غيرك يسد الباب.

وقال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ملفزا فيه (مولده سنة عشرين وستمائة، ووفاته سنة اثنين وتسعين وستمائة):

أى شىء تراه فى الدور والكت	ب مجازا هذا وذاك محقق
يحفظ المال والحريم ولو	لاه حفظًا لكان ذلك يسرق
هو زوج وتارة هو فـرد	وهو فى أكثر الأحيان يطرق
وطليق فى نشأته ولكن	بحديد من بعد ذلك يوثق
وثلاثا تراه فى الخط لكن	هو اثنان كله إن يفـرق
وتراه للحشو ينسب حيناً	وهو مع ذاك لا يرى يتزندق
وهو فى القلب يستوى وتراه	بان تصحيفه لمن يترمق
فأجبنى عنه بقيت مطاعاً	لست فى حلبة الفضائل تسبق

كتب الشيخ شرف الدين عبد العزيز الحموى المعروف بشيخ الشيوخ إلى والده ملفزا (مولده سنة ست وثمانين وخمسمائة، ووفاته سنة إحدى وستين وستمائة).

ما واقف فى المخرج	يذهب طورا ويجى
لست تخاف شره	مسالم يكن بمـرتج

فكتب إليه والده الجواب ذهاب وجىء وخوف وهذا باب خصومة والسلام.

وكتب الأديب نصر الدين الحمامى إلى السراج الوراق وكان السراج يسكن بالروضة (مولده سنة خمس وعشرة وستمائة، وتوفى سنة خمس وتسعين وستمائة):

كم قد أردد للباب الكريم لكى	أبل شوقى وأحى ميت أشعارى
وأثنى خائباً فيما أومله	وأنت فى روضة والقلب فى نار

فكتب الجواب إليه:

الآن نزهتنى فى روضة عبقت	أنفاسها بين أزهار وأثمار
أسكرتنى بشذاها فأنثيت بها	وكل بيت أراه بيت خمـار
ولا تغالط فمن فينا السراج ومن	أولى بأن قال إن القلب فى نار

وقال الصاحب جمال الدين بن مطروح من قصيدة يمدح بها الملك الأشرف مظفر الدين موسى (ولد ابن مطروح سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وتوفى سنة تسع وأربعين وستمائة):

ما كان أشوقنى للثم بناته	ولقد ظفرت بلثهما فليهنى
ودخلت من أبوابه فى جنة	يا ليت قومى يعلمون بأننى

وقال علاء الدين الوداعى (مولده سنة أربعين وستمائة وتوفى سنة ست عشرة وسبعمائة):

من أم بابك لم تبرح جوارحه تروى أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قررة والكف عن صلة والقلب عن جابر والسمع عن حسن

قلت: أما قررة فهو قررة بن خالد السدوسى وهو ثقة روى عن الحسن وابن سيرين وليس بتابعى، وأما صلة فهو صلة بن أشيم العدوى كان من عباد التابعين وهو زوج معاذة العدوية وهى تروى عن عائشة رضي الله عنها، وأما جابر فهو جابر بن عبد الله كان صاحب رسول الله صلّى الله عليه وآله وليس هو جابر الجعفى لأن جابر الجعفى ضعيف وهو تابعى وإنما ضعفوه لأنه كان يؤمن بالرجعة، وأما حسن فهو حسن البصرى كان تابعياً كبيراً رأى من أصحاب النبى صلّى الله عليه وآله نحو ثلاثمائة رجل، ولقد أجاد علاء الدين فى استعمال هؤلاء الرجال فى أوصاف الممدوح ودل على جودة اطلاعه على أسماء رجال الحديث، رحمه الله تعالى.

وأشدنى سيدى وأخى تقى الدين أبو بكر بن حجة الحموى - سلمه الله تعالى - لنفسه الكريمة اجازة من قصيدة:

قصدت باب الحبيب والرقبا على من خيفة اللقا حنقه
قالوا: فما تبغى فقلت لهم حتى تخلصت أبتغى صدقه

والشىء يذكر بلوازمه ما أطف وأبلغ ما ذكره ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب الاندلسى فى ترجمة شهاب الدين بن رضوان الغرناطى أبو جعفر فى تاريخه بالإحاطة (وذكر أن وفاته سنة ثلاث وستين وسبعمائة):

يا من اختار فؤادى مسكنا بابه العين التى ترمقه
فتح الباب سهادى بعدكم فابعثوا طيفكم يغلقه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة نثرا:

أى والله تخلى الشباب وخمد أب الذهن اللهاب وخلا الفكر الحاثم من صوب والفهم الخادم من صواب، واقصر عن نظمه ونثره من كانت له فى الإنشاء نشأة وكانت له فى الشعر أسباب، وغض بصر القريحة وتقاص ذيلها فما يرفع لها ولا تجر أهداب، واختبى لسان المنشئ المنشد عجزا وأغلق عليه من شفثيه مصراعى الباب.

وقال القاضى الفاضل نثرا (مولده سنة أربع وعشرين وخمسائة، ووفاته سنة ست وتسعين وخمسائة):

لا زالت الملوك ببابه وقوفا والاقدار له سيوفا والخلق له فى دار الدنيا ضيوفا ودين دين الحق تعلمه الناس أنه إذا جرد لتقاضيه سيوفا سيوفى.

ومن نثره: كل لفظة موصولة بأنه وفى كل قلب من حربه نار وفى كل دار من فضله جنة
فروح الله تلك الروح وفتح لها أبواب الجنة فهى آخر ما ترجوه من الفتح
من رسالة كتبها المرحوم العلامة فتح الدين بن الشهيد إلى بعض أصحابه، وقد طرق
عليه الباب فوجده مقفلاً:

فما هو إلا أن قبلت العتبة فأعيت، وتأتدت فريضة الخدمة لما وقفت وتأدبت، وأطلت
قرع حلقة الباب فقال الصدى ضربت فى حديد بارد وجئت، وقد استقل ركاب المسود
والسائد فاذكر حاجتك أبلغ عنك ما تقول وأسبغ، يرجع الجواب إليك الرسول قلت محب
يراهم بالقلب إن عاقب الحوايج والجوانح ورحت، وقلت إن جئت بجواب نسل عن سايع
بن رايح وعدت أمشى بخفى حنين.

وأصغى إلى صوت الصدى عند ذكركم فأطرب للمغنى وأهتف بالدار
وأسعى بها داراً على مروءة الصفا أطوف بها سبعا ولم أقض أوطارى
وما ناعى التطواف فى دارة الحمى إذا لم يكن فى دارة الحى أقمارى
وترددت حتى كلل دمعى للطريق بالعقيق ورمت أنفاسى النار فى الدار وصاحت
الحريق.

وللقاضى الفاضل يصف الستائر من قصيدة أولها:

يا طالب الجود يمم كعبة الكرم	وقل سلام لها عن كعبة الحرم
كأن استاره روض سمحت له	بماء يشرك هذا المخرق الشم
غيم يزر على شمس وفى يده	غمامة لقيته كاشف الغمم
سحب تعود منه فيض انمله	والسحب إن سبرت دلت على الديم
لو لم تكن سحباً ما كان ذيلها	برقا يشام إذا ما البرق لم يشم
بيض كمرضك فى طول كطولك فى	لمع كنشرك فى سلك حكى كلم
فكنت كالشمس فى ثوب النهار بها	لا كالبدور بأثواب من الظلم
أظهرت عدلك فيها فهى معجزة	فالاسد ما وثبت والريم لم يرم
قرب سائحة فيه وسارحة	فاعجب لضدين فى بحر من الكرم
تهيم بالصيد آمالى إذا نظرت	فيها فأذكر منع الصيد فى الحرم
كأن أحدنا ترعى الحداثق من	جنات عدن وعدل دائم قدم
أقحاح روض كأن الورد فروزه	فيا لجريه ماء كف بالضرم
والطير فى شجرات الرقم عاكفة	ونبت عنهن فى التسغيريد بالنغم

إن لم يكن ثمر فيها ففى يده ثمار جود زهت فى روضة الشهم
يود ما مثله فيه من صور لو أنها استخدمت فى جملة الخدم
تلك الستور عجاج والعجوم لها عرى ولهدى للظبا فروزنها بدم
أظن بابك خدا غرت من قبل عليه حتى منعت اللثم بالثم
إذا رأيت بها الأعلام مشرقة رأيت أشهر من نار على علم
مثل السراب ووقت القيظ بيضها لكن وردت بعينى حين هم فمى
وللمولى السيد شمس الدين القاسم ابن الصاحب موفق الدين على بن الأمدى نقلته
من خط الوداعى:

ومشعل قام فى خشوع كراهب شق عنه جيبا
قد فنى الجسم منه سقما واشتعل الرأس منه شيبا
وورد على سيدنا ومولانا المرحوم القاضى أمين الدين محمد الانصارى (المتوفى
أواخر سنة ثمان مائة وأخبرنى أن مولده سنة إحدى وخمسين وسبعمائة) صاحب ديوان
الانشاء الشريفة بالشام المحروسة كتاب من سيدنا ومولانا أوجد العصر القاضى بدر الدين
محمد المخزومى المالكى الشهير بابن الدمامينى (الذى مولده فى سنة ثلاث وستين
وسبعمائة) أنفذ الله أحكامه وذلك من مكة المشرفة بتاريخ التاسع والعشرين من شهر الله
المحرم سنة إحدى وثمانمائة جاء منه وينهى أنه سطرها بمنى وقد سالت بأعناق البدن
الأباطح ووقفت الجزر تؤمل سعد الاخبية، فما طلع لها غير سعد الذابح وقد برد الصدر
المحرور برمى الجمار وقرت العيون برؤية تلك الآثار وقرع المملوك باب الرحمة عند
وصوله إلى البيت الشريف، وقال للزمن تنكر ما شئت فقد حصل التعريف.
وذكر صاحب المباهج أن ستر ابوان كرى أحرق لما ملك المسلمون المدائن
فأخرج منه ألف ألف مثقال ذهباً، وقيل مائة ألف مثقال.

وطرق رجل على عمرو بن عبيد الباب، فقال من هذا، فقال أنا، قال لست أعرف أحدا
من إخواننا اسمه أنا.

وأخرج البخارى من طريق جابر رضي الله عنه قال استأذنت على النبی صلی الله علیه وسلم فقال من هذا،
فقلت أنا، فقال أنا أنا كأنه كرهه.

وأنشدنى الشيخ شمس الدين الجرائحى لنفسه فيما يكتب على ستر:

أنا الستر المجمل بالب هها والعز والنصر
فلذ بى أن تجسد ضيما وقل يا مجمل الستر

الباب الخامس

فى ذم الحجاب

خالد بن عبد الله القشيري كان يقول لجاحبه إذا جلست فلا يحجبين على أحد فإنما
الوالى يحتجب لثلاث: شر يكره أن يطلع عليه غيره، أو ريبة يخاف انتشارها، أو بخل يكره
معه أن يسأل شيئاً.

ووقف رجل على باب أبى دلف فأقام به حيناً لا يصل به فتلطف فى رقعة أوصلها إليه
وكتب فيها:

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم
فأجابه:

إذا كان الكريم قليل مال ولم يعذر تعلل بالحجاب
وأبواب الملوك محجبات ولا تستكثرن حجاب باب
وقال علاء الدين الوداعى يعتذر إلى بعض أصحابه:

إن كنت يا أكرم الصحاب حجبت لما طرقت بابى
فأنت قلبى ولا عجب إذا غدا القلب فى حجاب

وقال زين الدين بن الوردى (توفى سنة خمسين وسبعمائة) يلوم نفسه على زيارة أقوام:

مذرتهم صحبة وودا ألفيتهم مغلقين بابا
سعى إلى بابهم جنون منى فاستأهل الحجابا

وقال بعض الحكماء لبعض الملوك: لا تمكن الناس من كثرة رؤيتهم لك فإن أجراً
الناس على الاسد أكثرهم له رؤية.

وقال آخر كثرة الاذن مجلبة الابتذال وهيبة الملوك فى الاحتجاب وكان يقال المبذول
مملوك والممنوع متبوع.

ولله در ابن المعتز وما أحسن قوله:

كما يخلق الثوب الجديد ابتذاله كذا تخلق المرء العيون اللوافح

وقيل لبعض الحجاب متى تفرغ ولايتك فقال متى حضر طعام مخدومى وأين هذا من قول القائل:

جزت على باب صديق لنا وبابه من دونه مقفل
وحول تلك الدار غلمانه قد أحدقوا بالباب واستكملوا
فقلت ما يصنع مولاكم قالوا سمعنا أنه يأكل
قلت فما يفتح مولاكم قالوا بلى رأس الذى يدخل

وقيل لبعضهم: هل تغديت عند فلان؟ قال لا ولكنى مررت ببابه وهو يتغدى، قال فكيف علمت؟ قال رأيت غلمانه بأيديهم قسى البندق يرمون الطير فى الهوى.
وقال بعضهم:

رأيت أبا زرارة قال يوما لحاجبه وفى يده الحسام
لئن وضع الخوان ولاح شخص لأختطفن رأسك والسلام
فقال سوى أيبك فذاك شيخ بغض ليس يردعه الكلام
فقال وقام من حنق إليه بقى لم يزد فيه القيام
أبى وأبو أبى والكلب عندى بمنزلة إذا حضر الطعام
إذا حضر الطعام فلا حقوق على لوالدى ولا ذمام
فما فى الأرض أقبح من خوان عليه الخبز يحضره الزحام

وما أحسن قول القاضى الفاضل:

بتنا على حال يسر الهوى وربما لا يمكن الشرح
بوابنا الليل فقللنا له ان غبت عنا هجم الصبح
وله فى بواب يلقب بالبحرى:

وهب أن هذا الباب للرزق قبلة فيها أنا وقد وليته دونكم ظهري
وهب أنه البحر الذى يخرج الغنى فكل خرافى الشط فى لحية البحرى

وقال كمال الدين بن النبیه (توفى سنة تسع عشرة وستمائة) لما سمع قول الفاضل:

قلت لليل إذ حباتى حبيبها بغناء يسبى النهى وعقارها
أنت ياليل حاجبى فامنع الضُّ صُبح وكن أنت يا دجى برد دارا

وقال ناصر الدين بن النقيب:

ماذا على بواب دراكم الذى لا اذن يعطينا ولا يستأذن
لو ردنا ردا جميلا عنكم او كان يدفع بالتي هى أحسن

وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى غير المعنى:

يا رب إن النيل زاد زيادة أدت إلى هدم وفرط تشئت
ما ضره لو جاء على عاداته فى دفعة أو كان يدفع بالتى

وأنشدنى الشيخ العلامة عز الدين الموصلى لنفسه (المتوفى سنة تسع وثمانين
وسبعمائة، وأخبرنى أن مولده سنة أربع وعشرين وسبعمائة):

قد سلونا عن الحبيب بخود ذات وجه به الجمال تفنن
ورجعنا عن التهتك فيه ودفعناه بالتى هى أحسن
رجع إلى ما كنا فيه:

قال الناشئ الأصغر (المتوفى سنة ست وستين وثلاثمائة):

ليس الحجاب بألة الاشراف إن الحجاب مجانب الإنصاف
ولقل ما يأتى فيحجب مرة فتعود ثانية بقلب صاف

وقال أبو الحسين الجزار (ومولده سنة إحدى وستمائة، ووفاته سنة اثنتين وسبعين
وستمائة):

أمولاي ما من طباعى الخروج ولكن تعلمته من خمولى
وصرت لديك أروم الغنى فيخرجنى الضرب عند الدخول
والم بهذا الاديب شمس الدين الضفدع فقال:

وافا إلى خدمته العبد كى يحظى بتقبيل يد أو قبول
واستأذن الخدام فى قربه منكم لأن البعد ستر يحول
فكاد أن يخرجـه الضرب عن غناك بالايقاع قبل الدخول
أوحى إليه منه قولاً فما بلغ عنه مما يقول الرسول
ونقلت من خط فخر الدين بن مكائس للجمال ابن عبد الغنى:

أتيت إلى بابك يا سيدى أهنيك بالعيد مع من يهنى
فأخرجت من بعد ذاك الدخول وقد جئت يعنى مدلاً بأنى
مغن ويخرج بعد الدخول وتأبى الطباع خروج المغنى

حكى عن أبى الحسين الجزار انه جاء إلى باب الصاحب زين الدين بن الزبير فأذن
للناس كلهم ولم يؤذن له فكتب فى ورقة:

الناس قد دخلوا كالابر أجمعهم والعبد مثل الخصى ملقى على الباب

فلما قرأها ابن الزبير قال لحاجبه اخرج الى الباب وناد يا خصى ادخل فلما سمع أبو الحسين قول الحاجب ياخصى ادخل فقال هذا دليل على السعة.

وهذا جميعه مأخوذ من قول الآخر:

أيدخل من يشاء بغير إذن وكلهم كسيد أو عوير
وأبقى من وراء الباب حتى كأنى خصيه وسواى أير

وقال بعض الشعراء وقد منعه بواب اسمه بصاقعة من الدخول:

يا من سما فى المكرما ت وفاق أرياب المنمالك
أعجب لأمر بصاقعة منع الدخول لباب خالك
وهو المعين على الدخو ل إذا تعسرت المسالك

وقال جحظة:

ولى صاحب زرتة للسلام فقابلنى بالحجاب الصراح
وقالوا تغيب عن داره لخوف غريم ملح وقاح
ولو كان عن داره غائبا لأدخلنى أهله للنكاح

وقال آخر:

وكل خفيف الشأن يسعى مشمرا إذا فتح البواب بابك أصبعا
وتحن الجلوس الماكثون توقرا حياء إلى أن يفتح الباب أجمعا
وأنشدنى صاحب الأمالى: ويسكن العارفون فى ذمته
كم من فتى تحمد أخلاقه وأحق الناس على نعمته
قد أكثر الحاجب أعداؤه

حكى أبو السعادات بن الشجرى فى شرح الحماسة أن أنس بن زنيم الهذلى وفد على عمرو بن عبد الله بن التميمى فى جماعة من الشعراء فصده الحاجب عن الدخول وأذن لغيره من الشعراء فلما طال حجابهم كتب إليه أبياتا منها:

لقد كنت أسعى فى هواك وأبتغى رضاك وأعصى أسرتى والادانيا
حفاظا وامساكا لما كان بيننا لتجزينى يوما فما كنت جازيا
أرانى إذا ما شمت منك سحابة لتمطرني عادات عجاجا وسافيا
أقصى ويدنى من يقصر رأيه ومن ليس يغنى عنك مثل غنائيا

فلما قرأ الأبيات عنف حاجبه ثم أذن له وقال له ويحك ما هذا، قال فعل حاجبك وطول مقامى وأنت تعطى من أقبل وأدبر، فقال يا هذا أشهدت معى موذاة هجر قال لا، قال ألك

من يد تضربنى بها أو تستحق بها على ما طلبت قال نعم كنت أجلس بين يديك وأسمع حديثك فأنشر محاسنه واطوى مساويه، فقال وأبيك إن فى هذا لما يشكر كم أقمت بالباب، قال أربعين يوماً فأمر له بأربعين ألف درهم.

ولشهاب الدين ابن أبى حجلة:

ألا قل لشمس الدين صاحبنا العبسى أتينا مرارا نحو بابك بالأمس
فإن حجبك الجدر عنا فربما رأينا جلايب السحاب على الشمس

وقال شرف الدين بن عنين (ومولده سنة تسع وأربعين وخمسمائة، ووفاته سنة ثلاثين وستمائة):

أين غلمانك المطيفون بالبغ لة والرافعون للاثواب
ردك الدهر كالنداء على النيد ل لا حاجب ولا بواب
وعلى ذكر الحاجب فما أحسن قول القائل فى ملبح قلندرى:

بدا لى فى حلق الحواجب فتنة فقلت لعقل ذاهل فيه ذاهب
حبى بحق الله قل لى ما الذى دعاك إلى هذا فقال مجاوبى
وعدت بوصل العاشقين تعطفاً فلم يثقوا فاسترهنوا قوس حاجبى
وقال السراج الوراق فيه:

عشقت من ريقنه قرقف وماله اذ ذاك من شارب
قلندريا حلقوا حاجباً منه كنوز الخط من كاتب
سلطان حسن زاد فى عدله فاختران يبقى بلا حاجب

وقف بعض المطابع على باب بعض الأمراء والطعام قد حضر فخرج حاجب الأمير إلى الباب فقال أيها المطبوع ألك حاجة، قال نعم قال ما هى؟ فقال له إذا دخلت فأقرئ خبز الأمير السلام.

وما أظرف فى ذم الحاجب قول السراج الوراق.

لا ذقت ذل حجاب ولا وقوفاً يباب
فقد حنقت وقد قسا م شارب البواب
ورحت أجرى وصحف ت موضعين لمابى

وقال زين بن الوردى:

يقول بوابه إذ رأى بالباب منى وقفه الحائر
له محاريم بها شغله قلت محاريم بلا آخر

وقال السراج الوراق مضمنا:

وقطب عند دخولى إليه فتم له القبح معنى وصوره
ولولا الضرورة ما زرتة على الرغم منى وعند الضرورة

وقال جمال الدين ابن نباتة:

حجبتنى فازددت عندى علا برغم من أقبل كالعائب
وقلت لا أعدم من سيدى من كان عينى فغدا حاجبى

وقال محمد بن العفيف (مولده سنة اثنين وستين وستمائة، ووفاته سنة سبع وثمانين وستمائة):

ولقد وقفت ضحى بياك أرتجى باللم للعتبات حق الواجب
وأيت أطلب زورة أحظى بها فرددت يا عينى هناك بحاجبى

وقال الشهاب فتیان الشاغورى (مولده سنة ثلاث وخمسمائة، ووفاته سنة خمس عشرة وستمائة):

وافيت تهنية الوزير فلم أجد لى فى الدخول بيا به من مسعد
لم أحظ الا بالقيام لمن أتى فحصلت منك على المقيم المقعد

قصد جماعة من الطفيلية وليمة فقال رئيسهم: اللهم لا تجعل البواب لكازا فى الصدور دفاعا فى الظهور طراحا للقلانس، هب لنا رأفته ورحمته وبشره وسهل علينا إذنه، فلما دخلوا تلقاهم المضيف، فقال الرئيس عزة مباركة موصول بها الخصب معدوم بها الجذب فلما جلسوا على الخوان قال جعلك الله كعصى موسى وخوان إبراهيم ومائدة عيسى فى البركة، ثم قال لأصحابه افتحوا أفواهكم وأقيموا أعناقكم وابسطوا الأكف وأجيدوا اللقم ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المنخمين واذكروا سوء المتقلب وخيبة المضطرب خذوا على اسم الله تعالى.

وقال زين الدين بن الوردى:

ماذا تقولون فى محب عن غير أبوابكم تخلا
وجاءكم زائرا عفيفا عن مالكم هل يجوز أم لا
وقال جمال الدين بن نباتة:

ما يقول المقام أيده الد به ولا زال للسمود يحوز
فى ولى ببابكم ترك الخل حق ووافى يجوز أم لا يجوز

كان الشيخ عز الدين بن عبد السلام إذا قرأ عليه الطالب وانتهى يقول اقرأ من الباب الذى تليه ولو سطرا فانى لا أحب الوقوف على الأبواب.

وللنصير الحمامى بيتان كتبهما إلى السراج الوراق على يد غلام يدعى إبراهيم وهما:

عبدك إبراهيم وافى بهما	رفى بهما معنى لمن يعقل
وهو على الباب ومقصوده	وفسيك فهم أنه يدخل

obeikandi.com

الباب السادس فى الخادم والدملج

كان يقال إن الخصيان ملكة بنى آدم.

وقيل لأبى العناء لم اتخذت غلامين اسودين خصيين، قال لئلا أنهم بهما ولا يتهما بى.

وعرض على بعض الملوك غلام صبى خصى فقال هذا يصلح للفراش وللهراس.

وكان بعضهم يتخذ الخدام الخصيان ويختار منهم البيض الحسان، فقيل له فى ذلك،

فقال لأنهم بالنهار فوارس وبالليل عرائس، وفيهم يقول:

ونساء لمستريح مقيم ورجال إن كانت الأسفار
وفيهم يقول محمد الخلع القاهر:

مبرءون من الشعر الكريه ومن حمل الايور وإخراج المناتين
وهم نساء إذا حاولت خلوتهم وهم رجال لدى الهيجاء يحمونى

وما أحسن قول الصابى فى غلام أسود (مولده سنة عشرين وثلاثمائة، ووفاته سنة ثمانين
وثلاثمائة):

لك وجه كأن يمتأى خطت به بلفظ يمله آمالى
فيه معنى من البذور ولكن نفضت صبغها عليه الليالى

وقال الزين بن جبريل المصرى:

وخادم قد حباه القلب حبه حباله وكسته صبغها المقل
كأن ما هو فى خد الجمال لمن يراه خال وفى أجفانه كحل

وقال ابن الجوزى فى كتاب الاذكياء: قال أبو أحمد عبد الله بن عمر الحارثى اجتزت

بيغداد وأنا أحدث مع جماعة من مجان أصحاب الحديث واذ بخادم خصى جالس على

الطريق وبين أيديه أدوية ومكاحل ومباضع وعلى رأسه مظلة خرق، فسألت عنه فقيل طبيب

حاذق وهو من عجائب بغداد فتقدم اليه شخص من الجماعة وتغاشى وتماوت وتمارض

وقال يا أستاذ يا أستاذ دفعات، فقال أى شىء بكى أيش أصابكى قولى لا شفاك الله، فقال أجد

ظلمة فى أحشائى ومغصا فى أطراف شعرى وما أكله اليوم يصبح غدا مثل الجيفة فصف لى

دواء فقال وكأنه أعد الجواب أما ما تجد من المغص فى أطراف شعرك فاحلقى لحيتك
ورأسك جميعاً، وأما ظلمة أحشائك فعلقى على باب حجرك قنديلاً، وأما الثالث فكلى
خراكى.

ولإبراهيم المعمار فى خادم هندی:

تملك قلبى خسادم قد هويته من الهند معسول اللما أهيف القد
أقول لصحبي حين يرنوا بلحظه خذوا حذرکم قد سل صارمه الهندی
وقال:

وخادم يعلو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن وكم دموع فى الهوى أسالها
ولقد أجاد من قال:

ان لمعت ليلاً نجوم السما بيضا على أدهم مرخى الازار
وأوجب العكس مثالا لها فى الأرض فالسود نجوم النهار

نادرة: قيل إن بعض أولاد الملوك كان يعشق خادماً يسمى دينارا وكان من أوحش ما
يكون فاتفق أن أجرى عنده ذكر مغن جميل، فقال بلغنى أن فلسه أسود، فقال له بعض
الحاضرين والله يا مولانا فلسه خير من دينارك فأخجله.

ومن ظريف ألقاب الخدام ما لقبه سيدى المقر المجدى فضل الله بن مكانس أحسن الله
له العاقبة لخدمه وهم: اشراق الدين هلال، ونظام الدين لؤلؤ، وسيف الدين فولاذ.
وأشدنى من لفظه لنفسه إجازة سيدنا ومولانا أفضى القضاة بدر الدين مجد بن أبى
بكر بن عمر المخزومى المالكى أدام الله أيامه ونقلتها من خطه:

علقتنه خادماً لطيفاً لم أصغ فيه إلى الملامه
إليه قلبى انثنى وطرفى مذ لاح بين الأنام شامه
وللشيخ جمال الدين بن نباتة فى خادم اسمه كافور:

يا لائى فى خسادم لى سيد قسما لقد زدت السلو نفورا
ولقد أدرت على المسامع قهوة فى الحب كان مزاجها كافورا
إبراهيم المعمار:

وخسادم قبلت مشروطه فى خده لكن رأيت العجب
من ناعم حلو فناديتـه ما أنت يا مشروط الا رطب

وقال ابن نباتة أيضاً:

بروحى مشروط على الخد أسمر
وقال على اللثم اشتربنا فلا تزدد
وقال:

أرى لصواب يا أيرى صفات
فبادره فأنت به خبير
وقال صلاح الدين الصفدى فيه:

إذا ما قام أيرك فى الدياجى
وقم نحو الطواشى واعتنقه
وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

أأخشى من الأعداء والله ناصرى
فقلبى مسرور وسعدى مقبل
قلت: وإذا ذكرنا ما ورد فى مدحهم فلا بأس بإيراد نبذة من غيره.

قال الجاحظ (توفى سنة خمس وخمسين ومائتين وقد نيف على التسعين سنة) ضيق
الصدر وشدة النفور وطول الأعمار وقلة الاضطبار وكبر الأقدام واضطراب الأجسام
وإنكار الحرمة وقلة الرحمة وسرعة الدمة وابتغاء السمعة وطحن المعدة ولطف القيادة
واسترخاء السرح وقلة الجرح وسوء الخلق وكثرة الحرق وشدة الحسد وانقطاع الولد
والمشى بالنمائم والنظر إلى المحارم وتربية البغول والبغض للفحول خلاف النساء والرجال
لا يجوز به الاستحلال مهلوس عبوس غايته طرسوس مؤاجر فى صغره قواد فى كبره إن
ركب ركض وإن مشى مرض مختلف الرأى والعقل متخلق بأخلاق البغل إن لايته جمع
وإن خاشنته رمح وأن أبعته طمح وإن أشبعته سلح يبول فى فراشه إذا عمل النبذ فى
مشاشه، إن حرد كفر وإن قدر قهر مختون على غير ملة حاذق بالهرسة والاخلّة، إن غضب
بكى وإن رضى شكى وإن هزل انطوى وإن سمن التوى معدن للمظائر ألوف للعجائز إن
اتتمته خانك وإن أكرمه هانك وإن أهنته أكرمك وإن أغضبته شتمك صاحب صوارات
وجلاهق وحمام وينادق حاص دجاج وفراريج وطير ما ورد اريج إن أمسكته خسرت وإن
بعته ربحت وإن طردته وقفت وإن قتلته أجرت، صالحهم مأبون وطالحهم ملمعون، شره
عتيد وخيسره بعيد معروف موصوف بالجلف مسترخى البدن طويل الحزن بين الموق بady
العروق يأتى العرقوب كثير العيوب طويل الذراع كثير النخاع مسلوب زينة اللحى محروم

لذة النساء يتزوج بالابكار ويهتك الأستار، يابس المصانع عارى الاشاجع شديد النفاق قليل الإنصاف بين النفاق كثير البقباق شره عند الطعام سفيه على الاقوام فقير ذو مال وحيد ذو عيال شرس حسود حرون جحود بعيد الحياء بارد اللقاء يتلقاك بالبكاء، إن قلت نعم قال لا أو قلت لا قال بلى ان منع فمن حمق وإن أعطى فمن حرق، جرىء جبان طويل الأحزان مظلوم القلفة خالى المعرفة أقلف مختون خائن مأبون ترضيه اللقمة ويخدع بالطعمة أكثر الناس غلبه وأقوده فى الظلمه واحذفه بالإجازة واعرفه لجاره واعمله لمزماره وانحته لمصايد الفار وأبيعه للتكلك وأصيده للسملك، إذا أمن ملعقته غرزها فى منطقتيه مأواه الدهليز وخبره على الافزيز لهج بالقمار عليه سوء الدمار من قلة مروءته يدخل الفحل على امرأته ويجمع لها بكده وينفقه على ضده لا بد له فيها من شريك فهو مغرم وغيره بينك يستر عورته عن الأنام ويبدى سوائه للطعام يقطع الصلاة ويمنع الزكاة بيعه الزمارات ونعته فى الصورات، يأكل بشدقين وينفق ببدين فضله محبوس ودعاؤه منكوس.

وقال الجاحظ أيضاً كان من ظريف ما يقص القاضى عبد الاعلى قوله فى الخصى إذا قطعت خصيته قويت شهوته وسخت مقعدته ولانت جلده وانجرت شعرته وكثرت غلمته واتسعت ففحته وغزرت دمعته.

وقال غيره من جب زبه ذهب لبه.

وفى ذلك قول أبى الطيب المتنبى (ومولده سنة ثلاث وثلاثمائة، ووفاته سنة أربع وخمسين وثلاثمائة):

وقد كنت أحسب قطع الخصى	بأن الرءوس مقرر النهى
فلما نظرت إلى عقله	وجدت النهى كلها فى الخصى

ونقلت من خط الوزير العلامة المفتن فخر الدين بن مكانس سامحه - الله تعالى - أنه قال: سافرت مرة سنة إحدى وستين وسبعمائة مع الصاحب فخر الدين بن قروينة - رحمه الله تعالى - إلى دمشق المحروسة عندما تولى نظر مملكتها ووالدى - رحمه الله - استيفاء بها وكان له دوا دار يسمى صبيح ويلقب جودر من عتقاء جده الوزير أمين الدين بن الغنائم وكان كثير النواذر لطيف الدقات، فاتفق أن جمال الدين ابن الرهاوى موقع الوزارة ركب يوماً فتقنطر به الفرس وداسه على رأس أحليله فحمل إلى داره وأقام أياماً إلى أن عوفى وحضر مجلس الوزارة وهو غاص بالناس، فقال له الصاحب فخر الدين ما سبب تأخيرك قال له تقنطرنى الفرس وداس رأس احليلى فكدت أموت والآن فقد لطف الله تعالى وحصل

البرء والشفاء فقال له صبىح جودر الحمد لله على سلامة الخصى فانقلب المجلس ضحكا
وخجل ابن الرهاوى وانصرف.

عود إلى ما كنا فيه: وصف الجماز رجلا بالرعونة فقال: هو كالخصى: يفتخر بزبه مولاه.
قال كشاجم فى خادم أسود جائر:

يا مشبها فى فعله لونه
فعلك من لونك مستخرج
وقال آخر وأجاد:

جزوا منذ اكراه بحق واجب
لو أنهم تركوه يلقى سالما
وقال بعضهم وأصاب:

إن عاينت عيناك ظبيا سانحا
فأقنصه لطفًا بالزمام ولا تخف
مع خادم يرعاه وهو شرود
منه نفورا فالزمام يقود

نادرة: قيل إن بعض أولاد الملوك كان يعشق خادمًا يسمى دينارا وكان أوحش ما
يكون فاتفق أن أجرى عنده ذكر مغن جميل، فقال بلغنى أن فلسه أسود فقال بعض
الحاضرين والله يا مولانا إن فلسه خير من دينارك فأخجله.

نادرة: قيل إن بعض الرؤساء كان له خادم وعبد فدخل يوما وجد العبد فوق الخادم
فضربه وخرج فرأى بعض أصدقائه فسأله عن غيظه، فقال هذا العبد النجس فعل بالخويدم
الصغير فقال له مولانا السيد الكبير فخجل منه وأخرجها فى مجانه.

وما أظرف من قال مواليا:

ستى الكبيرة لها الخدام والحشمه
جاها الطواشى أفحشت لو نال من كلمه
تحلف على التيك بالمصحف وبالختمه
راحت يمين القواقية على قرمه

وقال ابن إبراهيم المعمار:

وإن من الخدام من ليس ترتجى
فلا تك ممن يتهمهم لحشمة
مكارمه فالبعد منهم غنائم
فليس لهم بين الرجال محاشم

أهدى بعض عمال مروان بن محمد الجعدى الأموى لمروان عبدا أسود فقال لكاتبه
عبد الحميد اكتب إلى هذا العامل كتابا مختصرا وذمه على ما فعل، فكتب إليه لو وجدت
لونا أشر من السواد وعددا أقل من الواحد لاهديته والسلام.

ومن أحسن ما ورد فى ذم السواد لا يحرم فيه محرم ولا يكفن فيه ولا تجلى فيه عروس.

وما أظرف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

كان لى عبد يسمى فرجا نصب الغير عليه الشبكا
فأنا الآن كما تبصرنى ليس عندى فرج الا البكا

القول فى الدهليز - بكسر الدار - فارسى معرب، والجمع الدهاليز وهو بين الباب والدار وأحسن وما فيه:

ودهليز دار فيه نلعين بهجة وللنفس فيه للذاذة أوطار
إذا داخل لم يعتبر ما وراءه توهمه من حسنه أنه الدار

وقال يحيى بن خالد ينبغى للإنسان أن يتأنق فى دهليزه لأنه وجه الدار ومنزل الضيف ومجلس الصديق حتى يؤذن له وموضع المعلم ومقيل الخدام ومتهى حد المستأذن. وقال بعضهم: إذا كمل للإنسان فى داره حسن ثلاثة مواضع لم ييال بما فاته منها وذكر من جملتها الدهليز.

وللشيخ برهان الدين القيراطى فيه:

أكرم بددهليز سماً فاذا الكواكب من رفاقه
دهليز مولى سعمده ما زال يخدم فى وطاقه

قلت: من كان له عبد واسمه سعد ففى غاية الحسن.

وقال الشيخ شهاب الدين ابن أبى حجلة بيتين وفيهما ما فيهما:

دار بيدر الدين أشرق نورها فبياضها من نوره مجبول
دهليزها حلوا البنا يبدولنا طعمية فى بابه ودخول

الباب السابع

في البركة والفؤارة والدواليب

وما فيهن من كلام وجيز

البركة هي الموضوع المبنى لاجتماع الماء ويسمى أيضاً الصهريج بكسر الصاد وهو اسم مشتق لها من الصهروج الذي تبنى به، والصهروج الكاس نفسه يقال: بركة مصهرجة إذا كانت مبنية بالصهروج، وقال الجوهري البركة كالحوض والجمع البرك ويقال سميت بذلك لإقامة الماء فيها.

حكى الأديب أبو الربيع سليمان بن إسماعيل بن أبي الليث المسيحي قال جمعنا مجلس أنس مع الأديب أبي إسحاق إبراهيم بن أبي الثناء المسيحي بالفيوم وكنا في بستان فيه بركة عليها فؤارة من الماء فتجاذبنا أهداب وصفها فقال أبو إسحاق:

بركة يصعد الأنابيب منها	يقعد الماء فوقها ويقوم
فلدا أطلعت فواقع تبدو	كالقوارير من زجاج تعوم
وكان السماء صفحتها الزر	قاء والياسمين فيها نجوم

قال وقلت أنا:

وبركة تذهل العقول لها	تحرار في حسن وصفها الفكر
كأنها مقلة محدقة	عبرا من الوجد نالها السهر
تبكي وما فارقت لها وطنا	يومما ولا فات أهلها وطر
تخال أنبوبها لصحته	والماء يعلو به وينحدر
كصولجان فضة سبكت	فواقع الماء تحتها أكر

قال الشيخ صفى الدين الحلبي (وتوفي سنة خمسين وسبع مائة):

والرياح تجري رخاء فوق بحرتها	وماؤها مطلق في زى مأسور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها	والماء يجمع فيها جمع تكسير

ولقد أجاد ابن طباطبا في قوله (ومولده سنة ست وثمانين ومائتين ووفاته سنة ثمان

وأربعين وثلاثمائة):

كم ليلة ساهرت أنجمها التى
قد سيرت فيها النجوم كأنما
أحسن بها بحرأ إذ التبس الدجى
ترنو إلى الجوزاء وهى عريقة
تطفوا وترسب فى اصطفاق مياها
والبدر يخفق وىسطها فكأنه
عرصات أرض ماؤها كسمائها
فلك السماء يدور فى أرجائها
كانت نجوم الليل من حصائها
تبغى النجاة ولات حين نجاتها
لا مستعان لها سوى أنمائها
قلب لها قدر ريع فى أحشائها

ولا مزيد فى الحسن على قول عبد الجبار بن حمد يس الصقلى يصف دوحة واسوداً
ترى بالماء (توفى المذكور سنة تسع وعشرين وخمسائة):

وضواغم سكنت عشرين رياسة
فكأنما غشى النضار جسومها
أسد كأن سكونها متحرك
وتذكرت قناتها فكانما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكانما سلت سيوف جداول
وكأنما نسج النسيم لمائه
وبديعة الثمرات تعبر نحوها
شجرية ذهبية شرعت إلى
قد صولحت أغصانها فكانما
وكأنما يأتى لوقع طيرها
من كل واقفة ترى منقارها
خرس يقلن من الفصاح فان شدت
وكأنما فى كل غصن فضة
وتريك فى الصهريج موقع قطرها

وقال القاضى شهاب الدين بن فضل الله (مولده سنة سبعمائة، ووفاته سنة تسع وأربعين
وسبعمائة) فى ترجمة مجير الدين بن تميم (وفاته سنة إحدى وثمانين وستمائة) وحكى:
أنه جلس على بحيرة أشرقت سماؤها وطاف بكعبة المجلس ماؤها والشمس قد توسطت
الظهيرة وأرخت ذوائب أشعتها الظفيرة واللجة قد نصبت فى كل ناحية حباله وتناومت
عينها فما رأت من الشئ إلا خياله والماء قد لبس من شعاع الشمس الغلالة وغابت سباع
البركة فلعبت الغزالة فقال:

ولما احتمت منا الغزالة بالسما وعز على قناصها أن ينالها
نصبنا شباك الماء فى الأرض حيلة عليها فلم نقدر فصدنا خيالها

وذكر هذه الترجمة فى كتابه مسالك الأمصار من كلام على بن طافر العسقلانى قال:
جلسنا على بركة ألقى عليها ورد أحمر ملأ بكثرة نجومه فسحة سمائها وصبغ بحمرة شعاعه
صفحة مائها وأهدى زمرده إلى مقلتها الزرقاء فصح سرورنا بدائها.

وقال المذكور فى كتابه بدائع البداية أخبرنى القاضى الاعز بن المؤيد - رحمهما الله
تعالى - قال اجتمعت مع جماعة من اداء الاسكندرية فى بستان لبعض أهلها فحللنا روضا
تنت قامات أشجاره وتغنت قيان أطياره وبين أيدينا بركة ماء كجو سماء فنثر عليه بعض
الحاضرين ياسمينا زان سمائها بزواهر منيرة وأهدى إلى لجتها جواهر ثيره فتعاطينا القول
فى تشبيهه وأطرق كل منا لتحريك خاطره وتنبهه ثم أظهرنا ما حررنا ونشرنا ما حبرنا فانشد
عباس بن ظريف:

نثر الياسمين لما جنوه عينا فاستقر فوق الماء
فحسبنا زهر الكواكب تحكى زهر الأرض فى أديم السماء
قال والذى صنعته أنا:

نثروا الياسمين فى صفحة الماء فخلنا النجوم وسط الماء
فكان السماء فى باطن الأرض ض أو الدر طف فوق الماء
وقال مجير الدين بن تميم فى مליح يشرب من بركة:

أقلى الذى أهوى بفيه شاربا من بركة رقت وطابت مشرعا
أبدت لبعينى وجهه وخياله فأرتنى القمرين فى وقت معا

نادية: اكترى نحوى حمالا ليحمل له زيرا فلما وصل إلى البيت وفيه بركة قال له
النحوى اققرن، فقفز فوق فانكسر الزير، فقال ما هذا؟ قال جانب البركة ساكن والنون فى
اققرن ساكنة فتحرك الزير بينهما بالكسر، فقال أحسنت ما أنت إلا عالم بيض الله وجهك.
وقال الشريف العقيلي:

وبركة قد أفادنا عجباً ما مساج من مائها وما انسكبا
من حول فؤارة مركبة قد انحنى ظهر مائها تعباً
وقال شمس الدين الطيى أحمد بن أبى المحاسن (مولده ببخارى سنة تسع وأربعين
وستمئة ووفاته سنة سبع عشرة وسبعمائة بظرابلس):
النهر وافى شاهرا سيفه ولمعه يختلس الاعينا

فماجت البركة من خوفه
وقال مجير الدين ابن تميم مضمنا:

لو كنت اذ أبصرتها فوارة
رأيت أعجب ما يرى من بركة
وله مضمنا:

لقد نزهت عيني أنابيب بركة
انابيب زادت فى علو كأنما
ولله:

يا حسن نوفرة بدت فى بركة
ما إن بدت إلا وظللت مفكرا
وقال الوجيه المناوى:

فوارة تشبه فى شكلها
تلهيك بالحسن فقد أصبحت
وقد عكس بعضهم هذا فقال:

وقينة ملهية قد غدت
جارية راقصة أشبهت

وقال ابن حجاج (توفى سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة):

صنعت فى دراك فوارة
فاض على نجم السهى ماؤها
وقال ابن تميم فى بركة بشاذروان:

الارب يوم قد تقضى ببركة
بعينى رأيت الماء فيها وقد جرى
وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

منذهب شاذرواننا الذ
نال الغنى المـمـاء به
وقال فيه:

لحسن شاذرواننا
من أجل ذا المـمـاء له

وارتعدت وادرعت جوشنا

للشمس فى أمواجهها لالاء
سال النضار بها وقام الماء

تقابلنى أمواجهها بالعجائب
تحاول ثارا عند بعض الكواكب

أبدا يفيض الماء فيها ديدنا
فى قدنوفر راح ينبت سوسنا

سبيكة من فضة خالصه
جارية ملهية راقصه

تستوقف السامع والرائى
فى وصفها فوارة الماء

أغرقت فى الأرض بها الانجما
فأصبحت أرضك تسقى السما

أقمت بها فيما جرى متحيرا
على رأسه من شاهق فتكسرا

عالى المقام والرتب
حين مشى على الذهب

كل القلوب تعشق
قلب به معلق

ومن كلام سيدى تقى الدين أبى بكر بن حجة فى الفؤارة كأنها سنان تطعن فى صدر
الظما، أو شجرة كدنا أنها طوى لما ظهرت وأصلها ثابت وفرعها فى السما، أو معترف بندا
الماء وقد أفاض عليه عطاياه فيضا فرغ له لأجل ذلك فوق قناته راية بيضاء، أو عمود وفاء
أشارت الناس إليه بالأصابع أو ملك طالب السماء بودائع حتى قلنا إن إكليل الجوزاء له من
جملة الودائع، أو أبيض طائر علا حتى قلنا إنه يلتقط حباب النجوم الثواقب، أو شجاع ذو
همة عالية تحاول ثاراً عند بعض الكواكب.

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة:

وشاذروان ماء بات يجرى كعين الصب روع يوم بين
إذا ما قيل جد بالماء سريعاً يقول نعم على رأسى وعينى

وقال شيخنا الشيخ زين الدين بن العجمى (توفى سنة خمس وتسعين وسبعمائة):

تسلسل مائى وهو لا شك مطلق وصح حقيقاً حين قالوا تكسرا
وفى قلب مائى للقلوب مسرة وقالوا سيجرى بالهنا وكذا جراً

قلت: وقد تصرفت الفضلاء متأخرو العصر فى هذه اللفظة أعنى وكذا جرى تصرفات

حسنه فمنهم القاضى صلاح الدين الصفدى فقال:

أملت أن تتعطفوا بوصالكم فرأيت من هجرانكم ما لا يرى
وعلمت يوم فراقكم لا بد أن يجرى له دمعى دماً وكذا جرى

ومنهم الشيخ عز الدين الموصلى فقال:

رُبْ نسيم قد سرى يحدو سحاباً ممطراً
أذباله بليلة تخبرنا بما جرى

وقال أيضاً:

حديث عذار الحب فى خده جرى كمسك على الورد الجنى تسطراً
فقبلته حتى محوت رسومه كأن لم يكن ذاك الحديث ولا جرى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

لم ييك حسين بكيت من هجرانه متحسراً
لكن حكى لك خده الـ مصقول صورة ما جرى

وقال:

كأبرت عدل صببوتى فى الدمع حين تحسدرا
قالوا بكيت صبابة فأجبت هذا ما جرى

وأشددنى سيدى وأخى تقى الدين أبى بكر بن حجة - أبقاه الله تعالى - لبعض المغاربة:

وتحدث الماء الزلال مع الحصا فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكان فوق الماء شيئا ظاهرا وكان تحت الماء داراً مضمرا

رجوع إلى ما كنا فيه قال ابن ظافر العسقلانى فى كتابه بدائع البدائع: مررنا فى بعض العشايا على بعض البساتين المجاورة لبحر النيل فرأينا بئرا عليها دولابان متحاذيان قد دارت أفلاكهما بنجوم القوايس ولعبت بقلوب ناظريهما لعب الأمانى بالمفاليس وهما يتنان أنين أهل الاشواق وفيضان دمعاً أغزر من دموع العشاق، والروض قد جلا للأعين زبرجده والأصيل قد راق حسنه فنثر عليه عسجده والزهر قد نظم جواهره فى أجياد الغصون والسواقي قد أدلت من سلاسل فضتها كل مصون، والنبت قد أخضر شاريه وعارضه وطرف النسيم قد ركضه فى ميادين الزهر راكضة ورضاب الماء قد علاه من الظل ألمى وحيات المجارى حائرة تخاف أن يدركها من زمرد البنان العمى، والبحر قد صقل صيقل النسيم درعه وزعفران العشى قد ألقى فى ذيل السماء رده فاستحوذ علينا ذلك الموضع استحوذاً وملاً أبصارنا وقلوبنا التذاذاً وملنا إلى الدولابين شاكين أرمزا حين شجت قيان الطير بالحنانها أم شدت على عيدانها أم ذكرا أيام نعماً وطابا وكانا اغصانا رطابا نفثيا لذيد الهجوع ورجعا النوح وأفاض الدموع طلباً للرجوع. وقال مجير الدين بن تميم مضمناً:

ودولاب روض كان من قبل أغصنا تميم فلما فرقتها يد الدهر
تذكر عهداً بالرياض فكله عيون على أيام عهد الصبا تجرى
وقال:

تأمل تر الدولاب والنهر اذ جريا ودمعهما بين الرياض غزير
كان النسيم الرطب قد ضاع منهما فأصبح ذا يجرى وذاك يدور

وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى (توفى سنة ثمانين وستمائة):

وروضة دولابها إلى الغصون قد شكا
من حين ضاع زهرها دار عليه ويكى

واستعمل هذا المعنى صلاح الدين الصفدى فى غير الدولاب فقال:

أضحى يقول عذاره هل فيكم لى عذار
الورد ضاع نجده وأنا عليه دائر

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن نبأة:

أعجب لها ناعورة قلبها للماء منشى العيش والعشب
تعبانة الجسم ولكنها كما ترى طيبة القلب

وقال سعد الدين بن عربى (ومولده سنة ست وخمسين وخمسائة، ووفاته سنة اثنتين وستمائة):

شاهدت دولاباً له أدمع تكلفت للروض بالرى
فأعجب له من فلك دائر ما فيه برج غير مائى
ولآخر:

أبدى لنا الدولاب قولاً معجبا لما رأنا قادمين إليه
إنى من العجب العجيب كما ترى قلبى مسعى وأنا أدور عليه
قال أبو حنيفة الدينورى الدولاب بضم الدال وفتحها كذا سمعته من فصحاء العرب.
ولآخر:

لله أزهار دوح بات بضحكها صوت الغمام بدمع منه منسفا
حكى نجوم السما أزهارها فكذا أضحى يدور بها الدولاب كالفلك
وقال ابن نبأة:

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها وأضلعتها كادت تعد من المسقم
أدور على قلبى فإنى فقدته وأما دموعى فهى تجرى على جسمى
ولآخر:

وذا شـجـو أسـالت مداماً لم تصنها
تبكى بفـرط دـموع وتضحك الـروض منها
ولآخر:

أشبه ما بين القواديس صوتها ومن كل وجه مأوها يتحدر
بأرملة ضمت إليها بناتها تنوح بشجو والمدامع تقطر
ولآخر:

وناعورة قد ضاعفت بنواحيها نواحي وأجرت مقلتاى دموعها
وقد ضعفت مما تأن فقد غدت من الضعف والشكوى تعد ضلوعها

سأل الشيخ نجم الدين القحقيرى جماعة من الطلبة المشتغلة عليه عن قول الشاعر
(ومولده سنة ثمان وستين وستمائة، ووفاته سنة أربع وأربعين وسبعمائة):

يأيها الحسبر الذى علمُ العروض به امتزج
أبـن لنا دايرة فـيها بسيط وهـزج

ففكر بعض الطلبة فيه ساعة طويلة ثم قال هذا فى الساقية لأنه أراد بالبسيط الماء
وبالـهـزج صوبت الساقية حال دورانها، فقال له الشيخ: إلا أنك درت فيها زمانا حتى ظهرت
لك وهذا الكلام فى غاية الطرافة من الشيخ - رحمه الله تعالى - وقال ابن تميم:

وناعورة قد ألـبـستـها حبالها من الشمس ثوبا فوق أوراقها الخضر
كطاوس بستان يدور وينجلي وينفض عن أرياشه بلل القطر
وله:

أيدت لنا بالعذر ناعورة أدمعها فى غاية السكب
تقول لما غاب قلبى وقد ضعفت بالنوح وبالنـدب
صيرت جسمى كله أعينا تدور فى المـاء على قلبى
وقال الشيخ زين الدين بن الوردى:

ناعورة مـذعـورة لبـيـن ثكلى حائره
الماء فوق كتفـها وهى عليه دائره
وله:

حـالـة الدولاب دلت أنه فى فـرط حـزن
كـان يـسـقى ويغنى صار يـسـقى ويغنى

وقال مؤلف الكتاب من مرثيته التى رثى بها دمشق وغيرها عند حلول الواقعة المشهورة
من التار:

أعروستا لك أسوة بحماتنا فى ذا المصاب فأنتما أختان
غابت بدور الحسن عن هالاتها فاستبدلت من عزها بهوان
ناحت نواعير الرياض لفقدهم فكأنها الأفلاك فى الدوران
وقال ابن تميم:

أيا حسنـها من روضة ضاع نشرها فنادت عليه فى الرياض طيور
ودولابها كادت تذوب ضلوعه لكثرة ما يـكـى بها ويدور

وقال جمال الدين بن نباتة:

وناعورة قسمت حسنها على واصف وعلى سامع
وقد ضاع نشر الربا فاغتدت تدور وتبكي على الضائع

وقال مؤلفه ارتجالا جسيما اقترح عليه والحالة كذا:

كان البحر اذ يزهو صفاه ونور البدر يشرق والسواقي
دموعي ثم وجهك يا حبيبي وقلبي اذ شكا ألم الفراق

قلت ومن المداعبات اللطيفة ما كتب به المرحوم القاضي فخر الدين بن مكاس إلى
الشيخ بدر الدين البشتكي سلمه الله تعالى (مولده سنة ثمان وأربعين وسبعمئة) وقد دار في
ساقية الهمائل وهو:

دورة البدر في سواقي الهمائل تركت أدمع العيون هوائل
آه من للرياض نور أديب مظهر من كلامه سحر بابل
فاق سعيا على بني عجل في الد جود وأغنى عن الولي الهاطل
زاد علما على أبي ثور لكن قال بالدور ماؤه والسلاسل
قد أعاد الجناس حسن نوار وأتته ثورية فهو كامل
يا سعيد أثرى من النظم والنث ر فأنسى الوري زمان الفاضل
قد نقيت الرياض يا شيخ بالدو رفها غصنها من السكر مائل
لم تدع من نبأته لم تجدها أنها بالثنا عليك تواصل
وابن قادوس كان طالع في خد متك اليوم بالأوامر نازل
وغدا بالظلال كل أديب في هجير الرمضاء بفضلك قائل
وبروح عيون نرجس روض يغزل الحسن بالندا ويغازل
أنت شفتها بشعرك زهرا وبعثت المياه فيها خلاخل
كم غضون أينعتها فعلها هاج للطير والمحجب بلابل
أنت في الحاليتين تصرفك الاح رف أو كيمياء ذهنك واصل
أنت لو لم تكن بحار علوم ما جرت في الرياض منك جداول
كنت عندي أجلى قدرا وقد در ت من الثور للوجود الحامل
وغدا قس بين لفظك والرو ض على الحاليتين عندك باقل
أنت يا بدر فسقت بدر الدياجى فلهذا تبسود وذاك آفل
يا خليا أبثه الشجوى إن لم يك عنى كدمع عيني سائل
والأديب المحجب يشكو هواه للأديب المحجب عند النوازل

نافثى يزرى بغصن الحمائل
 ظ كلا الفاتنين أصبح ذابل
 شاخصات إذا مشى وموائل
 ما ترى للاعراب هذى العوائل
 قق دلالاً وللدلال دلائل
 أنا قد بعث آجلى بالعاجل
 أنت والله عن غرامى غافل
 صبوتى فى الهوى عن العقل عاقل
 إن تكن يا أخى لهمنى حسامل
 من محبوب والعيش كالظل زائل
 ل ولا زال غيث فضلك شامل
 قد رأيناك غيرة فى الأصائل
 م ومن جوده ينمى ابن باخل

أنا مغرى بحب أحور المي
 من بنى الترك قده اللدن واللح
 أعين الزهر والغصون تراها
 لا تقل بى الاعراب تحكم حسنا
 ماس عجبا وقصده يقتل الخلد
 لا تلم فى عذاره هتك شيبى
 ولعمرى أنت الذكى ولكن
 ولئن كنت عاقلا إننى من
 هاك حالى شرحته فاغتنى
 واطرح عتبها فعيش المحبيب
 دمت يا جامع المحاسن والشم
 أنت بدر أم أنت شمس فإننا
 وكفيت الحرار يا أشرف القو

الباب الثامن فى الباذهنج وترتيبه

قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر فى باذهنج مظل على البحر:

أنا نعى من ابتـهـج انعش الروح والمـهـج
وعن البحر يا نسيـ سم حدث ولا حـرج
وقال ابن سناء الملك (توفى سنة ثمان وستمائة):

وباذهنج علا علا لكنه قد هوى هواء
دام عليك النسيم فيه كأنه يطلب الشفاء
وقال أبو الحسن عبد الكريم الأنصارى:

ونفحة باذهنج أسكرتنا وجدت بروحها برد النعيم
أتينا من أنيق الشكل سمح تراه مثل راووق النديم
صفا وجرى الهوى فيه رقيقا فسمينه راووق النسيم

ومما يحسن أن ينشد على لسان الباذهنج قول بعض العرب:

إذا الريح من نحو الجيب تبسمت وجدت لربها على كبدى بردا
وانى بتهباب النسيم موكل طروب وبعض القوم يحسبنى
وللشيخ برهان الدين القيراطى:

يا طيب نفحة باذهنج لم يزل بهوائه لنفوسنا تنفيس
مغرى بجذب الريح من آفاقها فكأنه للريح مغناطيس
وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة:

وباذهنج لا خلـت ديارنا من أنسـه
كأنه منـتـمـيم يلقي الهوى بنفسه
ولـه:

وباذهنج غدا فى الجو منظر من فوق منظره تبدو على سنن
فانظر فديتك يا محبوب رفعتـه واستنشق الريح من تلقاه يا سكنى

وله:

يا باذهنجى كم كــذا
أبديت حمقاً زائداً
تعلو على بان الحمى
رفعت رأسك للسما

وله مضمنا:

ودار حكت قصر السمؤل فاغتدت
أرى باذهنجى فى الهواء ارتفاعه
تباهى بينان لها وتقول
يعز على من راحه ويطول

وله مضمنا:

يا باذهنجى أما ترثى لذى حرق
عودتنا صدقات من لطيف هوى
يبدى لهيب الجوى مذبات يخفيها
فامن على بريح منك يجريها

وله مضمنا:

يا باذهنجى لا برحت من الهوى
دارى بحبك دائما مشغوفة
مثلى على حب الديار مولها
خلقت هواك كما خلقت هوى لها

وله:

وباذهنج تراه كغصن بان ترنج
يهتز عند العطايا لأنه يتريح

وله ملغزا فيه:

وذى جناح طوله
ما جار فى شرع الهوى
ولم يطر مع كونه
أضعاف ما فى العرض
وحكمه إذ يقضى
بين السما والأرض

وقال أبو الفتح بن قادوس يهجو:

لك باذهنج قلب صب له
مات النسيم به فأجمعنا
نفس يصاعد لوعة الحرق
نبكى عليه بأدمع العرق

ولصدر الدين بن عبد الحق (توفى تقريبا سنة ثمانين وسبعمئة):

فى البـاذهنج لا تنم
لا يأمن الشخص الذى
فما لمرضاه دوى
يسرق فى الليل الهوى

ولشهاب الدين بن أبى حجلة:

وباذهنج ريحـه
مدحتـه جهـلاً به
تضرم نيران الجوى
فراح مدحى فى الهوى

وله مضمنا فيه:

هجا الشعراء جهلا باذهنجى لأن نسيمه أبدا عليل
فقال الباذهنج وقد هجوه إذا صح الهوى دهم يقولوا

وقال شهاب الدين السبلى المالكى (توفى سنة أربع وستين وستمائة):

وياذهنج اذا حر المصيف أتى أهلى النسيم وقد رقت حواشيه
مصغ إلى الجوى ما ناجاه فحة الاونم عليه فهو واشيه

وأكثر الناس ويوعا بالباذهنج القاضى الفاضل فإنه قال من رسالة^(١): إني من مدة ستين وما قاربهما وهى المدة من تاريخها فرح بهجرة وكرى وعلو سعر شعرى قد نظمت مائتين وخمسين ألف بيت من الشعر بشهادة عيائها وحضور ديوانها مثل قولى فى باذهنج شديد الحرور كأنما يتنفس نفس مصدور ما يناهز ألف بيت كل مقطوع منها يخرع العقول اختراعه ويعفى المحاسن بديع ابتداعه.

ومثل قولى فى رجل طويل الأذان كأنهما فى رأسه خفان أوقد عجل له منهما نعلان، ما يقارب ألف بيت تجاوزت بهما وأوريت وما ادخلت منها الشاعر إلى بيت.
ومثل قولى فى رثاء الوطن الذى درجت من وكره وخرجت فلم أخرج عن ذكره ما يناهز عشرة آلاف بيت ومثل قولى:

فى مدايح منصوصه واهاجى مخصوصه
وللشيخ برهان الدين القيراطى ملغزا فيه:

أهواءنا المـختلفه قد أصبحت مؤتلفه
فى شامخ بأنفـه على العـوالى أنفـه
وذى جناح لم يـطر وكل طـير ألفـه
جناحه طول المـدا يبدى علينا رفـفه
كم من كـئيب عاشق أهلى له مشـرفه
ولا يزال مـرسـلا لنجـوه ملطفـه
فى الريح ضـاع قـول من على هـواه عنفـه
عليه الصـحـيح كم شفى قـلـوباً دنفـه
وروحه لطـيفـة وذاته منـحـرفـه
عن قـبـلة الدين أرى حب الهوى قد صرفـه

(١) قوله: فإنه قال من رسالة... إلخ. هذا ما رأيناه بالأصل فليحذر. اهـ.

ولم يكن مع الهوى
هواه تحت طوعه
كم عمت غمامة
ما زال غير ساكن
وكلمم للاح له
فنى الولي لذاته
سكانها سميها
فيه تشتي عصبية
ببدر ذو الرشيد ولا
حمدت مع تذييره
وكل ما أسرف فى
ونصفه مع جبل
نصحيث ثلثيه جلت
وثلثه حمر فان بل
أنفاسه كم أودعت
كم رنحت من غصن
معنلة هو الصاحب
وعرفه يعرفه
وثوبه الأبيض لا
آخره مصنف
وبيت سلطان غدا
يكنى بسدى لفظه
وسدسه أرى السما
فاكشف معى قلبه
نهار ذهنكم محى
يجرى لحل المشكلا

أعطافه منعطفه
كيف يشاء صرفه
هامسته المنكشفه
ساكنه مذلّفه
من الهواء الثقفه
بذاته مؤتلفه
فى الغرب يبدى حيفه
قد أصبحت مصيفه
ينسبه إلى السففه
ويذله تصرفه
بلد شكرنا أسرفه
ملك سواه متلفه
فض حديثه الشفه
حرف فذع من حرفه
محاسنا مستلطفه
ذى قامة مهفهفه
ح عند من قد عرفه
بالطيب حل عرفه
يزال ببدى صلفه
لعمالم قد صنفه
يصون فيه تحفه
عصابة مستنكفه
والأرض والماء يالّفه
فمثلكم من كشفه
من الظلام سدّفه
ت لم يخف توقّفه

وبحر ركم در و ما	صادفت فبه صدفه
وللمرقاب قلدت	هباتك المؤلفه
كل البـرايا نكرة	وأنت فـيهم معرفه
وخذ عروسا شفت	مذجلت مشنقه
زهـر لوبان له	زهر جـلاها قطفه
أغشى سناء طرفها	إذا لاح طرف طرفه
حديقة حاسدها	برعد مثل السفعه

obeikandi.com

الباب التاسع

فى النسيم ولطافة هبويه

وانما ذكرت النسيم لأنه من لوازم الباذهنجى، والنسيم الريح الطيبة ونسيم الريح أولها حين تقبل بلين قبل أن تشتد، ومنه الحديث «بعثت فى نسيم الساعة» أى حين ابتدأت وأقبلت.

وما أحسن قول بعضهم:

* نسيم الريح نسيب الروح *

قال أبو زكريا يحيى بن على الخطيب التبريزى الرياح المعروفة أربع: الصبا: وهى تسلى عن الكروب، والجنوب وهى تجمع السحاب، والشمال: وهى تعصره وتمرقه، والدبور: وهى تهدم البنيان وتقلع الشجر وهى المذكورة فى القرآن الريح العقيم وريح عاصف وريح صرصر.

وكل موضع جرى فيه ذكر الريح فالمراد بها الدبور والمراد بها العقوبة، وكل موضع جرى فيه ذكر الرياح فى القرآن فإنه يرجع إلى الثلاثة التى تقدم ذكرها فيراد به الرحمة. وقيل: الرياح ثمان أربع من الجهات الأربع، وأربع تسمى النكب لميلها، وتنكيبها عن الجهات الأربع فالشمال من ناحية الشام وذلك عن يمينك إذا استقبلت قبلة العراق فهبوبها من تحت بنات نعش، ويقابلها الجنوب وهى باردة يابسة صافية من الكدر تشد الأعضاء وتسد المسام وتحصر الحرارة فى الباطن فينهضم الغذاء وتصفو بها كدورة الروح الحيوانى الذى فى القلب من الأبخرة الدخانية وتديم الصحة وتقوى حواس الدماغ وذلك إن وصلت إلى الجسم باعتدال وهى قليلة الهبوب ليلا؛ ولذلك تقول العرب فى أحاديثها إن الجنوب قالت للشمال إن لى عليك فضلا لأننى أسرى وأنت لا تسرى، فقالت الشمال إن الحرة لا تسرى.

وكان للمتوكل بيت مال يسميه بيت مال الشمال فكلما هبت شمالا تصدق بألف درهم.

وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول سحيم عبد بنى الحساس:

وهبت شمالا آخر الليل سحرة ولا ثوب إلا درعها وردائها

فما زال بردى طيبا من نباتها إلى الحول حتى انهج البرد باليا
فقال عمر: إنك مقتول، فاتهم بعد ذلك بامرأة فقتل.

قال أبو نواس (توفى سنة ثمان وتسعين ومائة) وفيه ثلاث روايات:

هبت لنا ريح شامية منت إلى القلب بأسباب
أدت رسالات الهوى بيننا عرفت بها من بين أصحابي

يحكى أن صاحب بن عباد - رحمه الله تعالى (مولده سنة ست وعشرين وثلاثمائة ووفاته سنة خمس وثمانين وثلاثمائة) كان إذا سمع هذين البيتين ترنح لهما.

قال الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف القيسى حدثني من دخل سجستان وكرمان أن جميع أرحائهم ودواليهم تدور بريح الشمال قد جعلت منصوبة تلقائها، وأن هذه الريح تجرى عندهم على الدوام صيفا وشتاء وهى فى الصيف أكثر وأدوم وربما سكنت فى اليوم والليلة أو مرات فيسكن كل رحي ودولاب بذلك الاقليم، ثم يتحرك فيتحرك وذكر أن هذه الدواليب المنصوبة بها اثنا عشر ألفا وتنقطع بانقطاعها قال والخصب والقحط فى بلادهم معتبر بكثرة جريان ريح الشمال وقلته قال ولهم فى الأرحاء منافس تغلق ليقل ويكثر وذلك أنها إذا كانت قوية أحرق الدقيق فيخرج به أسوداً وربما حوى الرحاء فانفلق فهم يحتاطون لذلك بما ذكرناه.

والصبا تأتى من مطلع الشمس وهى القبول والبدور يقابلها وهى معتدلة ولا سيما إن هبت قبل طلوع الشمس فى زمان الربيع، وهى لطيفة صافية تذكى الأذهان وتبسط الأخلاق لا سيما إن مرت بمروج أزهار نافعة فأنها تحمل قواها إلى القلب والدماغ.
وإلى نفعها أشار الشاعر:

وصبا أنت من قاسيون فسكنت بهبويها وصب الفؤاد البالى
خاضت مياه النيرين عشية وأتتك وهى بليلة الأذيال

وقال سيف الدين المشد (ومولده سنة اثنين وستمائة، وتوفى سنة خمس وخمسين وستمائة):

مسكية الأنفاس تملئ الصبا عنها حديثا قط لم يملل
جنت لما ان سرى عرفها وما نرى من جن بالمندل

وقال مجير الدين الخياط (ومولده سنة خمسين وأربعمائة، ووفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة):

يا نسيم الصبا الولوع بوجدى حبذا أنت لو مررت بهند
ولقد رابنى شذاك فبالد متى عهده يا طلال نجد

وقال المهيار الديلمى وتلطف (توفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة):

حملوا ريح الصبا نشركم قبل ان تحمل شيحا وخزاما
وابعثوا لى فى الدجى طيفكم إن أذنتم لجففونى أن تناما

وروى المرزبان باسناده أن المجنون خرج مع أصحاب له ليتمار من وادى القرى فمر بجبلى نعمان فقالوا: إن هذين جبلا نعمان وقد كانت ليلى تنزلهما، قال فأى ريح تجرى من نحو أرضها إلى هذا المكان، فقالوا الصبا فقال والله لا أبرح حتى تهب الصبا فأقام فى ناحية من الجبل ومضوا فامتاروا لهم وله ثم أتوا فحبسهم حتى إذا هبت الصبا رحل معهم وفى ذلك يقول:

أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها
أجد بردها أو تشف منى حرارة على كبد لم يبق إلا صميمها
فان الصبا ريح متى ما تنسمت على نفس مهموم تجلت همومها

وضمن البيت الأول) الشيخ صفى الدين الحلى فى مليح اسمه نعمان فقال:

أقول وقد عانقت نعمان ليلة بنور محياه أنار اديمها
وقد أرسلت الياء نحوى فسوة يروح كرب المستهام شميمها
أيا جبلى نعمان بالله خليا نسيم الصبا يخلص إلى نسيمها

أقول وعلى ذكر نعمان والكناية عنه فما ألطف ما ذكره الشيخ بدر الدين حسن بن زفر المتطبب الاربلى فى كتابه روضة الجليس ونزهة الأنيس وهو ان بعض الرؤساء قال: أخبرنى بعض الأصحاب قال كنت يوما جالسا عند صديق لى بالموصل إذ جاءه كتاب من بغداد من صديقة له فيه تشوق وفيه هذا البيت عتاب وهو:

تناسيتم العهد القديم كأنا على جبلى نعمان لم نتجمعا

فأخذ يستحسن هذا البيت ويهزله، فقلت له بالله عليك يا فلان أسألك شيئا ولا تخفه عنى، قال سل، قلت هذى معشوقتك صاحبة هذا الكتاب هل كنت تأتيتها من وراء الدار فقال إى والله ومن أين علمت ذلك؟ قلت من هذا البيت لأنها ذكرت لك فيه بجلى نعمان وجبلى نعمان كناية عند الظرفاء من الناس عن جانبى كفل المليحة والمليح، فقال والله ما ادركت من هذا البيت الذى ادركت.

وكان لبسيد بن ربيعة العامري آلى فى الجاهلية أن لا تهب صبا إلا نحر وأطعم الناس حتى تسكن وألزم نفسه ذلك فى الإسلام فلما كانت أيام عثمان جعل ديوان لبسيد بالكوفة، وخطب الوليد بن عقبة الناس بها فى يوم صبا فقال: معاشر الناس إن أخاكم لبسيد آلى فى الجاهلية ألا تهب صبا إلا أطعم الناس حتى تسكن وقد ألزم نفسه ذلك فى الإسلام وهذا اليوم من أيامه فأعينوه وأنا أول من يعينه، ونزل فبعث إليه مائة بكرة وكتب إليه يقول:

أرى الجزار يشحد شفرتيه إذا هبت رياح أبى عقيل
أشم الأنف أصيد عامرى طويل الباع كالسيف الصقيل
ووفى الجعفرى بما عليه على الغلات والمال الثقيل

فلما أناه الشعر قال لابتته يا بنية أجيبه فقالت:

إذا هبت رياح أبى عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
أشم الأنف أصيد عبشميا أعان على مروته لبيدا
بأمال الهضآن كأن ركبا عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها وأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد وظنى يا بن أروى أن تعودا

فقال أبوها أحسنت لولا أنك استطعمتيه.

ولبسيد هذا صحابى قدم على النبى ﷺ مع قومه بنى جعفر بن كلاب وهو صاحب إحدى القصائد المعلقة التى أولها:

* عفت الديار محلها فمقامها *

وإنما أمر ابتته أن تجيب الوليد لأنه لم يقل شعرا منذ أسلم، وقال بعضهم لم يقل فى الإسلام الا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقيل: هذا البيت لغيره، وهو أصح.

وقيل هذا البيت الذى قاله فى الإسلام بيت عجزه:

* والمرء يصلحه القرين الضالـح *

وقال له عمر - رضي الله عنه - يوما يا أبا عقيل أنشدنى شيئاً من شعرك فقال: ما كنت لأقول شعرا بعد إن علمنى الله البقرة وآل عمران فزاده فى عطائه خمسمائة وكان ألفين.

وقالت عائشة رضي الله عنها رويت من شعر لبيد اثني عشر ألف بيت، وقالت أيضا رحم الله لبيدا

حيث قال:

ذهب الذين يعاش فى أكتافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجر ب

قلت: كيف لو أدرك زماننا.

وكان لابن الجوزى - رحمه الله تعالى - زوجة اسمها نسيم الصبا فاتفق أنه طلقها فحصل له بعد ذلك ندم وهيام أشرف به على العدم فحضرت فى بعض الأيام مجلس وعظه فحين رآها عرفها، فاتفق أنه جاء امرأتان وجلسا أمامه فحجبتها عنه فأنشد فى الحال:

* أيا جبلى نعمان بالله خليا *

وهذا من جملة لطائفه وظرائفه.

ومنها أنه أنشد فى بعض مجالس وعظه:

أصبحت ألطف من مر النسيم سرى على الرياض يكاد الوهم يؤلمنى
من كل معنى لطيف أجتنى قدحا وكل ناطقة فى الكون تطربنى

فقام إليه إنسان وقال فإن كان الناطق حمارا، فقال أقول له يا حمار اسكت.

وقال صلاح الدين الصفدى:

صدق خلى نسيمات الصبا فيما روت عنكم وما شك
قال لا أخبر منها بما جاءت به قلنا ولا أذكرى

وقال جمال الدين بن نباتة:

يداوى أسا العشاق من نحو أرضكم نسيم صبا أضحى عليه قبول
بروحى من ذاك النسيم إذا سرى طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال شهاب الحاجبى (توفى قريبا من سنة سبعين وسبعمائة):

لا تبعثوا غير الصبا بتحية ما طاب فى سمعى حديث سواها
حفظت أحاديث الهوى وتضوعت نشرا فبالله ما أذكاه

وقال بدر الدين بن الصاحب:

أسكرتم ريح الصبا بالشذا حتى أذاعت سمرنا بالبطاح
لا تعنّبوها إن أذاعت هوى فما على السكرى بهذا جناح

وقال بدر الدين حسن العربى (ومولده سنة ست وسبعمائة، ووفاته سنة خمس

وخمسين وسبعمائة):

سرت من بعيد الدار لى نسمة الصبا فقد أصبحت حسرى من السير ظالعه
ومن عرق مبلولة الجيب بالندا ومن تعب أنفاسها متابعه
ولما أنشدتهما السيد القاضى صدر الدين بن الأدمى - فصح الله فى أجله (مولده سنة
ثمان وستين وسبعمائة) قال: لو قال الشيخ بدر الدين

* فقد أصبحت معتلة وهى ظالعه *

لكان أحسن من قوله حسرى، ولعمري صدق فيما قاله.

وما أطف القاضى أمين الدين عثمان بن عطايا فى قوله:

أنا أهوى غصن النقا وهواه وفؤادى بحبه فى التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه وتلطف به ولا تؤذيه
وتحمل رسالة ليس إلا كأمين فى حملها ارتضيه
فإذا لم يكن رسولى نسيم نحو غصن النقا فمن يثنيه
وللشيخ شمس الدين الواسطى، من متأخري شعراء الديار المصرية من موشحه:

نسائم الأسحار * بنشرها السفوح * تحرك الأغصان * لأنها أرواح
فقم بنا نسعى * لمربع يانع * للماء والمرعى * فيه غدا جامع
قد أطرب السماع * قمره الساجع

كانما تكرر * غناه فى الأدواح * ضرب من العيدان * لمن غدا أورا
ولمؤلف الكتاب لطف الله به:

إن هبت الأرواح من نحوهم فانتشت الأشباح من راحها
لا تعتبونا فى الهوى واسكنوا أشباحنا حنت لأرواحها
ولم أر أحدا وصف الريح غير الأديب أبى القاسم أسعد بن على الكاتب المترسل فى
قوله:

كان شكل الهلال قرط أو عطفة النون أو قلامه
كان لون الهواء ماء أو سندس رق أو غمامه

حكى أن نور الدين على بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب مرّ مع جماعة
من الأدباء المصريين ومنهم أبو الحسين الجزار فمروا فى طريقهم بمليح نائم تحت شجرة
وقد هب الهوى فكشف ثيابه عنه، فقال أبو الحسين الجزار قفوا لينظم كل واحد منا فى هذا
شيئا، قال فما لبث أن قال نور الدين:

الريح أقود ما يكون لأنها تبدى خبايا الردف والأركان
وتميل بالأغصان عند هبويها حتى تقبل أوجه الغدران
وكذلك العشاق يتخذونها رسلا إلى الأحباب والأوطان

فقال أبو الحسين ما بقى أحد منا يأتى بمثل هذا سيروا بنا.

وقال النور الاسعدى (ووفاته سنة ست وخمسين وستمائة):

تميل الريح بالأغصان لطفا كما مالت بشاربها العقار
وتجمع بينها من بعد بعد وأوراق الغصون لها آزار
وتخفق غيرة عند التلاقى فهل أبصرت قوادا يغار

وما أحسن قوله وإن كان فى غير ما نحن فيه:

اعدى سقام جفونه جسمى وأعدمنى الكرا
حتى اعتللت بسرعة مثل النسيم إذا سرى

وأشندنى من لفظه لنفسه الشيخ العلامة عز الدين أبى الخير على ابن الشيخ بهاء الدين

الحسين الموصلى - تغمده الله بالرحمة:

رُبَّ نسيم قسد سرى تحدو سحابا ممطرا
أذباله بليلة تخبرنا بما جرى

وأشندنى من لفظه لنفسه سيدى الشيخ وأخى تقى الدين أبى بكر بن حجة الحموى

فسح الله فى أجله، من قصيدة تنبوية أولها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم
وضاع شذاكم بين سلع وحاجر فكان دليل الظاعنين إليكم
ولما روى أخبار نشر ثغوركم أراك الحمى جاء الهوى يتبسم

وقال القاضى مجير الدين بن عبد الظاهر:

شكر النسمة أرضهم كم بلغت عنى تحييه
كم قسد أطالت بل أطا بت فى رسائلها الزكيه
لا غرو أن حفظت أحبا ديث الهوى فهى الذكيه

ومن هنا أخذ صلاح الدين الصفدى قوله وهو حسن عندى:

يا طيب نشر هب لى من أرضكم فأثار كامن لوعتى وتهتكى
أهدى تحيتكم وأشبهه لطفكم وروى شذاكم ان ذا نشر ذكى

وقال شهاب الدين أبى حجلة مخاطبا صلاح الدين:

ان ابن ايبك لم تزل سرقاته تأتى بكل قبيحة وقبيح
نسب المعانى فى النسيم لنفسه جهلا وراح كلامه فى الريح

وكان القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر - رحمه الله تعالى - يحب مغنيا اسمه النسيم وله فيه عدة مقاطيع وقد ذكر بعضها الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة من رقعة كتبها إلى القاضى علاء الدين بن فضل الله فى منزلة الأهرام قال:

وقد كان تقدم من انعامه ثوب صوف أحمر، ونصفه فى يوم ماطر ونسأل - الله تعالى - أن لا يخلى ذوى العارض الممطر من جاء مولانا العريض وحلل انعامه التى هى كالدنانير الحمر والدراهم البيض ونصف مبيتة فى هذه المنزلة التى أصبحت كليله القدر عندى ذات أندية وخيامها التى ولو كان طالعة بها سعد الأخبية وبردها اليا بس الذى لم يترك منه رطبا سوى لسانه بصالح الأدعية هذا والهرم يضرب حتى اللحية بالشيب وأبو الهول إلى جانبه يرجم حين يرجع بالغيب فإن شبت من هوله فالهرم أمامى وإن فررت من نسيمه فهوى ناقتى خلفى وقدامى.

هوى تذرف العينان منه وإنما هوى كل نفس حيث حل حبيبها

فلو حكم به على القاضى محبى الدين بن عبد الله الظاهر - رحمه الله تعالى - وقد حمى بهيوه الوطيس لاشتغل بنفسه ولترك محبوه النسيم فى الريح المريس وذلك بعد أن قال فيه:

إن كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذى أنلو لهم يا ليلى كنت اتخذت مع الرسول سيلا
فقلت كأنى حاضر أخاطبه:

إن كنت فى عشق النسيم متيما وزعمت أن هواه ليس بمستلف
فأنا أقول لمن تحرش بالهوى عرضت نفسك للبلأ فاستهدف

وقال القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر فيمن اسمه نسيم:

يا من غسدا لى من عوا صف هجره الريح العقيم
أترى يطيب لى الهوى ويقال لى رق النسيم

فقلت له مجاوبا:

بالله إن ريق النسيم وأخمدت نار تؤججها يد التبريح
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ودع العذول وقوله فى الريح

قلت: وعلى ذكر الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى رسالته المذكورة فى ليلة من جمادى ذات أندية ذكرت ما قاله الشيخ المحدث الرحلة فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس - رحمه الله تعالى - قال: كان القاضى فخر الدين بن نعمان والقاضى تاج الدين أحمد بن الأثير (توفى تاج الدين سنة سبعين وستمائة) صحبة السلطان على تل العجول ولفخر الدين مملوك اسمه الطنبا فاتفق أنه دعى لمملوكة المذكور بالطنبا، فقال له نعم ولم يأته وتكرر طلبه له وهو يقول نعم ولم يأت، وكأنت ليلة مظلمة مطيرة فاخرج فخر الدين رأسه من الخيمة وقال تقول نعم ولم أرك فقال تاج الدين:

فى ليلة من جمادى ذات أندية لا يبصر الكلب فى أرجائها الطنبا
وقال بعض العشاق:

ألا يا نسيم الريح ما لك كلما تدانيت منا زاد نشرك طيبا
أظن سليمي خبرت بسقامنا فاعتطك رباها فحييت طيبا

وكان أبو الفرج الوأواء محمد بن أحمد الدمشقى من حسنات الشام وصناعة الكلام وكان مبدؤه مناديا بدار البطيخ بدمشق قال: قال ابن حمدون كان الفتح بن خاقان يأنس بى ويطلعنى على الخاص من أموره فقال: مرة يا أبا عبد الله لما دخلت البارحة إلى منزلى استقبلتنى جارية من جوارى فلم أتمالك دون أن قبلتها فوجدت بين شفيتها هوى لو رقد المخمور فيه لصحبا، فكان ذلك مما يستملح ويستظرف من الفتح بن خاقان فسمع الوأواء ذلك فقال:

سقى الله ليلا طاب إذ زاد طرفه فأفئته حتى الصباح عناقا
بطيب نسيم منه يستجلب الكرى فلو رقد المخمور فيه أفاقا

وقال علاء الدين الجوينى صاحب الديوان دوبيت:

لله مبيتنا بضوء القمر والحب نديمنا وصوت الوتر
قد فرق بيننا نسيم سحررا ما أبرد ما جاء نسيم السحر

وما أطف ما قال سيدى تقى الدين بن حجة - أبقاها الله تعالى - من موشحة امتدح بها

سيدنا ومولانا الإمام العلامة المفنن قاضى القضاة أبى الحسن علاء الدين الشهير بالقصا
الحاكم بمدينة حماه المحرومة - أسبغ الله عليه ظلاله - مضمنا:

بالله يا برق إن أومضت فى الشجر وحارس اللحظ فى شك من الخير
قف بالثنيات واذكرنى إذا عذبت مسهلات عذيب الشجر فى السحر
وارسل عليل النسيم خلفى معرفا بالشذا ومشفى
ولا تقل إنه المعتل فى شغل فربما صحت الأجساد بالعلل

وللقاضى الفاضل:

يا لمعة البرق بل يا هبة الريح روحى بجسمى إلى من عنده روحى
خذى لهم من دموى عنبراً عبثاً وأوقديه بنار من تباريحى
ناشدتك الله إلا كنت مخبرة عنى بأنهم ذكرى وتسبيحى

وذكر الوهرانى فى أول منامه هذه الأبيات ولم أدر هى له أم لغيره (توفى سنة خمس
وسبعين وخمسمائة):

أيا نفحة أهدت إلى تحية ينم عليها العرف من أم سالم
مشت فى أراك الوديين فنبهت به كل نشوان المعاطف ناعم
ألا إنما أحكى بدمعى ولوعتى بكاء الغوانى وانتحاب الحمائم

حكى عن الاصمعى أنه قال: كانت امرأة من العرب تأتى بصبية لها قبل الصبح فتقف
على تل عال هناك وتقول: أى بنى خذوا صفو هذا النسيم قبل ان تكدره الخلائق بأنفاسها.

ولمؤلف الكتاب لطف الله به - قصيدة:

ألا يا نسيم الريح وفى أيديك تبريحى
قفى أسألك عن قلبى وإن شئت أقل روحى

الباب العاشر فى الفرش والمساند والأرائك

ذكر القاضى الرشيد أبو الحسين أحمد ابن القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه (العجائب والطرف والهدايا والتحف) أنه لما عزم المتوكل على اعذار المعتز أمر الفتح ابن خاقان بالتأهب لذلك وأن يلتمس فى خزائن الفراش بساطا للايوان فى طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ذراعاً، فلم يوجد إلا فى ما مضى من بنى أمية فإنه وجد فى أمتعة هشام بن عبد الملك على طول الايوان وعرضه، وكان بساطا لم ير لاحد مثله ابرسمى مذهب مقزوز مبطن فلما رآه المتوكل استحسنته وبسطه فى الايوان بعد أن قوم فى أوسط التقويم بعشرة آلاف دينار ونصب للخليفة فى صدر الايوان سرير ومد بين يديه أربعة آلاف مرفع ذهب مرصعة بالجواهر فيها تماثيل العنبر والمسك والكافور المعمول على مثل الصور منها ما هو مرصع بالجواهر مفردا ومنه ما عليه ذهب وجوهر، وجعلت بساطا ممدودا اوقعد المتوكل والناس جلوس وهو على سريره وحضرت القواد والأمراء والندماء وأصحاب المراتب وجلسوا على مراتبهم، ووضعت بين أيديهم من الجانبين وللسماط فرجة وجاء الفراشون بزمّل غشيت بأدم مملوء دنانير ودراهم نصفين وصب فى تلك الفرجة حتى ارتفعت، وقام الغلمان دونها وأمر الناس بالشرب وأن يتثقل كل من يشرب من تلك الدنانير والدراهم ثلاث حفنات بمقدار ما حملت يداه، وكلما فرغ صب فيه من الزمّل حتى يرد إلى حالته، ووقف غلمان فى آخر المجلس فصاحوا أن أمير المؤمنين أمر أن يأخذ من شاء ما شاء فمدوا أيديهم إلى المال وأخذوه، وكان إذا أثقل الواحد ما فى كفه ناوله إلى غلمانه ثم يعود إلى مجلسه، وخلع على من حضر ثلاث خلع حسان على مراتبهم، وأقاموا إلى أن صليت العصر والمغرب وحملوا عند انصرافهم على الخيل والمهاري، وأعتق المتوكل عن المعتز ألف عبد وأمر لكل واحد منهم بمائة درهم وثلاثة أثواب، وكان فى حصن الدار بين يدي الايوان أربعمائة مكبة عليها أنواع الثياب وبين أيديهم مكبة فيها أنواع الفاكهة، وتقدم إلى صاحب الباب أن ينشروا على خدام الدار والحاشية ما كان أعد لهم وهو ألف درهم فلم يقدر أحد على التقاط شيء فأخذ الفتح

درهما فاكب الجماعة على المال فنهبوه وكانت قبيحة أم المعنز بالله قد تقدمت بضرب دراهم عليها مكتوب (بركة من الله واعذار أبي عبد الله) فضرب ألف ألف درهم نثرت على وجوه الغلمان والشاكرية وقهرمانات الدار والخدام والخاصة من الصبيان والسودان.

وسأل أبو العباس الصولي حرمة المزنى كم وصل إليك من اعذار المعنز فقال: صار إلى أن وضع الطعام نيفا وثمانين ألف دينار سوى المصاغات والخواتيم والجواهر.

وحضر المجلس محمد المنتصر وأبو أحمد وأبو سليمان ابنا الرشيد، وأحمد وأبو العباس ابنا المعتصم، وموسى بن المأمون وابنا حمدون النديم، وأحمد بن أبي رويم والحسين بن الضحاك، وعلى بن الجهم وعلى بن يحيى المنجم وأخوه أحمد، ومن المغنين: عمرو بن بانة وأحمد بن أبي العلاء والحفصي بن المكي وسلمك الرازي وثمرة وسلمان الطبال والمسود وأبو حشيشة بن الفضل وصالح الدفاف وزنام الزامر وتفايح الزامر، ومن المغنيات: غريب وبدعه جاريتها وشراب وجواريتها وتندمان وتنعيم ونحلة وتركية وقديرة ورائك وعرفان.

قال وأقام المتوكل بالقصر ثلاثة أيام ثم صعد إلى قصره الجعفرى وتقدم إلى إبراهيم ابن العباس يعمل حساب ما انفق فاشتمل على ستة وثمانين ألف ألف دينار وفضل بعد القسم عن الناس واخراج الخمس مما فى المدائن بساط كسرى أنفذه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقسمه بين الناس، فأصاب على قطعة منها بعشرين ألف دينار وما كانت بأجود القطع، وكانت الفرس تسميه القطف وكان طوله ستين ذراعا فى عرض ستين حرير فيه طرق كالصور وفيه فصوص كالانهار، وخلال ذلك فى الافريز وفى حافاته كالارض المزروعة المقبلة بالنبات فى أوان الربيع فى قضبان الذهب والفضة ونواره كالجواهر وأشباه ذلك وشبه فصوص ورسمه بالجواهر وزخرفته بحرير وذهب، وكانوا يدخرونه للشقاء إذا ذهب الرياحين وأرادوا الشرب شربوا عليه فكانهم فى رياض وكان أفضل ما أصيب بالقادسية وكانت قيمته ستة وثلاثين ألف ألف دينار.

ووجد لأم المعنز بالله ثلاث دواويج كانت تستعملهن فقوم الدواج بأكثر من ألف دينار ووجد لها جلود السمور فتحلق ما عليها من الوبر وترمى الجلود فإذا اجتمع من ذلك ما يكفى الدواج تنثر فيه مع فت من المسك والعنبر وتجعله بين البطانة والظهارة عوضا عن القطن.

بساط يرى التيجان تهوى للثمة
إذا نشرت من نقشه لك روضة
وأفضل أجزاء الجسوم رءوسها

فما هو إلا قبلة أو مقبل
بدا فوقها من كفه لك جدول
وأرجلها في وطئ بسطك أفضل

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر ملغزا في شبرية:

يقول محدثي لما اضطجعنا
قصدتم عند طبيب الوصل هجرى
وأنشدني لنفسه أيضا:

بشـحـانـة تـطـرـزت قـالـت بـلـفـظ مـوجـز
عـلـى الحـرـير قـد سـمـا قـدـرى وـالمـطـرـز

وقال الشاعر الظريف محمد بن العفيف:

بساط يملأ الأبصار نورا
ويشرح حين ييسط كل صدر

ويهدى للقلوب به سرورا
وخير البسط ما أرضى الصدورا

وقال ظافر الحداد فيما يكتب على كرسي:

نزه لحاظك فى غريب بدائعى
فكأننى كفا محب شبكت

وعجيب تشييهى وحكمة صانع
يوم الوداع أصابعا بأصابع

وذكر القاضي الرشيد بن الزبير في كتابه (العجائب والطرف) قال الفضل بن الربيع لما ولي محمد الأمين الخلافة في سنة ثلاث وتسعين ومائة أمرني أن أحصى ما في الخزائن من الكسوة والفرش والآلة، فاجتمعت كتاب الخزائن وأقاموا أربعة أشهر يحصون،

فأشرفت على ما لم أتوهم أن خزائن الخلافة تحويه ثم أمرهم أن يعملوا لكل صنف جملة فكان فى خزائن الكسوة أربعة آلاف جبة منسوجة بالذهب وعشرة آلاف قميص وغلالة وعشرة آلاف خف وألفا سروال وكثير من أصناف الثياب وأربعة آلاف عمامة وألف طيلسان وخمسة آلاف منديل من أصناف المناديل وخمسمائة قطيفة خز ومائة ألف وسادة ومخدة خز وألف بساط ملون وألف مخدة ميسانى وألف وسادة ميسانى وألف بساط طبرستانى وألف وسادة ديباج وألف وسادة خز مرقوم وألف ستر حرير ساذج وثلاثمائة ستر مرقوم وخمسمائة بساط طبرى وألف وسادة طبرى وألف مرقعة وألف مخدة طبرى، ومن الآنية ألف طست ذهب وألف إبريق ذهب وثلاثمائة كانون فضة وذهب وألف نور شمع ذهب وألف قطعة نحاس من سائر الأصناف وألف منطقة ذهب، ثم ذكر السلاح وأصنافه وقد ذكرته فى بابه.

الباب الحادى عشر

في الأرياح الطبية والمروحة وما شاكل ذلك

قال انس بن مالك رضي الله عنه: دخل علينا النبي ﷺ فنام عندنا فعرق وجاءت أمى بقارورة فجعلت تسلك فيها العرق فاستيقظ فقال: يا أم سليم ما هذا الذى تفعلين قالت عركك نجعله فى طينا وهو من أطيب الطيب.

وما أحق هذا الطيب بقول القائل وهو الشيخ عز الدين الموصلى:

تنشق مسك أصداغى حلالا فهذا الطيب من عرق الجبين

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كنت تاجرا ما اخترت غير المسك إن فاتنى ريحه لم يفتى ريحه.

أهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية، فسأله كم أنفق عليها فذكر مالا كثيرا، فقال هذه غالية فسميت بذلك.

وما أحسن قول أبى بكر الخوارزمى (توفى سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة):

وطيب لا يحل بكل طيب يحيينا بأنفاس الحبيب

متى تشمه أنف حن قلب كأن الأنف جاسوس القلوب

وكان يوزن بين يدى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه مسك للمسلمين فيأخذ بانه لثلا يصيب الرائحة ويقول: وهل ينتفع إلا بريحه.

وقال جعفر بن سليمان الهاشمى فى الطيب أربع خصال: لذة ومروءة ومنفعة وسنة.

ولما دخل عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان ابنة عمه أوقد فى مسارحها تلك الليلة الغالية فقوم ثمن ذلك فبلغ عشرين ألف دينار.

نادوة: تبخر بعض الأمراء وعنده مزيد ففرطت منه رويحة خفيفة وأراد أن يدرى هل فطن لها مزيد، فقال ما أطيب هذه المثلثة، فقال نعم إلا أنك ربعها.

سئل جالينوس عن منافع الطيب فقال: المسك يقوى القلب، والعنبر يقوى الدماغ والكافور يصلح الرئة، والعود يقوى المعدة، والغالية تحلل الزكاة، والمثلث ينشف العرق.

وقال ضياء الدين المناوي) في المسك:

المسك انفس طيب
إن كان للطيب عين
وله في العود:

المندلى كريم
لمسا أراد يرينا
غدا على النار ملقى
وقال الشيخ زين الدين ابن الوردى:

تجادلنا أماء الزهر أذكى
وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا
ولبعضهم فى مبخرة:

عطرت مجلسى بنية طيب
وإذا اعتل للنسيم بخار
وللشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فيها:

ومبخرة تحكى المقيم فى الهوى
تقول وقد نمت بعرف بخورها
ولمؤلفه لطف الله به وإن كان غير مقصودنا:

مذ باعنى بالأس لا
حكموا بصحة بيعه
وله:

سرحت مشطى سائلا
إن لم تجد برخيصةها

وقال الشيخ جلال الدين ابن خطيب داريا:

حكيت فى اللطف نسج العنكبوت على
يكاد أن لا يرانى غير ذى نظر
من اللطافة إلا طيب أنفاسى

صفة غالبية لذيدة يؤخذ مسك جيد جزء وعبر ربع جزء ومسك جزآن وسنبل الطيب
جزء يسحق الجميع ناعما ويعجن بدهن بان ويرفع ويستعمل.

صفة ند له فى تفريح القلب أمر عجيب وفعل بالغ غريب. يؤخذ عنبر جيد فيوضع فى إناء مسطح من نحاس على نار ويصب عليه شئ يسير من ماء ورد ويترك إلى أن يلين ويدعك ويعلق به وزنه مسك جيد ومثل نصف وزنه عودا مسحوقا ويدعك دعكا جيدا ويسط على رخامة ويقطع قطعا ويبخر به فإنه عجيب فى تقوية القلب والقوة وإحداث التفريح.

صفة ذرية منسوبة إلى جعفر البرمكى وكان كثير التبخير بها فى أكثر ساعات نهاره وليله: يؤخذ سليخة وقرنفل وفاغرة من كل واحد جزء وسنبل الطيب وقسط مر وصندل مقاصيرى وعود وكبابة وفاغلة من كل واحد نصف جزء وزعفران ربع جزء يدق الجميع ناعما ويوضع فى إناء من صينى ويسقى بماء الورد وماء القرنفل والنمام وماء الآس كل يوم مدة ثلاثة أيام، ثم يترك إلى أن يجف ويسحق ناعما ويضاف إليه كافور ومسك ويتبخر به. نقلت هذه الصفحة من كتاب (مفرح النفس) تأليف الحكيم الفاضل بدر الدين مظفر بن قاضى بعلبك الذى ألفه للأmir الفاضل سيف الدين عمر ابن قزل المشد - تغمده الله بالرحمة.

القول فى المروحة: وهى ثلاثة أنواع: مروحة الخيش، ومروحة الاديم، ومروحة الخوص، ومن أحسن ما سمع فيها قول عرقلة:

ومجوبة فى القيض لم تخل من يد وفى القر يسلوها أكف الحبائب
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا أنت بالهوى الممدود من كل جانب
وقال ابن معقل:

ومروحة أهدت إلى النفس روحها لدى القيض ميثونا بأهداء ريحها
روينا عن الريح الشمال حديثها على ضعفه مستخرجا من صحيحها
وقال نور الدين على بن صاحب تكريت والله دره:

يا سائلى عن نسيم طي مروحة أهدت سرورا بترجيع وترويح
أما ترى الخوص أهدى من مراوحه ما أودعته قديم نسيمه الريح
قلت: وعلى ذكر الخوص فما أحسن ما قاله الشيخ برهان الدين القيروا فى وصف

النوق:

صاح هذى قباب طيبة لاحت وفؤادى على اللقاء حريص
وتبدت نخيلها للمطايا فعيون المطى للنخل خوص،

قال أبو الفوارس سوار بن اسرائيل الدمشقى (مولد ابن اسرائيل سنة ثلاث وستمائة ووفاته سنة سبع وسبعين وستمائة): كنت عند صلاح الدين يوسف بن أيوب فحضر إليه رسول صاحب المدينة - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - ومعه قود^(١) وهدايا فلما جلس أخرج من كفه مروحة بيضاء عليها سطران من نساجة السعف الأحمر وقال الشريف لخدم السلطان خذ هذه المروحة فما رأيت أنت ولا أبوك ولا جدك مثلها فاستشاط السلطان صلاح الدين غضبا فقال الرسول: لا تعجل بالغضب قبل تأملها وكان صلاح الدين ملكا حليما فإذا فيها مكتوب:

أنا من نخلة تجاور قبرا ساد من فيه سائر الناس طرا
شملتني سعادة القبر حتى صرت فى راحة ابن أيوب أقرا^(٢)
وإذا هى من خوص النخل الذى فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقبلها صلاح الدين ووضعها على وجهه.
وقال بعضهم فيها:

اننى أجلب الريا ح وبى يذهب الخسجل
وحجاب إذا الحبيب ب ثنى الرأس للقبيل
وأما مروحة الأديم فإنها على نوعين أحدهما مستديرة إلا موضع النصاب لا غير، والأخرى مستديرة، ثم يقطع ربع دائرتها التى تلى الوجه.
وفىها يقول ابن خروف:

ومروحة^(٣) إذا ما تأملتها ترى فلكا دائرا باليد
وتطوى وتنشر من حسنهما فتشبه قزعة الهدهد
وأما مروحة الخيش فقد ذكرها الحريرى فى المقامات حيث قال: اسمعوا وقبتم الطيش وملبتم العيش وانشد ملفزا فى مروحة الخيش:

وجارية فى سيرها مشمعة ولكن على أثر القفول قفولها
لها سائق من جنسها يستحثها على أنه فى الاحتثاث رسلها
ترى فى أوان القبيض تنطق بالندا ويبدو إذا ولى المصيف قحولها
قال الشريشى فى شرح المقامات: هذه المروحة تكون شبه الشراع للسفينة وتعلق فى

(١) القعود: الخيل، أو التى تقاد بمقاودها، كما فى القاموس. اهـ.

(٢) قوله: «أقرا» هكذا وجد فى الأصل. اهـ.

(٣) قوله: «ومروحة...» إلخ، لا يخفى ما فى هذين البيتين.

سقف ويشد بها حبل تدبر به مشيها وتبل بالماء وترش بماء الورد، فإذا أراد الرجل فى القائلة أن ينام جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجىء فيهب على الرجل منها نسيم بارد طيب الريح فيذهب عنه أذى الحر ويستطيب وهى فوقه ذاهبة وجائفة؛ ولذلك سماها جارية. ومشمعلة سريعة الذهاب وققولها رجوعها والسائق الشريط الذى يسوقها إذا جذبت به يستحثها يستعجلها ومن جنسها أى هو من كان مثلها رسلها أى يرسل معها لزاوية البيت، وترجع معها أو إن القيض وقت الصيف وتنطف تقطر، وقحولها ييسها انتهى. كلام الشريشى.

قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة: وهذه المروحة محدثة فى زمن بنى العباس وكان سبب حدوثها أن هارون الرشيد دخل يوما على أخته عليّة بنت المهدي فى قيض شديد فألفاها قد صبغت ثيابا من زعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف فجلس هارون قريبا من الثياب المنشورة فجعلت الريح تمر على الثياب فتحمل منها ريحا بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر واستطابة، فأمر أن يصنع له فى مجلسه مثله على الوجه المشروح فى كلام الشريشى فاشتهرت واستعملها الناس.

ومن ملح الغاز الصاحب بن عباد فيها قوله لأبى العباس الحارث فى يوم قيض ما يقول الشيخ فى قلبه فلم يفهم عنه أراد فى قلب الشيخ وهو خيش وقال السرى الرفاء:

مصندلة تختال فيها الكواعب	وخيش كما نجرت ذبول غلائل
مقبلة فى جانبها الحباب	وقد اطلعت فيها الشمائل وانشدت

oboi.kandi.com

الباب الثانى عشر فى الطيور المسمعة

القول على البيغاء وهو طائر هندى وحشى دمث الخلق ثاقب الفهم له قوة على حكاية الأصوات وتلقى التلقين، تتخذة الملوك فى منازلهم لينم بما يقع فيها من الاخبار، وفى لونه الأغبر والأخضر والأسود والأحمر والأصفر والأبيض، وقد أهديت لمعز الدولة هدية من اليمن فيها بيغا بيضاء سوداء المنقار والرجلين وعلى رأسها ذؤابة فستقية وكل هذه الألوان معدومة خلا الأخضر، وفى طبع هذا الطائر أنه يتناول طعامه برجليه كما يتناول الإنسان الشيء بيده وله منقار معقق يكسر به الصلب وينقب به ما يعسر نقبه، يتزاوج ويتعاشق ويسكن الذكر إلى أنثاه وله عفة فى مأكله ومشربه ومنكحه، ليس بشرة ولا أشر وهو بمثابة الإنسان الظريف، والناس يحتالون على تعليمه بأن ينصب له تجاهه مرآة بحيث يرى خياله فيها ويتكلم الإنسان من ورائها فيتوهم أن خياله فى المرأة وهو المتكلم فيأخذ نفسه بحكاية ما يسمعه من صوت الإنسان.

الوصف: كتب أبو إسحاق الصابى إلى أبى الفرج أبياتا فى البيغاء منها (توفى ستة ثمان وتسعين وثلاثمائة):

زارتك من بلادها البعيدة	واستوطنت عندك كالقعيدة
ضيف قراه الجوزا والارز	والضيف فى أبياتنا يعز
تراه فى منقاره الخلوقى	كلؤلؤ نقط بالعققيق
ينظر من عينين كالقصين	فى النور والظلمة بصاصين
يميس فى حلقه الخضراء	مثل الفتاة الغادة العذراء
خريدة حذورها الاقفاص	ليس لها من حبسها خلاص

فأجابه بأبيات منها:

وحسن منقار أشم قان	كأنما صيغ من المرجان
صيرها افرادها فى الجنس	بنطقها من فصحاء الانس
يحكى الذى تسمعه بلا كذب	من غير تغير لجد أو لعب
ذات غشا تحسسه ياقوتا	لا يرتضى غيبير الارز قوتا

كأنما الحبة فى منقارها حباة تطفو على عقارها
أقدامها بيأسها الشديد أوقعها فى قفص حديد

وهذه المذكورة تسمى فى هذه البلاد الدرة.

ومن ظريف ما سمعته فيها قول الشيخ الإمام العالم النحوى المفضن زين الدين عمر بن المظفر أبى الفوارس الشهير بابن الوردى رحمه الله تعالى - فينما الطاوس مصغ إلى الياسمين وهو على ما ساقه الذنب على ساقه حزين وإذا بدرة خضراء لا بل درة عذراء تقول أف لطاوس الطير من طاوس القراء أيها الطاوس الطريد المعكوس الشريد شغللك ظاهر الثياب عن باطن العيوب إن الله لا ينظر إلى الثياب ولكن ينظر إلى القلوب هلا شغلت بمداواة أمراضك عن بساتينك وغياضك ولم لا أفنيت عن ملبوسك وعجبك ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك شاركت آدم فى الخروج من الجنة والاسف عليها فشاركه فى التوبة والاستغفار والعودة إليها، على أن آدم خرج من الجنة قهرا ليزرع فى الأولى ما يحصده فى الآخرة وأما أنا أيها الطاوس فإنى رأيت نفوس البشر أشرف النفوس كرمهم الرب وفضلهم وخلق الموجودات لهم فشاركهم نطقا ورزقا ونادمتهم ونديم السعداء لا يشقى فسبحان من بيده الخير المؤلف بين البشر والطير ومن أعجب أحوالى أن الصمت محمود أفعالى لأنى طائر ضعيف ولا أقاس على البشر فى التكليف:

غائب فى القلب حاضرا كاسر للصب جابر
أنا من خوف جفاه واقع والقلب طائر
أنا بالمحبوب فخرى فانتصب يا من يفاخر
أنا من جمود فكرى عرفت باسمى الجواهر
ها أنا الدرة فاعرف قيمتى إن كنت تاجر

القول على القمرى: سمي بذلك لبياضه وحكاية صوته وهو يضحك كما يضحك الإنسان ومن طبعه أنه شديد المودة والرحمة.

أما مودته فإنه يفرخ على فنن من أفنان شجرة كلها اعشاش لابناء جنسه يصاحبها كل يوم ولا يعتزل اعتزال الغراب.

وأما رحمته فإنه يربى ولده ويعف عن انشاء ما دام ولده صغيرا، وهو يطاعم انشاء وتطاعمه ويظهر منه عليها، وله وفيه من المروءة أنه متى تزوج لا يتغنى بانثاء بدلا.

وله اعتناء بنفسه واعجاب بها ومن عادته أنه يعمل عشه فى طرف فنن دائم الاهتزاز احترازا على فرخيه ليلا يسعى إليه من الحيوان الماشى ما يقتلها.

الوصف قال القاضى محى الدين بن عبد الظاهر ملغزا فيه:

ما معى رأيته * فى عداد المطير * كم له من مترجسم * كم له من مشجر
كم له من كآبة * ظهرت بالتدبر * كم خواف له بدت * لا لتمام المبصر
كله معجم وان * زال بعض له قرى

ذكرت بقوله كم خواف له ما أنشدني من لفظه لنفسه ونقلته من خطه المعز الاشرف
المرحوم أوحده الدهر ونخبة العصر القاضى أمين الدين محمد الانصارى صاحب ديوان
الانشاء بالشام المحروس من قصيدة امتدح بها المعز الصاحب المرحوم فخر الدين عبد
الرحمن بن مكائن ناظر الدولة الشريفة بالديار المصرية سامحه الله تعالى أولها:

جفون من تأرقها دوامى مدامعها تفيض على الدوام
ويقول فى آخرها:

قوادمها ينرن ولسن عنه خواف تحت أجنحة الظلام
وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

تنفس الصبح فجاءت لنا من نحوه الانفاس مسكية
واطربت فى العود قمرية وكيف لا تطرب عوديه

وأنشدنى سيدى القاضى شهاب الدين ابن حجر فسح الله فى أجله من لفظه لنفسه
بتاريخ ثالث عشر ربيع الأول من شهور عام اثنين وثمانمائة بالقاهرة المحروسة بمنزله عمره
الله ببقائه بحارة بهاء الدين:

تخيرت رسلا سرنا عندهم خفا اليكم وتلك الرسل فهى الحمام
إذا قدمت منى عليكم فىا لها خوافى سر حملتها قوادم

وأما الفاخت فهى عراقية وليست بحجازية وفيها فصاحة وحسن صوت وصوتها فى
الحجازيات يشبه صوت المثلث وفى طبعها تأنس بالناس وتعشش بالدور وهذا الحيوان
يعمر وقد ظهر منه ما عاش خمسا وعشرين سنة وما عاش أربعين سنة على ما حكاه أرسطو.
الوصف: أنشدنى من لفظه لنفسه إجازة أوحده المتكلمين العالم المفنن فريد الدهر
المرحوم القاضى أمين الدين الأنصارى صاحب ديوان الانشاء الشريف بالشام المحروس
ملغزا فى فاخنة:

وما طائر يهوى الرياض تنزها ويسرح فى أفنانها ويفرد
هجاء اسمه خمس حروف تعدها وخمساه حرف إن تأملت مفرد
وبعدهما تصحفا ، باقية ان تد اناله أفعى يمين ويشهد

وفيه أخ ان تهت عنه فأخته تدل على ما قد عنيت وترشد
قلت: أنشأت هذا اللغز الظريف التركيب للشيخ العلامة بقية السلف الصالح زين
الدين أبى بكر بن عثمان الشهير بابن العجمى بمنزله بمدرسة الكاملية بشارع بين القصرين
عند ارتحالى فى أوائل سنة خمسة وتسعين وسبعمائة فأجاب بهذه الأبيات:

أيا من له مجد أثيل وسؤدد	غدا دون مرماء سماك وفرقد
تفيد يسار المقترين يمينه	ويسراه من يمنى الغمامة أجود
سؤالك عن أنثى طروب ولم تزل	على عودها فى الروض تشدو وتنشد
وتجذبني بالطوق حين نشيدها	لنحو التصايبى لا أطيق أفند
يطير بها نحو النجاح جناحها	فتبلغ ما تختار ثم وتقصد
وفى بطن أنثى لم تصور وإنما	تصورها من جنسها من يرفد
تذكرنى تدركاها أم هانىء	فتشرف فى نفسى إذا وتمجد
ومذ بان منها الطرف أمست بعكسها	تخاف الردى ممن لها يترصد
وإن حذفت ثانى الاخير فإنه	على الحذف خاف بل يلوح ويشهد
وأولها مع ما يليه وطرفها	لنا فاه بالمعنى الذى منه يقصد
وحرفان منها فرد حرف لناطق	واف لمن للعكس من ذاك يجحد
وتفتح فاما حين يفقد ثالثا	وثالثه يخشاه من يتصيد
فخذ مبينا مغضيا عن اساءتى	فإنك للإحسان أهل ومقصد
بقيت بقاء الدهر عزك باذخ	وفى مفرق الجوزا لواءك يعقد
ولا زلت فى الدنيا سعيدا مملكا	خطك فى الآخرة النعيم المخلد

وأما الشعين وهو الذى تسميه العامة اليمام وصوته فى الترنم كصوت الرباب فى
الآوتار صوتنا محزوننا جدا وهى متى اختلطت مع أصواتها غيرها حسنت وأما مفردة فلا لأن
الزأر مستحسن مع الغناء وغير مستحسن وحده.

وفى طبعه أنه متى فقد انثاء لم يزل عزبا يأوى إلى بعض فراخه حتى يموت، وكذلك
الأنثى إذا فقدت الذكر.

وفى تركيبه أنه إذا سمن سقط ريشه وامتنع من السفاد فهو لذلك لا يشبع نفسه.
وهو طائر ساكن جدا وقد ألهم أنه يحترس من أعدائه بالسوسن يتخذه فى وكره.

الوصف: ولنذكر الآن ما وقع للشعراء في أصواتهن جملة لا تفصيلا فمن ذلك قول الحسام الجاجرى (توفى مقتولا سنة اثنتين وثلاثين وستمائة):

أنى لا أعدار فى الاراك حمامة الشـ شادى كذلك تفعل العشاق
حكم الغرام الجاجرى بأسرها فغدت وفى أعناقها أطواق
قال القاضى الفاضل:

لو كنت جاويت الحمام نائحا قال الوشاة اذاع سرك بائحا
سل طائرا صدع الفؤاد بسحره أترأه غرد صادعا أم صادحا
يا ضعف من أمسى الفريسة فى الهوى وغدا الحمام له هنالك جارحا
وقال المنارى:

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحا
شجى قلب الخلى فقيل غنى وريح بالشجى فقيل ناحا
قلت: وبعد هذين أبيات فلا بأس بذكرها وإن لم يكن مما نحن فيه:

وكم للشوق فى أحشاء صب إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى وسكران الفؤاد وان تصاحا
كذاك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق المهى مرضى صحاحا

قلت: ولهذه الأبيات حكاية غريبة نقلتها من خط الحافظ اليعمورى (ولد سنة ستمائة وتوفى سنة اثنتين وسبعين وستمائة) روى أن أبا نصر المنارى المذكور واسمه أحمد بن يوسف دخل على أبى العلاء المعرى وهو فى الشام فى جماعة من الادباء فأنشده كل واحد من شعره ما تيسر حتى أنشده المنارى أبياتا له فى وصف واد وهى:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا أرق من المدامة للنديم
يصد الشمس أنا واجهتنا ويحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد التنظيم

فقال أبو العلاء: أنت أشعر من بالشام، ثم رحل إلى بغداد فدخل المنارى عليه فى جماعة من أهلها من الادباء وأبو العلاء لا يعرف منهم أحدا فأنشده كل واحد ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنارى فأنشده لنفسه الابيات المتقدمة فقال أبو العلاء ومن بالعراق اشارة إلى قوله من بالشام (توفى المنارى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة).

وقال الشيخ صفى الدين الحلى:

ويشرت بوفاة الليل ساجعة
مخضوبة الكف لا تنفك نائحة
وقال محبى الدين بن عبد الظاهر:

نسب الناس لحمامة حزنا
خضبت كفها رطوقت الجيد
وقال جمال الدين محمد بن نباتة:

ما لى نديم سوى ورقاء ساجعة
إذا أدار أكار الوصل لى قدحا
وله:

ناجتك من مغنى دمشق حمائم
فإذا أشار لها النديم بلطفه
وقال علاء الدين الوداعى:

وفى أسانيد الأراك حافظ
وكلما ناحت به حمامة
وقال بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى:

وتنبهت ذات الجناح بسحرة
ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن
قامت تطارحنى الغرام جهالة
أنا تبارينى جوى وصبابة
وأنا الذى أملئ الهوى عن خاطرى
بالواديين فنبهت أشواقى
يعقوب والألحان عن إسحاق
من دون صحبى بالحمى ورفاقى
وكأبة وأسى وفيض مآقى
وهى التى تملئ من الأوراق

وقال ناصح الدين الأرجانى (ولد سنة ستين وأربعمائة، وتوفى سنة أربعين وخمسمائة):

من كل أخطب مسكى الأهاب له
خطيب خطب وقد أفنى السواد به
فى منبر الأيك تسجاع وتهدار
فمن بقيته فى الجيد أزوار

قلت: وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ عز الدين الموصلى - رحمه الله تعالى:

مذغنت الورق على عيدانها كم خلع الجو عليها من ملح
تدرعت سحبا وخاضت شققا وطوقت أعناقها قوس قزح
وقال القاضى محبى الدين بن عبد الظاهر:

ذات طوق وذات ريق تغنى فتثنى بالوجد من ليس يدرى
زيقت ثم كاشفتنا فقلنا لك زيق وزيق بالقفر
ما نراها قد حدثت خاطر النه ربما قد جرى وما منه يجرى

وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى وأخى تقى الدين أبى بكر بن حجة:

ناحت مطوقة الرياض وقد رأت دمعى تلون بعد فرقة حبه
لكن بتلوين الدموع تباخلت فغدت مطوقة بما بخلت به
وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

ناحت حمام البان أم تاهت أسمى لم أدر ما غناؤها من شوقها
عجماء لا تظهر حرفا من شجى لأنها مخنوقة بطوقها
وقال أيضا:

وذات طوق على الأغصان تذكرنى قوام حسنك فى ضمى لمعتنقك
قد سودت مهجتى نوحا فقلت له سواد قلبى يا ورقاء فى عنقك
وقال الأمير مجير الدين بن تميم:

لم أنس قول الورق وهى حبيسة والعيش منها قد أقام منغصا
قد كنت ألبس أخضرا من أغصن فلبست منها بعد ذاك مقفصا
وقال الأمير سيف الدين المشد فى قفص:

أنا للطائر سجن اقننتنى كل ملبح
قضب البان ضلوعى وحممام الأيك روحى
وله على لسان الطائر:

يا غصون البان ماذا بلغ الاحباب عنى
ما شجاهم طول نوحى ما كفاهم فرط حزنى
حبسونى عن مطارى لا لمعننى ولسن
غير انى كنت مههما يشرب الراح أغنى

ولمؤلفه لطف الله به من قصيدة:

حمام الايك أسعدنى فإنى حلف تبـريح
وحزنى حزن يعقوب فأبكى الصب أو نوحى

وأما الديك فما ورد فيه أن النبي ﷺ قال: الديك الأبيض صديقى وعدو الله يحرس دار صاحبه وسبع دور حوله وكان يبيته معه، وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض لافرق لم يزل ينكب فى أهله وماله.

قيل: والفرخ يخلق من البياض والصفرة غذاؤه، وقيل ليس فى الدنيا أبخل من أهل مرو حتى إن الديك ينزع الحبة من أفواه الدجاج مع أن العادة خلاف ذلك وكان ماء مرو يقضى ذلك فيسرى فى جميع حيوانها.

كان مروان ابن أبى حفصة من أبخل الناس مع يساره وما أصابه من الخلفاء لا سيما من بنى العباس فإنه كان رسمه أن يعطوه لكل بيت يمدحهم به ألف درهم.

قال دعبل: كنت عنده فى بعض الأيام أنا وجماعة فأخذنا فى الحديث وطال المجلس حتى أضر به الجوع فدعا بغداه فأتى بصحيفة فيها مرق ولحم ديك قد هرم لا تجز فيه السكين ولا يؤثر فيه ضرس فأخذ قطعة من خبز فحسا بها جميع المرق وفقد رأس الديك فبقى مطرقا ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال له أين الرأس فقال رميت به قال ولم قال لم أظنك تأكله قال ولم ظننت ذلك والله إنى لامقت من يرمى برجله فضلا عن رأسه والرأس رئيس وفيه الحواس الخمس ومنه يصبح الديك وفيه عيناه التى يضرب بها المثل فيقال شراب مثل عين الديك ودماغه عجب لوجع الركبة فإن كان بلغ من جهلك أن لا تأكله فعندنا من يأكله فانظر أين هو، قال والله لا أدرى أين رميت به، فقال لكن أنا أدرى أين رميت به... فى بطنك.

وكان أيضا لا يأكل اللحم حتى يجوع فإذا جاع أرسل غلامه فاشترى له رأسا فأكله فقيل له لا نراك تأكل إلا الرؤوس فى الصيف والشتاء فلم تختار ذلك فقال نعم الرأس أعرف سعره فلا يستطيع الغلام أن يخوننى فيه وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه إن مس عيناه أو أخذ أذنا وقفت على ذلك وآكل منه ألوانا شتى، آكل عينيهِ لونا وأذنيه لونا ودماغه لونا ولسانه لونا فقد اجتمعت لى فيه مرافق.

نادوة: قال أبو حاتم الاصمعى قدمت بغداد فدخلت مسجدا يحضره جماعة فسألنى

بعضهم عن قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١) ما يقول للواحد قلت «ق» قال فالأثنين قلت «قيا» قال فللجماعة قلت «قوا» قال فاجمع الثلاثة قلت ق قيا قوا وفى ناحية المسجد جماعة فمضوا إلى صاحب الشرطة فقالوا له إن هنا قوما زنادقة يفسرون القرآن على صياح الديك فما شعرنا إلا باعوان فأحضرونا بين يديه فأعلمته ما سئلت فعنفنى وأمر بضرب أصحابى عشرة عشرة.

وما أحسن قول بعضهم فيه:

قد قلت شعرا مليجا فسسر له لى يا مليكى
أكلت ديكاً وديكاً وليس لى غير ديك

وقال ابن المعتز فيه (مولده سنة سبع وأربعين ومائتين، ووفاته سنة ست وتسعين ومائتين):

بشر بالصبح طائر هيفا مسترقيا للجدار مشترفا
مذكرا بالصبح صاح بنا كخاطب فوق منبر وقفنا
صفق اما ارتياحة لنا الصب ح واما على الدجى أسفنا

ولله أبو على ابن رشيقي (توفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة) حيث مزق عنه جلاب الممادح وتركه من شمل الدم فى الزى الفاضح فإنه قال:

قام بلا عقل ولا دين يخلط تصفيقا بتأذين
فنبه الاحباب من نومهم ليخرجوا فى غير ما حين
بصرخة تبعث موتى الكرى قد أذكرت نفع سرافين
كأنها فى خلفه عضة أعرضه الله بسكين

وقال الشيخ زين الدين بن الوردي من رسالة منطق الطير فصاح الديك ها أنا أناديك أنا قد أذنت فأقم الصلاة أنت هذا أوان صف الاقدام ووضع الحياة ومن أحسن قولاً ممن دعى إلى الله كم أوقظك وبانقضاء الأوقات أعظك فاشفق عليك بصياحى وأرشف عليك بجناحى أقسم لك الوظائف بلا حساب وأعرف المواقيت بغير الاضطراب أنهاكم عن معصية الله بخروج الوقت فلا تعصوه والله بقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فمن ادعى حسن الصحبة، فليؤثر كإيثارى ولا يختص من رفاقه بحبه كم منحت أهل الدار اخائى ووليتهم ولائى وهم يذبحون أبنائى ويستحيون نساءى.

obeikandi.com

الباب الثالث عشر

فى الشطرنج والترد وما فىهما من محاسن مجموعة

قال الشيخ شمس الدين خلكان فى تاريخه رأيت خلقا كثيرا يعتقدون أن الصولى هو واضع الشطرنج وهو غلط وإنما واضعه صصه بصادين مهملتين أحدهما مكسورة والثانية مشددة مفتوحة وفى الآخر هاء ساكنة وأدشير بن بابك أول ملوك الفرس الأخيرة هو الذى وضع الترذ ولذلك قيل الترذشير نسبوه إليه وأدشير لفظ ججمى تفسيره بالعربى دقيق وحليب فأزد دقيق وشير حليب وقيل دقيق وحلاوة وقيل هو بالزأى لا بالراء وضعه مثالا للدنيا وأهلها فرتب الرقة اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة والمهاريك ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر والفصوص مثل الافلاك ورميها مثل تقبلها ودورانها والنقط فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة الشش ويقابله إليك والبنج ويقابله الجو والجهار ويقابله السا وجعل ما يأتى به اللاعب من النقوش كالحقضاء والقدر والجهار تارة له وتارة عليه وهو يصرف المهاريك على ما جاءت به النقوش لكنه إذا كان عنده حسن نظر عرف كيف يتأتى وكيف يتحيل على الغلب وقهر خصمه مع الوقوف عندما حكمت به الفصوص.

ولما تم وضعه واشتهرت افتخرت به الفرس وكان ملك الهند يومئذ بلهيت فوضع له صصه المذكور الشطرنج فقضت حكماء ذلك العصر بتفضيله على الترذ ولما عرضه على الملك وأوضح له أمره سأل أن يتمنى عليه عدد تضعيف بيوته قمحا فاستصغر الملك ذلك من همته وأنكر عليه ما قابله من النزر القليل فى ذلك فقال له ما أريد غير ذلك فأمر له بذلك فلما حسب أرباب الديوان ذلك قالوا للملك ما عندنا ما يقارب القليل منه فأنكر ذلك فاوضحوا له بالبرهان فاعجبه الامر الثانى أكثر من الأول.

قال القاضى شمس الدين بن خلكان ولقد كان فى نفسى حزازة من هذه المبالغة حتى اجتمع بى بعض حساب الاسكندرية وذكر لى طريقا بين لى ما ذكره وأحضر لى ورقة بصحبة ذلك وهو أنه ضاعف الاعداد إلى البيت السادس عشر فاثبت اثنين وثلاثين ألف وسبعمائة وثمانية وستين حبة وقال نجعل هذه الجملة مقدار قدح وقد عبرتها فكان الامر

كما ذكره والعهد عليه فى هذا النقل ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية ثم انتقل من الويات إلى الارب و لم يزل يضعفها حتى انتهى فى البيت الاربعين إلى مائة ألف ارب و أربعة وسبعين ألف ارب و سبعمائة اثنين وستين ارب و ثلثى ارب و قال فى هذا المقدار شونة ثم ضاعف الشون إلى بيت الخمسين فكانت الجملة الفا و أربعة وعشرين شونة ثم قال هذا المقدار مدينة ثم إنه ضاعف إلى البيت الرابع والستين وهو آخر الأيات فكانت الجملة ستة عشر ألف مدينة و ثلاثمائة و اربعا وثمانين مدينة و قال يعلم أنه ليس فى الدنيا مدن أكثر من هذا العدد انتهى.

قال أبو عبد الله محمد بن الاكفانى إذا جمع هذا هرما و احداً مكعباً كان طوله ستين ميلاً و عرضه كذلك و ارتفاعه كذلك بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع بالعمل الذى هو ثلاثة أشبار معتدلة على أن الارب المصرى مساحته ذراع مكعب و زنه مائتان و اربعون رطلا و كل رطل مائة و أربعة و اربعون درهما و الدرهم أربعة و ستون حبة من القمح.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه و قد ذكر عنده الشطرنج إنى لأعجب من ذراع فى ذراع يدبرها الحكماء مذ و ضعت لم يقفوا لها على غاية.

قيل سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يروا القتال فإذا تنازعوا فى كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج فيأخذها الغالب من غير قتال.

ذمها: ذكر الصولى فى كتابه كتاب شعراء مصر أن خرسان الشاعر كان حاذقاً بلعب الشطرنج فعابها الحسين الجمل مكائدة له فقال صاحبها أبدا مشغول بهموم يحلف بالله كاذبا يعتذر مبطلا و يشتم نفسه و يسخط ربه و كل صناعة يجوز المكائدة فيها غيرها فإن صاحبها يغلب فى ساعة فيقضى دعواه و هو لعب الصائم إذا جاع و العامل إذا عزل و المخمور حتى يفيق و إنما يهزم خشب خشباً ثم إن الرجل يسأل عن غلامه فيقال له هو يلعب فيضربه و لا يستحي أن يقول قم حتى نلعب و هو يلاعبه و أن تقول فى الكناس ما أحذقه و فى الطنبور ما أضربه و إذا اعترف عن الشطرنج قلت ما أعبه فما يقول فى صناعة العبارة عن الكناس أحسن من العبارة عن صاحبها.

قال الجاحظ: سمعت النظام يقول فى الشطرنج غنيان عجزا عن الادب فتلاعبا بالخشب.

دخل أبو العبيس على أبى تمام وهو يلعب بالشطرنج وكان وسخا فقال ما أوسخ هذا الشطرنج فقال أبو تمام واللعب أوسخ.

نادوة: حكى أن بعضهم كان إذا لعب الشطرنج ضارب خصمه فوصف لبعض الظرفاء فقال أنا ألزم اللعب معه وما يحصل بيننا ضراب فلما أتى به ولعبا قال له فى أثناء اللعب شاه استر فقال مليح والله القرنان أنت والقواد أنت فقال يا أخى ما الذى قلت لك قال قلت استر وهى اشتر وما يشتر إلا الجمل والجمل تصحيفه حمل والحمل اسم نجم فى السماء يقاربه الجدى والجدى كبش والكبش القرنان والقرنان هو الذى يقود فقال يا أخى ما رأيت من يضارب بتصحيف وتفسير الا أنت.

نادوة: سأل بعض الاكابر انسانا فقال تعرف اللعب بالشطرنج فقال لا والله يا مولانا ولكن لى أخ اسمه عز الدولة وهو أخى لأمى أكبر منى بستتين وأكبر بشىء يسير كان قد حصل بينى وبينه خصومة غاظته فسافر من مدة عشرة أعوام وسكن مدينة قوص وبلغنى أنه فتح له دكان عطر وإلى الآن ما ورد على المملوك منه كتاب وهو أيضا ما يعرف يلعب الشطرنج.

ومشى البیدق البریدى مع شاب موسوم بالجمال فقال شمس الدين المنجم الشاعر أراك يا بيدق تفرزن حول هذا النفس، فقال له وإذا كان ذلك فقال أخشى عليك من ذلك الرخ لا يقطعك من الحاشية ويرميك عن الفرس ويقطع عليك الرقعة ولو كان فى كفيك الفيل يشير بقوله ذلك الرخ إلى أحد الاعيان كان يحب الشاب المذكور.

نادوة: بعض الأجناد كان كثيرا يعلب الشطرنج مع مخدومه وكان الجندى خليعا فأعطاه الامير فرسا وقال له لا تفرط فيها قال نعم وبعد ذلك الفاه راجلا وهو لابس جوخه قال ويلك أين الفرس فقال يا سيدى ضربنى الشناشاه مات سترت بالفرس.

وما أحسن قول القاضى الفاضل يصف حصار قلعة وجشا المنجنيق يحاكمها ولسان حيله يخاصمها والخادم تحت المنجنيق الإسلامى يعرض وجهه للمنجنيق الفرنجى ونقل قطع الستائر نقل قطع الشطرنجى جنب التراس بيادق والجنايى رخاخ وجنب القلاع صيد والمنجنوقات فخاخ.

وقال الشيخ جمال الدين ابن نباتة وظرف:

أشكوا السقام وتشكو مثله امرأتى	فنحن فى الفرش والاعضاء نرنج
نفسان والعظم فى نطع يجمعنا	كأنما نحن فى التمثيل شطرنج

وله ملفزا فيه:

وما صامت يمضى ويرجع حائرا
كأن الاسى آلى عليه إليه
وأحرفه خمس على أن شطره

وله فيمن يلعب غائبا:

ولاعب يعرب شطرنجه
يفغيب لكن ذهنه حاكم

وله:

له في الشطرنج فكرة لاعب
شكرته نفس اللعب أو نفس النهي
وقال الشيخ بدر الدين بن الصاحب:

تأمل تر الشطرنج كالدمر دولة
محركها باق ويفنى جميعها

قلت: وهذا يشبه قول القاضي الفاضل وقد أخرج له السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القصر من يعانى خيال الظل ليفرجه فقام الفاضل فقال له صلاح الدين إن كان حراما فما نحضره وكان حديث عهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة فما أثر أنه يتكدر عليه فقعد إلى آخره فلما انقضى ذلك قال له السلطان كيف رأيت ذلك فقال موعظة عظيمة رأيت دولا تمضى ما كأنها كانت ودولا تأتى ولما طوى الأزار طى السجل للكتاب إذا بالمحرك واحد فأخرج هذا الجد فى هذا الهزل.

وللشيخ بدر الدين أيضا مضمنا:

أميل لشطرنج أهل النهى
وكم هذبت طبع لعابها

وقال:

لعبت بالشطرنج فى غاية
إن صاح فى الاقران لى بيدق

تقصّر الاوصاف عن حدها
تموت منه الشاة فى جلدتها

وقال أيضا وكان يلعبها غائبا وله يد طولى فيها:

لى فى الشطرنج نقل أتقن الادمان حفظه
ألعب الغائب منها فأراه طيف يقطه

وكتب إلى شيخنا العلامة عز الدين الموصلى من حماة المحروسة كتابا وفيه من

المتجددات قوله مضمنا:

جاهل شطرنج ينادى وقد أمانات نفس اللعب من عكسه
ما تفعل الأعداء فى أحق ما يفعل الجاهل فى نفسه

وقال جمال الدين ابن نباتة:

افديه لاعب شطرنج قد اجتمعت فى شكله من معانى الحسن أشنات
عيناه منصوبة للقلب غالبية والخذ فيه لقتل النفس شامات

وقال صلاح الدين الصفدى:

الاعب بالشطرنج بدر ملاحه محاسنه تزهى على طلعة الشمس
سترت ضنا جسمى فلما رأته يروم قطاغى خفت منه على نفسى

وقال زين الدين بن الوردى:

لاعبت بالشطرنج من أضحى كشمس طالعه
نفسى به ماتت وما تعجبنى المقاطعه

ومن الاشتهادات اللطيفة ما أنشده الشيخ نور الدين على بن سعد المعرى صاحب

المرقص والمطرب وغيره وقد رأى شخصا يلعب الشطرنج ويضرب بالرقعة القطع ضربا

عنيفا فقال:

رفقا بهن فما خلقن حديدا أو ما تراها أعظما وجلودا

قلت: وهذا البيت أول قصيدة للشريف البياضى فى وصف النوق ولقد أجاد نور الدين

رحمه الله تعالى.

وعلى ذكر نور الدين فما أحسن ما كتب به إلى القاهرة المحروسة سيدنا ومولانا

الفاضل المؤرخ المحدث المفنن شهاب الدين أحمد بن القاضى نور الدين على الشهير

بأبن حجر (مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة) فسح الله فى أجله وذلك من بعض

متجدداته:

مولاي نور الدين صبحك الهنا
لا تحتجب عن مقلتي فأنا امرء
بسعادة تبقى لديك سرورها
إن لم تكن عيني فإنك نورها

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين أبي المحاسن محمد بن إبراهيم اليشتكي أحد فضلاء
الديار المصرية وبقيّة متأخريها - سلمه الله تعالى - في القاء العاشر من الشطرنج على قاعدة
الحكاية المشهورة ولم أعلم الضابط في هذه الاعداد جميعها له أم لغيره وأنسيت أن أسأله:

موت عدوى يزين حزمي	وألحق سيف به قتالي	(القاء التاسع)
ولما فتنت بلحظ له	عذرت فما خفت من شامت	(القاء الثامن)
أبئك يا عز شوقي لعل	تمنى بعطف به راحتي	(القاء السابع)
يا مليح بت شاكي بشه	ومتى رق ظلوم لشكي	(القاء السادس)
إن كان في صدك قتلى فقد	أنا لنى فقد أحبائي	(القاء الخامس)
تنكر في حبه جائرا	فبات وفوه بيت الحرق	(القاء الرابع)
وفاتن منظره فتنة	ليس يرى حرف الجفا عاشقة	

اللام ألف بحرف واحد.

قال المنقول من خطه أنشدني من لفظه لنفسه صاحبنا جلال الدين ابن خطيب داريا
سلمه الله تعالى - في القاء الثالث.

بك يا خير منجد يحجب الغ	سى إذ أقبل أى حر تصيد
وقال القاضى السعيد ابن سنا الملك:	
ويوم مطير قد ترنم رعه	وصفق لما أحسن القطر فى
ورقعة ماء تحت برد فواقع	الـرـقـرـقـص

وقال الشيخ شمس الدين ابن الصائغ (ولد سنة عشر وسبعمائة، وتوفى سنة ست
وسبعين وسبعمائة):

لما غدا بدر الدجى لاعبا	بالنرد يلقي الفص مثل الشرك
وفاق فى الحسن وفى لعبه	ناديت بالله ما أقـمـرك

وقال زين الدين بن الوردى:

مهـفـهـفـان لعبا	بالنرد أنشى وذكر
قالت أنا قـمـرية	قلت اسكتى فهو قـمـر

ولبعضهم يورى باعداد الرد:

ساعدننى جارى على شادن أعطيته خمسا بمقدار
فما تأتى إليك من يكه الا بهذا البنج والجار

فى القاء الخامس من قطع الرد من نظم الشيخ صلاح الدين الصفدى:

لا تبك إن هب ربح نجـد انك يا بشس ما بليت
اللام ألف حرفان.

وله فى القاء السابع:

قد رد شانى بكل شين عدت فى ذا صلاح خبرى

obeikandi.com

الباب الرابع عشر فى الشمعة والفاؤوس والسراج

من رسالة للإمام ضياء الدين محمد بن نصر الله الجزرى المعروف بابن الاثير (مولده سنة ثمان وخمسين وخمسائة، ووفاته سنة سبع وثلاثين وستمائة) وكان بين يدى شمعة نعم مجلسى بالإيناس وتغنى بوجودها عن كثرة الجلاس وينطق لسان حالها أنها أحمد عاقبة من مجالسة الناس ولا الاسرار عندها بملفوظة ولا السقطات لديها محفوظة وكانت الريح تلعب بلهبها وتخلف على شعبة بشعبها فطورا تقيمه فتصير أنمله وطورا تمله فتصير سلسله وتارة تجوفه فتصير مذهنه وتارة تجعله ذا ورقات فيتمثل سوسنه وآونة تنشره فتصير منديلا وآونة تلفه على رأسها فيستدير اكليلا ولقد تأملتها فوجدت نسبتها إلى الفص العسلى وقدها قد العسال وبها يضرب المثل للحكيم غير أن لسانها لسان الجهال ومذهبها مذهب الهنود فى احراق نفسها بالنار وهى شبيهة بالعاشق فى انهمال الدمع واستمرار السهر وشدة الاصفرار وكل ذا تجدد لها بعد فراق أخيها ودارها والموت فى فراق الاخ والدار.

وقد نزع هذا المنزع فى رسالة أخرى فقال وذلك أن لها قد ألقى القوام مشبها فى نحوله واصفراره بحال المستهام وهى والقلم شيان فى انها إذا قطع رأسهما صحا بعد السقام ومن عجيب شأنها أن روحها تحى بفناء جسمها وبالأرواح تكون حياة الاجسام وقد وصفها قوم بأن لها خلقا كريما فى رعاية حقوق الاخوان وإن بكأها ليس إلا لمفارقة أخيها الذى خرجت معه من بطن ونشأت معه فى مكان وهذا الوصف من الطف أوصافها وهو مما يزيد الاحباب وجدا بأحبابها ويهيج الآلاف شوقا إلى آلافها وكانت الريح تلعب بلهبها لدى الخادم فتسلطه هلالا فتارة تبرزه نجما وتارة تبرزه هلالا ولربما سطع طورا كالجلنارة فى تضاعف أوراقها وطورا كالاصابع فى انضمامها وافتراقها وآونة تأخذه فتلقيه على رأسها كالقناع ثم ترفعه عنها حتى تكاد تزاوله بذلك الارتفاع ثم قال بعد ذلك كلاما ليس فيه تشبيه فكما كانت الريح تلعب بالشمعة فتقلعها من مثال إلى مثال كذلك الشوق يلعب بالقلب فيقلعه من حال إلى حال، وهذا الوصف وإن مد باعه لمعانقه الابداع، وأودع اسرار المعانى

فى صدور الالفاظ فصانها بالايديع مأخوذ من موضعين أحدهما من قصيدة الارجانى
والآخر من كلام أبى محمد عبد الله ابن أبى الخصال فإنه مذكور فى آخر هذا الباب عند
ذكر السراج.

أما قصيدة الارجانى فهى:

نمت باسرار صبح كان يخفيها	وأطلعت قلبها للناس من فيها
قلب لها لم يربعنا وهو مكتمن	إلا برقية نار من تراقبها
سفيهة لم يزل طول اللسان لها	فى الحى يعنى عليها ضرب هاديا
غريقة فى دموع وهى تحرقها	انفاسها بدوام من تلظيها
تنفست نفس المهجور فادكرت	عهد الخليط فبات الوجد ييكها
يخشى عليها الردى مهما ألم بها	نسيم ربح إذا وانى يحيها
بدت كنجم هوى فى أثر عقربة	فى الأرض فاشتعلت منها نواصيا
نجم رأى الأرض أولى أن ييؤها	من السماء فأمسى طوع أهلبها
كانها غرة قد سال سادها	فى وجه دهماء يزهبها مجلبها
أو ضرة خلقت للشمس حاسدة	فكلما حجبت قامت تحاكيا
وحيدة وهى مثل الرمح هازمة	عساكر الليل إن حلت بواديا
ما طنبت قط فى أرض مخيمة	إلا وأقمر للأبصار داجيا
لها غرائب تبدو من محاسنها	إذا تفكرت يوما فى معانيها
فالوجنة الورد الا فى تناولها	والقامة الغصن الا فى تشيها
قد أثمرت وردة حمراء طالعة	تجنى على الكف أن أهويت تجنيها
ورد تشاك به الايدى إذا قطفت	وما على غصنها شوك يوقيا
صفر غلائلها حمر عمامها	سود ذوائبها بيض لياها
كصعدة فى حشا الظلماء طاعة	تسقى أسافلها ربا أعاليها
وصيفة لست منها قاضيا وطرا	إن أنت لم تكسها تاجا يحليها
صفراء هندية فى اللون إن نعمت	والقد فى اللين إن أتممت تشيها
مما إن تراك تبين الليل لاهة	وما بها علة فى الصدر تصميها
تحى الليالى نورا وهى تقتلها	بش الجزاء لعمر الله يجزيها
ورهاء لم يبد للأبصار لابسها	يوما ولم يحتجب عنهن عاريها
قدت على قد ثوب قد تبطنها	ولم يقدر عليها الثوب كاسيها

تقص لمتها طورا وتقليها
لون الشبببة إلا حين تبليها
سنانها طول طعن أو يشظيها
نعم وافناؤها إياه يفنيها
لم يشف منه بغير القطع شافيا

غراء فرعاء ما تنفك قالية
شيء شعشاء لا تكسى غداؤها
فتاة ظلماء ما ينفك ناكلها
مفتوحة العين تفنى ليلها سهرها
وربما نال من أطرافها مرض

وقال القاضى الفاضل:

تقدم إن يذكى له الشمع أعينا
دجاها وإنسان السعود نهارنا
أزاهر نار تركيب الشمع أغصنا
وإلا لزهر منه بالغين يجتنى
إذ النار نصل والشموع لها قنا

ولما أراد الليل ينظر وجهه
وماهى إلا أعين وجفونها
رياض دجى فتحن عند وقودها
عجبت لروض منه بالنار يزدهى
فتكن الدجى والنور فيض دماؤها

وقال فيها:

ولم تفش أسرار كفيض دموى
ووقف مأمور ولون مروع
فلم تلقها إلا بخلع دروع

بكت مثل ما أبكى وفاضت دموعها
إشارة مظلوم وعبرة عاشق
أقامت إلى نحر الظلام أسنة

وقال أيضا:

من لجة قد اطلع المرجان
ولها إذا خفق النسيم طعان

والشمع فوق البحر تحسب انه
والماء درع والشموع أسنة

وقال محمد بن على الوزير حاجب النعمان:

سنانها من ذهب قد طبع
ورأسها يحبى إذا ما قطع

وظفلة كالرمح شاهدتها
دموعها تنهل فى نحرها

وقال آخر وأجاد:

ن ومد المداوى إليها يدا
ر فيرجع أهليلجا اسودا

إذا مرضت طال منها اللسا
ويقطع من رأسها الجلنا

وقال ابن خفاجة (ومولده سنة خمسين وأربعمائة، ووفاته سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة):

بالحب منغمس فى الدمع والحرق
حتى بدا سائلا منه دم الشفق

وصعدة لبست سروال مشتهر
مازال يطعن صدر الليل يهدمها

وقال آخر وأغرب:

ويا كية من غير حزن بأدمع
دموعا إذا ردت إليها بكت بها
وقال سيف الدين المشد:

ولم أر مثل شمعتنا عروسا
كأن عقود أدمعها عليها

وقال محاسن الشوا (مولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، ووفاته سنة خمس وثلاثين وستمائة):

حكنتى وقد أودى بى السقم شمعة
ضنا وسهادا واصفرارا وزفرة
وقال نور الدين ابن سعيد:

ومجلس انس زينتته عرائس
إذا طمنت صدر الظلام برمحها
الشيخ زين الدين ابن الوردى:

ممشوقة مثل صدر الرمح عارية
تبكى إذا ضحكت جلاسها فرحا
وقال ابن الجلال وأجاد إلى الغاية (توفى سنة ست وخمسين وخمسمائة):

وصحيحة بيضاء تطلع فى الدجى
شابت ذوائبها أوان شبابها
كالعين فى طبقانها ودموعها

مجير الدين ابن تميم وقد طفئت شمعة بمجلس فزارهم مليح عقيب طفيتها:
وقد زار من أهوى وتم بها أنسى
ومن سفه أن يوقد الشمع فى الشمس
وقال إبراهيم المعمار:

لا تنور فى مـقـامى
قد كفانا طلعة البد

ولما أنشدتها للامير شهاب الدين الحاجى قال لى لم لا قلت:

أطفئوا ذا الشمع عنا
مالنا بالشمع حاجة

كنت ترابا وينهى أنه أقبل على المطالعة والباقي من العشر ليال خمس واستهدى بنجوم
فوائدها حين قامت الشمعة بوظيفة الشمس واستدعى أعوانا من السهر فتخاذلت عنه أعوانه
وخشى من غلبة النوم فتغلب عليه سلطانه ولما أغفى على وجه الكتاب لعبت الشمعة
بلسانها وتناولت طرف شاشه بيد نيرانها فهب المملوك وأخمد منها ما تصاعد من الانفاس
وقابلها على حرق الشاش بقطع الراس.

أنى جلست بشمعة موقودة لأطالع الاسفار للنسبيح
فتناولت شاشى أوائل نارها وتمكنت منه بمسر الريح
من قبل حرق الشاش كنت مطالعا فى الكتب صرت مطالعا فى الروح

وقد توسلت بهذه الرسالة المدونة فى باب المنظوم والمنثور ومددت يد سؤلى إلى
طلبى ساشا مقصورا وأرجو أن يجمع لى بين الممدود والمقصور أبقاك الله للأولياء الذين
يحبون وجودك ويستمتطون كرمك وجودك.

وقال مجير الدين ابن تميم وقد مر بدار بعض أصحابه ومعه شمعة وقد طفئت
فأوقدها من داره:

لما أزرتك شمعتى لتنيها جاءت تحدث عن سراجك بالعجب
وافتك حاسرة فقبل رأسها فأعادها نحوى بتاج من ذهب

حكى أن مجير الدين الخياط الدمشقى كان يتعشق غلاما من أولاد الجند فشرب فى
بعض الليالى وسكر فوق فى الطريق فمر الغلام عليه وهو راكب فرآه فى الليل مطروحا
فوقف عليه بالشمعة ونزل فأقعده ومسح وجهه فسقط من الشمعة نقطة على خده ففتح
عينيه فرأى الغلام على رأسه فاستيقظ من سكرته وأنشد مرتجلا:

يا محرقا بالنار وجه محبه مهلا فإن مدامعى تطفيه
أحرق بها جسدى وكل جوارحى واحذر على قلبى فإنك فيه

وأما الفانوس فمن أحسن ما سمع فيه قول مجير الدين بن تميم:

انظر إلى الفانوس تلق متميا ذرفت على فقد الحبيب دموعه
يبدو تلهب قلبه لنحوه وتعد من تحت القميص ضلوعه

وقال:

أبدى اعتذارا لنا الفانوس حين بدا فى حالة من هواه ليس ينكرها
رأى الهوى مضرما ما بين أضلعه نار الجوى فغدا بالشوب يسترها

وقال الوجيه المناوى:

كأنما الليل وفانوسنا يجلو دجى الظلمة للحس
لجة بحر قد طما موجه تسبح فيه كرة الشمس

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة مضمنا:

وكأنما الفانوس نجم نير منع الظلام من الهجوم طلوعه
أو عاشق أجرى الدموع بحرقه من حر نار قد حوته ضلوعه
وله مضمنا أيضاً:

وياكبة من غير حزن بأدمع تذوب بها أحشاؤها حين تنهمل
دموعاً إذا ردت إليها بكت بها ولم أر دمعا غيره رد فى المقل
وله فيه مضمنا:

يحكى سنا الفانوس من بعد لنا برق تالق موهنا لمعانه
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه
وله:

أنا فى مقام الناصر السلطان لا أشكو إلى محبوب قلبى ما بى
فاصبر كصبرى فى الهوى ولا تنى متجلد والنار تحت ثيابى
مجير الدين ابن تميم تضمن:

يقول لها الفانوس لما بدت له وفى قلبه نار من الغيظ تسعر
خذى ييدى ثم اكشفى الثوب تنظرى ضنا جسدى لكنتى أستر

وأما السراج وما قيل فيه فمنه قول ابن أبى الخصال.

عذرا إليك أعزك الله فانى حططت والنوم معازل والعز منازل والريح يلعب بالسراج
ويصول عليه صولة الحجاج وطورا يسدد سنانا وطورا يحركه لسانا وآونة يطوى جنباه
وأخرى ينشره ذوابه ويقيمه ابرة لهب ويعطفه برة ذهب أو حمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة
ذات غمرات ويتسلط على سليطه ويزيله عن خليطه ويخلفه نجما ويمده رحما وتسل
روحه من ذباله ويعيده إلى حاله وربما نصبته اذن جواد ومسخته حدق جراد ومشقته خاطف
برق بكف ودق ولثمه سناه قنديلته ولقت على أعطافه مندبله فلا حظ منه للعين ولا هداية فى
الطرس لليدين .

قال شرف الدين التيفاشى رأيت فيما يرى النائم قائلاً يقول لى تحفظ فى السراج
والمسرجة فأنشدته قول ابن الرومى:

وحية فى رأسها درة تسبح فى بحر قصير المدا
إذا تولت فالعمى حاضر وإن تجلت بان طرق الهدى

فقال لى هذا فى الذبالة وأنا سألتك فى السراج والمسرجة فأنشدته قول الصنوبرى:

إن سراجاً نوره ظلمة كأنما يوقد فى قلبى
الحب أضناتى فمبا به بفتى وما يشكو جوى الحب

فقال هذا فى السراج وأنا سألتك فى السراج والمسرجة فصمت فقال أراك سكت
فقلت له ما تحفظ فيهما أنت فأنشد:

مسرجة سرج من فوقها ذبالة فى جوف مصباح
كأنها مسرجة فوقها تفاحة فى غصن تفاح
فاستيقظت وأنا أحفظهما.

قال شهاب الدين بن أبى حجلة وهذا التشبيه فى المسرجة جيد فى مسارج العرب فإن
مسرجتهم قضيب أملس أشبه شئ بغصن التفاح.

قلت: لا يخفى ما فى هذين البيتين من الحسن وجودة التركيب فى قوله فى البيت الأول
مسرجة ثم فى الثانى كأنها مسرجة وقوله تفاحة فى غصن تفاح وما أعرف لهما شبيهاً إلا
قوال ابن وزير فى الحمام.

حكى ان ابن قزمان الوزير أبى بكر صاحب الازجال المشهورة قام من مجلس أنس
فمال على السراج فأطفأه فقال فى الحال:

يا أهل ذا المجلس السامى سراقه ما ملت لكنتى مالت بى الراح
فإن أكن مظففاً مصباح بيتكم فكل من حل فيكم فيه مصباح

قال القاضى كمال الدين بن العديم (مولده سنة ست وثمانين وخمسائة، ووفاته سنة
تسع وخمسين وستمائة) فى تاريخ حلب أن القاضى شمس الدين بن خلكان الاربلى
(مولده سنة ثمان وستمائة، ووفاته سنة إحدى وثمانين وستمائة) قدم حلب وتفقه على
مذهب الشافعى وأنشدنى لنفسه ملفزاً فى السراج:

أيها العالم الذى صار حبراً ممارساً
والذى موضحاته يجتليها عرائساً
أى شئ ترى الورى جمعه من قسا

إن فى السرب نصفه حيث ما كان كانسا
ثم صحف تمامه تلق خلا موانسا
واحدفن منه ثالثا تنظرن فيه فارسا
من يصحفه عاكسا يلقي فى الليل حارسا

وما أحسن قول القاضى الفاضل يعتذر عن كتاب كتبه إلى بعض أصحابه ليلا كتبها
الملوك ليلا وقد عمشت عين السراج وشابت له الدواة وكل خاطر السكين وخرس لسان
القلم وضاق صدر الورقة فإذا وقف سيدنا على هذا الكتاب فليقف على بيمارستان وليقل
الباذنجان من هذا ولا يقل هذا من الباذنجان.

وقال ابن تميم فى سراج يوقد من سراج:

أعلمتم يا قوم أن سراجنا أمسى وفيه فضليه لا تكتم
يأتى أخوه إليه حاسر رأسه فيعيده فى الحال وهو معم

نادوة: اتفق أن أبا الحسين الجزار قام مرة إلى بيت الخلاء فنأوله السراج الوراق
شمعة فقال الجزار ما عادتى أقضى الشغل إلا على السراج.

وما أظرف قول زين الدين ابن الوردى:

لى صاحب واسمه سراج ما قرلى عنده قرار
لسانه محرق لقلبي إن لسان السراج نار

وممن أكثر من ذكر السراج الاديب الفاضل الكامل سراج الدين عمر الوراق حتى إنه
قل له لولا لقبك راح نصف شعرك، فمن ذلك قوله:

إذا بحث بالشكوى عبت معاشرنا بلا راحة فى مدحهم أتعبوا ذهنى
يريدوننى رطب اللسان ومن رأى سراجا غدا رطب اللسان بلا دهن
وقوله بتقاضى زنجيلا:

مولاي بدر الدين أند ست من المكارم تاجها
ولديك بغية كل نف س أمليك وحاجها
ولنور وجهك قى الفضا ثل قد أقر سراجها
أنسيت سورة هل أتى ونسيت كان مزاجها

وقوله:

أقول فى يوم شتاء به من سحبه ما خلف النيل
خرجت من بيتى سراجا وقد عدت بحمد الله قنديلا

وقوله:

سبق السراج إلى امتدا
وسناك مسرجة لبأ
لكن توقد ذهنه
حك كل من يتقدمه
بك والمهابة تلجمه
ما كل شيء يفحمه

وقوله:

كم قطع الجسود من لسان
وها أنا شاعر سراج
قلد فى نظمته النحورا
فاقطع لسانى أزدك نورا

وقوله:

بنى أقتدى بالكتاب العزيز
فما قال لى أف مذ كان لى
فراح ليرى سعييا وراجا
لكوتى أبأ ولكونى سراجا

وقوله:

أئننى على الانام إنى
فقلت لا خير فى سراج
لم أهج خلقا ولو هجانى
إن لم يكن ذاك فى اللسان

وقوله:

قلبي لديك وطرفى طال بعدهما
ولست متهما قول السراج إذا
عنى فلى أبدا سهد وتذكار
ما قال من حرق فى قلبى النار

وقوله:

بكتبك راح لى أملى وقصدي
ولولا أنت لم ترفع منارى
وفى يدك النجاح لكل راجى
ولا عرف الورى قدر السراج

وقوله: وقد اجتمع بيد الدين بيليك وشمس الدين سنقر:

لما رأيت البدر والشمس معا
حقرت نفسى ومضيت هاربا
قد انجلت دونهما الدياتجى
وقلت ماذا موضع السراج

وقوله: يمدح ضياء الدين:

أمولانا ضياء الدين دم لى
فلولا أنت ما أغنيت شيئا
وعش فبقاء مولانا بقاءى
وهل يغنى السراج بلا ضياء

وقوله:

شعيرتى مذ رمدت قد حجبت
فالحمد لله زادنى شرفا
شخصك عنى وكان مأنوسا
كنت سراجا فصرت فأنوسا

وقوله:

الهى قد جاوزت سبعين حجة فشكراً لنعمائك التى ليس تنكر
وعمرت فى الإسلام فازددت بهجة ونورا كذا يبدو السراج المعمر
وعمم نور الشيب رأسى وسرنى وما ساءنى إن السراج منور

وقوله:

طوت الزيادة إذ رأت عصبر الشباب طوى الزيادة
ثم انشنت لـمـا انشنى بعد الصلابة كالـحـجارة
وبقيت أهرب وهى تسـ آل جارة من بعد جاره
وتقول يا ستنى استرح سنا لا سـراج ولا مناره

وقال فيه بعض شعراء عصره والسراج عمر على المنار ويتوقد دكا ولو لم تمسه نار.
حكى أنه جهز غلاما ليتاع له زيتا طيبا يأكل به لفتنا فأحضر وقلبه على اللفت فوجده زيتا
حارا فأنكر على الغلام وأخذه وجاء إلى البياض وقال لم تفعل مثل هذا بنا فقال والله يا
سيدى ما لى ذنب إلا أنه قال لى اعطنى زيتا للسراج.

وحكى عنه أيضاً أنه دعى إلى زفة فقالوا له صيحتها أيش كان حالك يا سراج الدين
البارحة فقال أيش حال سراج بين ألف مشعل.

ومثلها ما حكاه لى الوزير المرحوم فخر الدين بن مكانس عن صاحبه سراج الدين
القوصى أنه كان حصل له طلوع فى جسده فتردد إليه المزين فقال أيش حال سراج فيه سبع
فتائل.

وأنشدنى لنفسه يداعب المذكور وكان سكندرى الأصل:

يا ذا السراج اشتر ابرى فانت به أولى وذلك للأمر الذى وجبا
سكندرى وتدعى بالسراج وذا مثل المنار إذا ما قام وانتصبا

وما أحسن قول بعضهم

* ومتى أظلم خطب عمر الله السراجا *

فصل فى القنديل: قال شمس الدين محمد بن العفيف:

صفا باطنى صرفا كمارق ظاهرى وناجيت فتيانا من الشرب أكياسا
إذا نهضوا كنت الرفيق لهم اذا وان جلسوا أسيت فى الوسط جللاسا

ولآخر:

وقنديل كان الضوء فيه سنا وجه الحبيب إذا تجلا
أشار إلى الدجى بلسان افعى فشمر ذيله هربا وولى

ولآخر:

وشادن مرّ والقنديل فى يده ما بيننا وظلام الليل مسعكر
كأنه فلك والماء فيه سما والنار شمس به والحامل القمر
وله:

عجبت لقنديل تضمن قلبه زلالا ونارا فى دجى الليل تشعل
وأعجب من ذا أنه طول عمره يجن عليه الليل وهو مسلسل

الباب الخامس عشر فى الخضروات والرياحيه

الورد كان المتوكل يقول أنا ملك السلاطين والورد ملك الرياحين فكل منا أولى بصاحبه وكان قد حرم الورد على جميع الناس واستبد به وقال لا يصلح للعامة فكان لا يرى الورد إلا فى مجلسه وكان أيام الورد لا يلبس الا الثياب الموردة ويفرش الفرش الموردة يوورد جميع الآلات.

ورفع إلى المأمون أن حائكا يعمل سنته كلها لا يتعطل فى عيد ولا جمعه فإذا ظهر الورد طوى عمله وغرد بصوت عال:

طاب الزمان وجاء الورد فاصطبخوا ما دام للورد أزهار وأنوار
فإذا شرب مع ندمائه غنى:

اشرب على الورد من حمراء صافية شهرا وعشرا وخمسا بعدها عددا
ولا يزال فى صبح وغبوق ما بقيت وردة فإذا انقضى الورد عاد إلى عمله وغرد
بصوت عال:

فإن يقضى ربي إلى الورد أصطبج وندمان صدق حاكه ونبيط

فقال المأمون لقد نظر إلى الورد بعين جليلة فينبغى أن نعينه على هذه المروءة فأمر أن يدفع له كل سنة عشرة آلاف درهم.

وقال إبراهيم الخواص إذا جاءت أيام الورد أمرضنى علمى بكثرة من يعصى الله تعالى فيه.

جلس روح بن حاتم أمير افريقية يوما فى منظر له ومعه جارية من جواريه فدخل الخادم بقادوس فيه ورد أحمر وأبيض فى غير أوان الورد فاستظرفه وسأل الخادم عن أمره فأخبره أن رجلا أتى به هدية فأمر أن يمالأ له القادوس دراهم فقالت له الجارية ما أنصفتك قال ولم قالت أتى بلونين أحمر وأبيض فلونه له فأمر أن يخلط دنائير ودراهم فخلط ودفع إليه.
ويقال إن كسرى مر بوردة ساقطة فقال أضع الله من أضعاك .

خواصه: بارد يابس فى الدرجة الأولى يابس فى آخر الدرجة الثانية نافع لصاحب المرة الصفرا ومن به حرارة حريقة مسكن للصداع المتولد منها ضار لصاحب المزاج

البارد مهيج لعطاسه مزعج لدماعه ومرباه بالسكر والعسل ينفع من البلغم وماؤه المصعد منه بارد وطب نافع من سائر أوجاع الدماغ الحادة ومن الأورام الحارة نقلتها من النور المجتبى من رياض الندماء تأليف الحكيم الفاضل الأديب المعروف بالعنبرى وبابن المحلى ذكره الفاضل المؤرخ موفق الدين بن أبى أصيعة فى تاريخ الاطباء وأثنى عليه الشاء البالغ.

وعلى مصنفه المذكور قلت وهذا الكتاب رتبته على فصول السنة كل فصل يشتمل على أربعين بابا عديم النظير قليل الوجود.

القول فى استخراجيه فى غير اوانه: قال صاحب المباحج من أحرق السداب فى أصول شجر الورد حتى يرتفع وجه الاحراق إلى الشجر فى أى وقت كان من السنة التى تورده شجرة الورد فيه وردت بعد أيام ورداً غضا ومتى جمع الرماد التى أحرق وخلط بتراب ونيش أصل الشجرة التى أحرق ذلك فى أصولها وطمر الرماد ثم سقيت الماء فى الوقت وسقيت بعد ذلك على العادة كان ما ذكرناه أيضاً.

الحيلة فى أن يبقى الورد السنة كلها فى الفلاحة الرومية: يؤخذ زر ورد الذى لم يفتح بعد فتملا به جرة فخار جديدة وتطين رأسها تطينا محكما لا يتخلله الهواء ويدفن فى الأرض فانك تخرج منها الورد متى شئت إلى آخر السنة كهيتته حين أدخلته فيها فرش عليه ماء ويترك فى الهواء فإنه يفتح ورداً طريا كالذى يقطف من شجره.

وفى كتاب الخواص أن الورد الأحمر إذا بخر بالكبريت ابيض وإذا بخر نصف الورد صار نصفها أبيض ونصفها أحمر والورد الأحمر إذا بخر بالنورة المطفية أبيض وإذا صب فى الشتاء فى أصول شجر الورد ماء حار عند كل غداة انفطر قبل انفطار الورد.

غرائب من هذا النبات: حكى صاحب نشوار المحاضرة أنه رأى وردا أصفر واستغرب ذلك وقد رأيناه كثيرا إلا أنه امتاز بكونه عد ورق وردة فكانت ألف ورقة ورأى وردا اسود حالك اللون له رائحة ذكية ورأى بالبصرة وردة نصفها أحمر قانى الحمرة ونصفها الآخر ناصع البياض والورقة التى قد وقع الخط فيها كائنهما مقسومة بقلم قال صاحب المباحج وحكى لى بعض أصحابى أنه رأى وردا بدمشق له وجهان أحد الوجهين أحمر والآخر أبيض لا يشوب أحدهما شئ من الآخر وأخبرت أن بحلب وردا أحد وجهى الورقة أحمر والآخر أصفر وأما الورد الأزرق فقد حكى لى بعض أصحابى أن

رجلا أخبره أنه رأى اكارا يجرى إلى شجرة الورد ماء مخلوطا بالنيل قال فسألته عن ذلك فقال إن الورد يكون أزرق بهذا العمل والظاهر من الأسود أنه احتيل عليه كذلك.

وذكر ابن قتيبة أن بالهند شجرا يخرج وردا عليه كتابة تقرأ لا إله إلا الله، وحدث أن منقذ لما عاد من المغرب وكان قد توجه إليه رسولا من صلاح الدين أن في مراکش وردا كل وردة من الثمانين ورقة إلى المائه ورقة.

الوصف والتشبيه قال بعضهم وصدق:

ورتبة لا تمبل
وهو الامير الاجل

للورد عندي مسـحل
كل الرياحين جند

وقال آخر وظرف:

في قـراطيس الخـدود
قـد دنا وقت ورودى

كـتب الورد الينا
يا بنى اللهـو صلونى

ولبعضهم فى باكورة ورد:

يذكرك المسك أنفاسها
فغطت بأكماسها رأسها

ودونك يا سـيدى وردة
كـعذراء أبصرها مبصر

وقال على بن الجهم فى صباهته:

حسن الرياض وصوت الطائر الفرد
بمسمع بارد أو صاحب نكد

لم يضحك الورد الا حين أعجبه
لا عذب الله إلا من يعذبه

وفيه لجحظة:

أو أن تراك نواظر البخلاء

يعز على بأن يشمك ساقط

وقال محمد بن عفيف التلمساني:

بين الرياض السندسيه
زرو روضة الورد الجنيه
أن الورد شوكته قويه

قامت حروب الدهر ما
وأنت بأجمعها لتف
لكنها انكسرت لـ

وتلطف الشيخ زين الدين ابن الوردى فى قوله موريا باسمه:

قال ولا يخشى من الرد
ولست يا غصن النقا قدى
تزين الريحسان بالورد

مهفـهف القـد اذا ما انثنى
ما أنت حملى يا كـثيب اللوى
لو نلت من خديه تقبيلة

ما أحقه بقول القائل شاكر نفسه يقرئك السلام.

قلت: أحسن من بيته الثانى ما أنشدنيه من لفظه لنفسه ونقلته من خط المرحوم فخر الدين بن مكائس من أبيات:

اسمران عاين غصن البان قال استقم فأنت ذو ألوان
يثيك فى الدوح النسيم الوانى وليس لى فى قامتى من ثانى

* فلا تقايسنى فلست قدى *

رجع وقال أبو الوليد بن الحنان الشاطبى (مولده سنة خمس عشرة وستمائة، ووفاته سنة خمس وسبعين وستمائة):

فوق خد الورد دمع من عيون الحب تذرف
برداء الشمس أضحى بعد ما شال يحفف
وقال برهان الدين القيراطى:

ان للروح فى دمشق لمأوى ذا قرار وذا معين وربوه
وبروضاتها بساتين ورد لى بأزارها صباية عروه
وقال بعضهم وأصاب:

كم وردة تحمى بسيف الورد طليعة تشبرعت من جند
قد ضمها فى الغصن قرص البرد ضم فم لقبله من بعد
ومن أحسن ما استعمل أوصاف الورد فى اعتذاره عن الاصفاء إلى كلام العذول مجد الدين النسائى الاربلى (مولده سنة اثنين وثمانين وخمسمائة، وتوفى فى سنة ست وستمائة) شعر:

أصغى إلى قول العذول بجملتى مستفهما عنكم بغير ملالى
لتلقطى زهرات ورد حديثكم من بين شوك ملامة العذالى
السرى الرفا يصف وردا أبيضاً قال:

بدا أبيض الورد الجنى كأنما تبسم للناس بمسك وكافورى
كأن اصفرارا منه تحت بياضه برادة تبر فى مسدهن بلورى
ولبعضهم فى الورد الأسود:

لله أسود ورد ظل يلحظنا من الرياض بأحداق اليعافير
كأنما وجنات الريح نقطها كف الإمام بانصاف الدنانير

ولآخر فيه:

وورد أسود خلناه لما تنشق نشره ملك الزمان
مداهن عنبر غصن وفيها بقايا من سحق الزعفران

وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

لم أنس قول الورد حين جنيته والنار لاستقطاره تسعرو
ناشدتكم نفسى خذوه وإنما لا تعجلوا فى قبض روحى واصبروا

من رسالة كتبها الجنب المجدى فضل الله ابن المرحوم فخر الدين عبد الرحمن بن مكائس إلى سيدنا ومولانا أفضى القضاة بدر الدين محمد بن أبى بكر عمر المخرومى المالكى الشهير بابن الدمامنى أسبغ الله عليه ظلاله ملغزا فى ورد وكان سيدنا بدر الدين قد كتب إليه قبلها لغزا فى قدح فحله وكتب اليه هذا اللغز ونقلته من خطه وهو: ما عاطل تتحلى به المجالس ويتشكه فيه المجالس تحمر وجناته من الشرب وتحمر آثاره فى البعد والقرب إن قلبته رأيت تاجا وإن تركته على حاله زادك ابتهاجا يعذب بالنار وغيره الجانى ويريك إن بدلت أوله برد الامانى يستخرج وهو داخل ويرى دمه من نار قلبه هاطل لا يبرح به فى غبطه ولا تجد فيه مع انهماله نقطه إن حذفت أوله وحرفت باقيه وجدته أمرا بالشراب وإن فعلت كذلك فى ثانيه ما بقى يؤكد للمحبة بين الأصحاب وور إن حذفت أخيره كمن ورا وغص فى بحر الفكر على عكس ثلثيه لاستخرج درا وقد سطره ليحصل له من نظر المخدم طرفا ويصير له فى الالغاز شرفا والمملوك يسأل الصفح والامتنان وبسط العذر فى هذا الهذيان فإنه لولا المحبة ما أجاب ولا طرق بعد فقد أبى هذه الأبواب ولا عارض يجد وله البحر العباب فإن بضاعته فى هذا الفن مزجاة وهم أبىه غطى على حجاه والله المستول أن يلفظ برحمته ويحسن عاقبته فى دنياه وآخرته ويمتع مولانا بزناد ذهنه الوارى ويطلع به بنىه فى سماء الفضل حتى يهتدى بالنجوم والدرارى بمنه وكرمه، فكتب الجواب سيدنا بدر الدين وينهى ورد الجواب الذى شفى الصدور وروده واللغز الذى نسي بورده بأن الحما وزر وده فوجده روض بلاغة عدم العائب والعائب وترعرع زهره حيث أمطرته من أنامل المخدم خمس سبائح وتمسكت أذيال أنفاسه بالرواية عن أبى الطيب وجاد فكر مولانا على خد طرسه بالعارض الطيب فلو شاهده ابن الوردى لاحمر خجلا أو

صاحب زهر الآداب لتلون وجلا ثم تأمل حل اللغز فرآه قد كشف المشكل وجلا واعترف بأنه لم يمر بذوقه أطيب من ذلك الحل ولا أحلى وتحقق أن مولانا أوسع فى مقام الادب بفضلله إيناسا وتناول منه قدحا فأعاده بالفاظه المسكرة كاسا وانتهى المملوك إلى اللغز المخدومى فقال:

مولاي مجد الدين يا من فضله
ألغزت فى اسم عاطل حليته
ان ورد التحريف فى أبياته
وقال أيضًا:

لله لغزك يا مولى فضائله
أتى بورد فحيانى على قدحى
وقد أسى جرح كسرى حين أقبل لى
فاستحلى المملوك بالتحريف ورده وود لو اقتطف من أغصان حروفه ورده فردة ذل
القصور عاريا من ملابس عزه وأنشده قول ابن قلاقس وقد ثقلى بنار عجزه:

إذا منعتك أشجار المعالى
جناها الغض فاقنع بالشميم
فراج عليه بهرج هذا رأى الكاسد واقتنع بالشم على رغم أنف الحاسد وعلم أن هذا
الورد لا يحسن من غير تلك الخضرة وان هذه الفاكهة لا يخرجها إلا أغصان أقلام لها بندى
الراحة المخدومية بهجة ونضرة ومشى نظر المملوك من هذا اللغز فى بساتين الوزير على
الحقيقة ورأى منه كل وردة وأحب الوجنات الحمر فتحير أمى وردة أم شقيقة وتفكر معجبا
بشمار غرسه منشدا لمن كرر النظر فى صفحة طرسه:

إن كنت تزعم ما فى خده عجب
قم فانظر الورد فى خديه منشورا
فلقد ظفرت من نفسه بالعنبر الورد وعودته عند تبديل الثلاثة بالواحد الفرد وتأملت
بفتور قريحتي نكتة برد الامانى وانعقد لسانى بسحر هذا البيان ونفثات تلك المعانى وتيقنت
أنه لا يقوى لفهم هذا البرد إلا كل حديد النظر ووجدت تصحيف هذه الكلمة يا شمس
الفضائل للعقول فمر وعلمت إن الفكر لا يجارى من يديهته من بحار الفضل روية وإن
الخاطر الذى هو من ضعفة رعايا الادب لا يقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكتة قوية
وقلت للذهن رد بعضه لتنهل شرابا سائغا وزد تصحيفه ليكون فى التعريف بمعناه مبالغا

وتمتعت من ورده الوارد بالشموم ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم فاستقطر البين ماء
الورد فى حدقى ولمولانا المنة فى الصفح عن مقابلة الدر بالسقط وتمر هجر بهذا الحشف
الملتقط وله الفضل فى إجابة المملوك إلى ما سأله أولا من الاتحاف بما تيسر من آداب
المقر الفخرى الوالد نور الله ضريحه وتعاهد بعهد الرحمة بمنه وكرمه.

ولبعضهم) فى الورد القحايى:

ووردة جمعت لونين خلتهما خدى حبيب وخدى هائم عشقا
تعانقا فبدا واش فراعهما فاحمر ذا خجلا واصفر ذا فرقا

وظرف من قال كأنه وجنة الحبيب وقد نقطها عاشق بدينار انظر إلى هذا وجنة وحبيب
ودينار واين هذا من قول ابن الرومى (مولده سنة إحدى وعشرين ومائتين، ووفاته سنة أربع
وثمانين وسبعمائة):

كأنه سرم بغل حين سكرجه بعد البراز وباقى الروث فى وسطه

ونقلت من خط شيخنا شمس الدين محمد بن محمد بن محمد الشهير بابن سمنديار
الذهبي لنفسه:

إذا الربيع جيشت أزهاره فورده ذو الشوكة السلطان

وأنشدنى من لفظه لنفسه ارتجالا الشيخ الاديب الفاضل بقية المتأخرين شمس الدين
محمد بن بركة الرئيس فسح الله فى مدته:

شباب ورد الرياض من ورد خديك وانفـرك
فله الناس اثبتوا وانتفى الورد للكرـك

الترجس قال أبقرط كل شئ يغدو الجسم والترجس يغدو العقل.

وقال جالينوس من كان له رغيـف فليجعل نصفه فى الترجس فإنه راع الدماغ والدماغ
راعى العقل.

ويروى عن على - كرم الله وجهه - أنه قال تشمموا الترجس ولو فى اليوم مرة فإنه فى
القلب داء لا يبرئه إلا شم الترجس.

وقال الحسن بن سهل من أدمن شم الترجس فى الشتاء أمن من البرسام فى الصيف،
وكان كسرى أنوشروان مغرما بالترجس ويقول هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد
أخضر.

وقال إنى لاستحى أن أباضع فى مجلس فيه النرجس لأنه أشبه شىء بالعيون الناضرة،

ومن هنا أخذ من قال:

غضى جفونك يا عيون النرجس لعسى أفوز بنظرة من مؤنسى
فلقد تحير إذا أراك شواخصا ترويته بلواحق المستغرس
حتى كأنك لن ترى قمر الدجا بين الاحبة طالعا فى مجلس

نادوة: تحدث رجل مع خاطبة فى أن تخطب له امرأة يتزوجها فقالت له عندى امرأة

كأنها طاقة نرجس فتاقت نفس الرجل إليها فتزوجها فلما زفت إليه وكشف القناع لقى عجوزا مكمشة الوجه بيضاء الشعر دقيقة الساقين صفراء الوجه مخضرة الساقين بالشعر فلم يقربها وعاد باللوم على الخاطبة وقال لها كذبتينى وغربتيني فقالت له ما كذبتك ولا غررتك وإنما أنت رجل جاهل قلت لك عندى امرأة كأنها طاقة نرجس فرغبت وما هى طاقة النرجس الا هكذا.

خواصه حار يابس ينفع من سائر أوجاع العصب من برد وكذلك النسرين ويصدع

النرجس الرؤوس الحارة وفعلهما أقل من فعل الياسمين وينفعان من وجع الارحام من برد ويفتح سدد الدماغ وينفع من الصداع البارد الرطب والسوداوى ودهنه ينفع من أوجاع المفاصل. انتهى كلام ابن المحلى فى النور.

وقال صاحب المباهج خاصيته للنفع من الاوجاع الباردة الكائنة فى الرحم أصله يدمل

القروح وينفع من أوجاع المفاصل وإذا سحق أصله وخلط بدقيق واغتسل به نقى أوساخ البدن والقروح وإذا تضمد به فجر الاورام والدملات وهذا الفعل موجود فى أصله وزهره ورائحته مقوية للدماغ مفتحة للسدد طاردة لما فى بطونه من الارياح وإذا أديم شمه نفع من الصداع الكائن من بخار البلغم ومن الرطوبة المحتقنة فيما بين أعشية الدماغ وإن اتخذ منه شماعة مستديرة فى شكل الرمانة ورش عليها شىء من ماء الورد الممسك وبخرت بالنند الرفيع أو العود الرطب والزعفران الشعر الطردى أكسبها البخور بذلك نفعا عظيما وإن شوى بصله فى النار أو فى الرماد وقشر وسحق فى الهاون وسكب عليه شىء من دهن الحبرى وأغلى بالدهن عليه وضمد به على الخنازير والجراحات الفجة الجاسته والدمامل الصلبة ألانها وفجرها.

وفى كتب الخواص قال هرمس إذا وضعت طاقات النرجس التى لم تفتح بعد فى ماء البقم حتى ينفخ فيه أبدل من بياض أوراقه حمرة شديدة وبقيت على حالها.
 الفلاحة: التنطية إن أوفق ما غرس بصل النرجس فى الأرض التى أقام الماء فيها عشرة أيام أو عشرين يوماً ثم نصب الماء عنها وجف وبقي فيها شيء من النداءة يسير فليحفر فى همة الأرض حفاير عمقها قدم أو أقل ويجعل البصلة فيها ويغطى بالتراب ويكس فوقه التراب كبسا جيدا فإذا ابتداء يطلع منه شيء يسير فيسقى سقية خفيفة ويتعاهد كذلك حتى يكمل ورده.

ومن أراد أن يجعل العين منه مضاعفا فيأخذ بصلة سمينة فيشق وسطها ويغرس فيها سن ثوم غير مقشرة ويغرقها فى البصلة فى التراب فإنها تحمل نرجسا مضاعفا.
 غويبة: ذكرها صاحب المباحج من أخذ من بصل النرجس بصلة كبيرة وأخذشها بالمسلة من ذهب خالص ثم غرز البصلة برأس المسلة باليد اليسرى ثم يدور الماسك فى الموضع الذى يريد أن يغرس فيه تلك البصلة خمس دورات وهو يضحك أو يتضحك ثم يغرسها فى مقطع الدورة الخامسة فإن تلك البصلة تحمل نرجسا أحمر مثل الشقيق طيب الريح جدا وصفة غرسه كما يفعل بغيره ومن أراد أن يكون النرجس فى غير أوانه فليحرق السداب مع شيء فى قشور الجوز على منابت أصله فإنه يسرع اخراج ورقه الوصف وقال ابن الرومى:

خجلا يورد عليه شاهد
 إلا وناصله القصيلة عاند
 أب وحاد عن الطريقة حائد
 زهر الربيع وإن هذا طارد
 بتصرم الدنيا وهذا واعد
 بجنابه لو إن حيا خالد
 وعلى المدامة والسماع مساعد
 أبدا فانك لا محالة واجد
 ما فى الملاح له سمي واحد
 بحيا السحاب كما يربى الوالد
 شهبها بوالده فذاك الماجد
 ورياسة لولا القياس الفاسد

خجلت خدود الورد من تفضيله
 لم يخجل الورد المورد لونه
 للنرجس الفضل المبين وإن أبى
 فصل القضية إن هذا قائد
 شتان بين اثنين هذا موعده
 فإذا احتفظت به فامنع صاحبا
 يلهى النديم عن النديم بلحظه
 اطلب بعيشك فى الملاح سمي
 والورد إن فتشت فى فرد اسمه
 هذى النجوم هى التى ربتهم
 فانظر إلى الأخوين من ادناهما
 أين العيون من الخدود نعاسة

وناقضه أحمد بن يونس الكاتب فقال:

يا من يشبه نرجسا بنواظر
 اين القياس ولم يصح قياسه
 والورد أشبه بالخدود حكاية
 ملك قصير عمره متأهل
 إن قلت إن الورد فرد في اسمه
 فالشمس تفرد في اسمها والمشتري
 أو قلت إن كواكبا رتھما
 قلنا أحقھما بطبع أيھ في الد
 زھر النجوم تروقنا بضیائھما
 وكذلك الورد الانیق یروقنا
 وخليفة إن عاب آب بنفحة
 إن كنت تنكر ما ذكرنا بعدما
 فانظر إلى المصفر لونا منھما

وقال سعيد بن هاشم الخالدي يفضل النوعين:

أیحب النرجس البلدی ودي
 كلا الاخوين معشوق وإنی
 هما في عسکر الإزھار هذا
 وما لی باجتنا ب الورد طاقه
 أرى التفضیل بينهما حماقه
 مقدمة یسير وذاك ساقه

وقال أبو العلاء المعري الشروى يهجو النرجس:

انظر إلى نرجس تبسدت
 واكتب اسامی مشبه به
 كرامة ركبت علیھما
 وقال ابن الشلی البغدادی فیھما:

ونرجس قایل فی مجلس
 فخذ ذا یخجل من لحظ ذا
 ودر غلا فی نعمته الناعت
 وطرف ذا فی وجهه ذا باھت

وقال منصور الهروي يصفه مع البنفسج:

قرن الزمان إلى البنفسج نرجسا
 كخدود عشاق غدت ملطومة
 متبرجا في حلة الاعجاب
 نظرت إليها أعین الاحباب

ولما دخل الاديب الفاضل المؤرخ الرحال نور الدين على بن سعيد إلى القاهرة
المحروسة صنع له أدباؤها صيغا فى بعض متزهاتها وانتهت بهم الفرجة إلى روض نرجس
وكان فيهم أبو الحسين الجزار فجعل يدوس النرجس برجليه فقال ناصر الدين حسن ابن
النقيب:

يا واطئ النرجس ما تستحى ان تطئ الاعيين بالارجل
فتهافتوا بهذا البيت وراموا اجارته فقال زكى الدين ابن أبى الاصم:

فقال دعنى لم أزل محنقا على لحاظ الرشاء الأكحل
ثم أبوا أن يجيزه غيره أعنى ابن سعيد فقال:

قابل جفونا بجفون ولا تبستذل الارتفاع بالاسفل
ثم استدعاه ابن سابق إلى مجلس على النيل مبسوط بالورد وقد قامت به شماعة نرجس
فقال فى ذلك:

من فضل النرجس فهو الذى يرضى بحكم الورد إذ يرأس
أما ترى الورد غدا قاعدا وقام فى خدمته النرجس
وقال مجد الدين ابن سحنون خطيب النيرب وقد أهدى نرجسا:

لما تحجبت عن طرفى وارقتى بعد ولم تحظ عيني منك بالنظر
أرسلت مشبهها من نرجس عطر كيما أراك باحداق من الزهر
وقال صفى الدين الحلى - رحمه الله تعالى:

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلى وللنمام حولى الممام
أيا رب حتى فى الحدائق أعين علينا وحتى فى الرياحين نمام
وما أحسن قول بدير المجنوى - رحمه الله تعالى:

وكان نرجسه المضاعف خائض فى الماء لف ثيابه فى رأسه
وأظرف من قال:

يغض من فرط الحياء طرفه ما أحسن الغض من النرجس
ونقلت من خط المرحوم فخر الدين ابن مكاس لنفسه:

بعدك شمس الدين ياما جرى من أدمع الطل بخد الشقيق
والنرجس الغض غدا شاخصا فلا تخلى عنه للطريق

زاد على البيتين المتقدمين وأجاد:

ليس جلوس الورد فى مجلس قسام به نرجسه يوكس
وإنما الورد غدا باسطا خدا ليمشى فوقه النرجس

قول أمين الدين الجوتان توفى سنة ثلاث وستين وستمائة:

نفش غض البان أذنا به وماس عند الصبح زهوا وفاح
وقال هل فى الروض مثلى وقد تعزى إلى غصنى قدود الملاح
فحقد النرجس يهزو به وقال حقا قلت ذا أم مزاح
بل أنت بالطول تحامقت يا مقصوف عجبا بالدعاوى القباح
فقال غصن البان من تيهه ما هذه إلا عيون وقاح

وأنشدنى من لفظه لنفسه ارتجالا بحضورى ونحن نتنزه بجزيرة القبل وقد مررنا بقطعة

نرجس نسقى سيدنا المقر المجدى فضل الله ابن مكائس - أبقاه الله:

وجداول الماء يجرى بين نرجسه لذى البصائر جرى الطيف فى المقل

وقال القاضى شهاب الدين ابن فضل الله فى كتابه مالك أبصار فى ترجمة ابن تميم
وحكى أنه حضر فى مجلس بعض الاكابر وقد غض المجلس وبهتت فيه عيون النرجس
وقمعت فيه أصابع المشور وأعطى فيه أمير الحسن ذؤابة شعره المنشور وطال اعمال
الكثوس حتى غمضت الجفون ولم يبق دور الكاس خال من الجنون وأن أمنية ابن تميم قد
تركه السكر ملقى وخلا خده المصرج محلقا فنهض غير مرة لتقبيله ثم خاف أعين قتيله
فقعد بعد اللجاج ورجع رجوع الصادى والماء يجلى عليه فى الزجاج فقال:

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس

وأصابع المشور تومى نحونا حسدا وتغمزنا عيون النرجس

البنفسج: بارد رطب فيه حرارة بسيرة تتحلل بها الاورام وهو ينفع المحرور وينوم
نومات معتدلا ويذهب الصداع العارض من المرة الصفراء والدم الحريف وهو وشرابه
يسهل المرة الصفراء وينفع للصدر والرئة وكذلك مرباه ينفع من ذات الجنب انتهى كلام
ابن المحلى فى النور.

وقال صاحب مباهج الفكر ومناهج العبر: البنفسج من الرياحين اللطيفة ومن الخواص
الظرفية أن من أراد أن يكون البنفسج على غير سبيل الفلاحة فى السرعة أن يأخذ من
السداب البستانى شيئا يكون مقداره فى القلة والكثرة بمقدار البنفسج ويكون السداب لم

يصبه الماء البتة بل يقطع من منابته ويجفف حتى يزول التراب المتعلق بعروقه عند قلعه ثم يؤخذ لكل طاقة بنفسج طاقة سداب ويعمد إلى أطراف مجارى الماء إلى أصول البنفسج فيجعل فيها السداب ويؤخذ من أغصان خشب التين المجففة شيء ثم يحرق الجميع على مقربة من البنفسج بحيث لا يبلغ لهب النار إليه فإنه متى فعل ذلك للبنفسج أهاجه وحمل بعد عشرين يوما من هذا الفعل.

ومن عجيب أمره أن الإنسان إذا تغوط فى مجارى الماء إليه مات وحيل وكذلك إن خرج منه ريح فى مزرعته وحاجته إن كان ابتداء فى توريده فإنه يفسده ولا يكاد يجذب من الماء الذى يسقى به شيئا وأنه إذا دام الضباب عليه يوما أو نحوه ضعف ومتى توالى نقصت زهرته وصغر ورقه وتغيرت رائحته ومن الأشياء المضار قلة القصب فإنه لا يقلح بقره ولا ينمو ومن آفاته المهلكة له والمضعفة لقوته لسرعة قبوله للتأثيرات الرديئة أن تقع صاعقة على اربعمائة ذراع منه أو أقل فإنه يهلك سريعا والبرد يفسده فساد الاصلاح معه وكذلك الرعد الشديد المتابع يضعفه ويوهنه والسمايم أيضا تتلفه والرياح الشمال الباردة والمطر الكثير يذهب به لضعف ساقه وماء الآبار الثقيل يضعفه وربما أهلكه وكذلك الدخان إذا دام عليه ولا ينبغي أن يماسه فى منبته تراب من قبور أو ما يقرب من القبور فإن ذلك يضعفه وإن أصابه أهلكه.

الوصف من رسالة لآبى العلاء عطاء بن يعقوب يصفه سماوية اللباس مسكية الانفاس واضعة رأسها على ركبها كعاشق مهجور ينطوى على قلب مسحور كيتايا النفس فى بنان الكاعب أو النقش فى أصابع الكاتب أو الكحل فى لحاظ الملاح الفاترات الغانيات القاتلات لازوردية فاقت بزرقها على اليواقيت كأوائل النار فى أطراف كيريت.

وأجاد أبو هلال العسكري فى قوله - رحمه الله تعالى :

ومعذر قال الاله لحسنه كن فتنة للعالمين فكانه
زعم البنفسج أنه كعذاره حسنا فسلوا من قفاء لسانه
وقال آخر وهو المكيال - رحمة الله عليه آمين :

يا مهديا لى بنفسجا أرجا يرتاح صدرى له ونشرح
بشرنى عاجلا مصحفه بأن ضيق الامور ينفسح

وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه - رحمه الله تعالى :

بنفسج الروض تاه عجباً وقال طيبي للجو ضمخ
فأقبل البان فى احتفال والزهر من غم عيظه تنفخ

وقال مجير الدين بن تميم:

عاينت ورد الروض يلطم خده ويقول وهو على البنفسج محقق
لا تقربوه وإن تضوع نشره ما بينكم فهو العدو الأزرق
آخر:

بنفسجا جمعت أوراقه فحككت دمعاً تشرب كحلاً يوم تشتيت
كأنه بين طاقات ضعفن بها أوائل النار فى أطراف كسريت
ويعجبني قول الراضى بالله وإن لم يكن مما نحن فيه لكن الشئ بالشئ يذكر:
قالوا الرحيل فانشبت أظفارها فى خدها وفد اعتلقن خضابا
فظننت أن بنائها من فضة قطفت بأرض بنفسج عنابا
حار يابس وإذا غمس فى الماء اعتدل وقلت حرارته وشمه ينفع من اللقوة ويضمده به
مدقوقاً للسعة العقرب فيسكن وينفع المبرود الدماغ ويضر المحرور. انتهى كلام العنبرى.
وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى كتابه شرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون عند
ذكر كسرى أنوشروان أنه كان جالساً بالايوان وإذا بحية قد دنت من عش حمامة فى بعض
شرف الايوان لتأكل فراخها فرمى الحية بسهم أو ببندقية فقتلها وقال هكذا نفعل بعدو من
استجار بنا فلما كان بعد أيام جاءت الحمامة بحب فى مناقرها فألقته إليه فأخذه وقال ازرعوه
فنبت ريحاناً لم يكن يعرفه فقال نعم ما كافأنا به الحمامة نسأل الله الذى ألهمها أن يلهمنا
الاحسان إلى رعيته والشكر على نعمته.

قلت: وذكر الشيخ جمال الدين ما خص به كسرى من الاشياء الغريبة فلا بأس بإيراد
نبذة منها إذ كان كتابنا هذا يشتمل على مآثر فمنها الفيل الأبيض لركوبه طوله اثنا عشر ذراعاً
والقطعة الياقوت المسماة لسان الثور تضىء أكثر من السراج والفلهيد المغنى واضع العود
الخراسانى على اثني عشر وتراً كل من ضرب به جرح إلا هو وكان يعمل له كل يوم مع
طعامه مهر من الخيل وعناق زرقاء مغداة بألبان النعاج يذبحان بسكين من ذهب ويسجر
التنور بالعود ويسمط ما يسمط بالجمر المغلى ويطلّى بالمسك والملح ويعلق فى سفود من
ذهب ورياحين من ذهب فإذا برد حمل ووضع على خوان من ذهب ويقدم إليه فيأكل أكثره
ويتحف بالبقية من أحب من ندامائه ويكسر التنور ويجدد كل يوم مثله واجتمع على بابه
سبعون ملكاً وكانت له حكايات حسنة فى سيرته أضربت عنها لثلاث نخرج عما نحن بصددده.
رجع: قال الحسن بن سهل أربعة من الرياحين تقوى بأربعة من الطيب ليكمل ذكاؤها

الورد بالمسك والنرجس بماء الورد و البنفسج بالعنبر والريحان بالعبير الوصف قال ابن المعتز:

قضيـب من الريحان شابه لونه إذا ما بدا فى العين لون الزمرد
فشبهته لما تأملت حسنه عذارا تدلى فى عوارض أمرد
قلت: وأنشدنى الشيخ عز الدين الموصلى من لفظه فى مـليح معذر:

بخند الحب ريحان نضير لاسطره حروف ليس تقرى
فراعيت النظير وقلت حـبى عذارك أخضر والنفس خضرى
وقال مجير الدين بن تميم:

ومجلس راق من واش يكدره ومن رقيب له باللوم ايلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به بين الندامى سوى الريحان نـام
الأس بارد يابس دهنه يقوى أصول الشعر ويمنع تساقطه ويطيبه ويسوده وورقه الياـس
ينفع صنان الابط ويطيب رائحة الجسم وإذا طبخ وتمضمض بمائه قوى الأسنان واللثة
ويمنع من الصداع الحاد وشمه يقوى القلب المحرور ويزيل خفقاته وينفع حبه من
الاسهال ويقوى المعدة. انتهى كلام العتري فى النور المجتنى.

وقال صاحب المـباهج أنه يتصرف فى أشياء كثيرة عظيمة النفع حبه وورقه وقوته
البرودة فى الأولى وجه نافع من الخفقان وضعف القلب وهو بجملته قاطع للاسهال
المتولد من الصفراء ومن ابتلع من ورقة من الخمسة إلى السبعة ورقات فإنه يقوى المعدة
وينفى ما فيها ويحلل رباحها وأما حبه فإنه لما فيه من الحلاوة واللطافة ينفع للسعال
العارض من الحرارة من غير اضرار بالصدر والرئة ولما فيه من العفوصة يقطع نفث الدم
وحرقة المثانة وينفع الاسهال المزمن وماؤه إذا غسل به الشعر حصبه وقواه من الانتثار
وصد أصله وينفع من الابرية والقروح الرطبة وإذا جفف الورق ودق ونخل وحمل على
الآباط والافخاذ الندية قطع نداوتها ومنع عرقها.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: اهبط آدم من الجنة بثلاثة أشياء منها الآسـة وهى سيدة ريحان الدنيا.

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: «والحسين بكلتا يديه وردة إن الورد سيد رياحين أهل الجنة ما خلا الآس» وهو باليونانية المرسين.

الوصف:

خليلى ما للآس يعبق نشره إذا هب أنفاس الرياح العواطر
 حكى لونه أصداع ريم معذر وصورته آذان خيل نوافر
 وما ألطف ما ألم به الشيخ شمس الدين بن الصائغ فى قوله:
 خط آس العذار فى الخد لاما عرفتني سفاهة اللوام
 أنا فى كسرة لبعدي عنها جبر مثلى بالآس أو باللام
 وقال آخر فأغرب:

اعجب بأس معجب مؤنق يعجب منه أى إعجاب
 كأنما تقطيع أوراقه ما بيتنا أنفصل نشاب

قلت: فى البيت الأول عجمجات كثيرة ولكنه أصاب الغرض فى الثانى ويمكن أن يقول:

* أحبب بأس أخضر مؤنق *

الياسمين: حار يابس فى آخر الدرجة الثالثة نافع من الرطوبة والبلغم صالح للمشايخ
 ومن كان بارد المزاج ومن الصداع العارض من البلغم والمرارة السوداء وعفونة البلغم
 وكثرة شمه تورث الصفار يفعل ذلك فى الحار المزاج ودهنه ينفع من أمراض العصب
 الباردة والخالص من دهنه يرغف. انتهى كلام ابن المحلى.

وقال صاحب المباهج فى الفلاحة إذا اردت ياسميناً أحمر اللون فانه يشق قصب
 الياسمين ويخرج ما فيه ويحشى مكانه بالك مسحوقاً ويوضع عليه طين ويلف عليه مشاق
 ويغرس ويتعاهد بالسقى فانه يزهر ياسميناً أحمر والازرق بالسلب والاصفر بالزرنينج مجرب.
 الوصف:

ولما خلناها سماء زيرجد لها أنجم زهر من الزهر الفضى
 تناولها الجاني من الارض قاعدا ولم أر من يجنى السماء من الارض
 آخر فى الاصفر منه:

كأنما الياسمين حين بدا يشرق منه جوانب الكتب
 عساكر الروم نازلت بلدا وكل صلبانها من الذهب

وقال محبى الدين عبد الظاهر - رحمه الله تعالى:

وياسمين قد بدت ازهاره لمن يصف

كمثل ثوب أخضر عليه قطن قد ندف

الحيرى: وهو المنشور حار يابس فى الثانية فيه جلاء وتلطيف وينفع من السدة فى الرأس من البلغم وهو داء فائق للاورام وخاصة لما طال لبشه وعسر ويجتذب المشيمة والاجنة الموتى بأن يشم دهنه وتذلك به الاخصار والمغابن وفم الرحم والحيرى ألوان مختلفة أصفر ذهبى وهو أرفعها وخمرى وبنفسجى وأكحل وملمع وبياض وغير ذلك من الألوان والأبيض هو أردأها والأصفر الذهبى ذكى الرائحة يشم ليلا ونهارا وأما سائر أنواعه سوى الأبيض فانها لا يشم لها بالنهار رائحة ما دامت الشمس طالعة فاذا غابت ظهر لهذه الألوان رائحة عجيبة عطرة مشاكلة لروايح القرنفل أو رويح ماء القرنفل المصعد بماء الورد ولا تزال رائحتها تزداد طيبا الى طلوع الشمس ثم تزول تلك الحمرة والرائحة باقى النهار الى وقت المغيب وأما الأبيض فلا يؤدى رائحة فى ليل ولا نهار وهو أقلها نفعا وأردأها وفى أصنافه منفعتها واحدة وقد يتخذ من الأصفر منه والخمرى والبنفسجى دهن يربى بالسهمسم كما تربى أدهان الازهار فينتفع الاورام الباردة ويحلها ولعقد الرقاب والاعصاب المعارضة لهما.

وادمان شمه ينفع من اللقوة والفالج وذوى الامزجة الباردة واذا أخذ من بزر الاصفر مجففا وزن دانقين يسحق مع زهرتين من زهر القرنفل الذكر وأضيف اليهما وزن حبة من مسك أذقر خالص ووزن القرنفل من أنفحة أرنب وسحق الجميع ورتب على الصلابة بالبان المبسوس بالمسك واتخذ منه فرزجات وتحملت المرأة فرزجة منها فى ليلة طهرها وواقعها بعلمها فانها تحمل باذن الله من تلك المواقعة.

وذكر جالينوس أن بزر الحيرى اذا سحق مع دم هدهد ودهن زئبق واحتملته المرأة وواقعها زوجها حملت.

وهو من النبات الذى اذا لقطت ورده امرأة حائض فسد وذبل وهلك الخصية فيه ولا ينبغي أن يعمل أعماله كلها امرأة البتة حائضا كانت أو غير حائض بل الرجال الذين أسنانهم فوق أسنان الصبيان ويطرح بزره الذى يطرحه وهو طاهر نظيف بعيد العهد بملاسة النساء ويعالج جميع أعماله والقمر زائد فى الضوء وان كان متصلا بالسعود جيد المكان فى الفلك كان أجود، ومما يوافقه أن يذر فى أصله شىء من دقاق بعير المعز بعد السقى فانه ينفعه ويزيد فى رائحته زيادة بيئة وليس يحتاج الى الشمس الحارة لانها تضعفه ولا يكثر عليه الماء اكثارا مفرطا فانه يضره. انتهى كلام صاحب المباهج.

الوصف:

قال مجير الدين بن تميم:

حاذر أصابع من ظلمت فانه
فالورد ما ألقاه فى جمر الغضا
وقال متعصبا للورد:

ولم أنس قول الورد لا تركنوا إلى
وقال متعصبا له على النرجس:
مذ لاحظ المنشور طرف النرجس الـ
فتح عيونك فى سواى لانى
وقال:

ومذ قيل للمنثور انى مفضل
تلون من قولى وزاد اصفراره
وقال ابن حجة:

رأيت من المنشور بعض وقاحة
تلون منه ثم مد أصابعها
وقال:

ومذ قيل للمنثور ان الورد قد
بسمت ثغور الإقحوان مسرة
وقال:

لما دعى المنشور أن الورد لا
ودت ثغور الإقحوان لو أنها
وأحسن التصرف الامير شهاب الدين الحاجبى فى قوله:

ولقد نشرت مدامعى ودمى معا
لا تعجبوا لتلون فى أدمعى

الاذريون حار يابس منافعه أن يسحق بالخل ويطلّى به داء الثعلب ينبت الشعر فيه وينفع
سائر السموم لا سيما اللدوغ.

وقال صاحب المباهج ان شرب من أصله خمسة دراهم مع غسل أو سمن أسهل

اسهالا شديدا بلغما وكيموسا باثيا ويشربه أصحاب اليرقان وينبغى أن يضطجع من يشربه فى بيت حار ويغطى بشياب كثيرة فانه يسيل منه عرق لونه لون المرة الصفراء والشربة منه ثلاث مثاقيل ونصف بشراب حلوى وبماء العسل وينفع شربه بالطلاء من السم القاتل ولدغ الهوام ومن عجائب خواصه أنه ان دخلت امرأة حامل بيتا فيه اذريون أسقطت وإن تحملت به امرأة فى فرجها ثم جامعها بعلها حملت.

وقال ديسقوريدس أصل بخور مريم اذا علق على المرأة منع الحبل واذا خطته المرأة الحامل أسقطت واذا أخذ منها وهى جافة وسحق منها مثقال وسقى بماء فاتر وعسل لمن يحب أن يسهل باطنه فانه يجليه بلغما كثيرا وينقى كل ما فى صدره من البلغم ويخرج ما فى باطنه من الخام وان شربت منه امرأة أسهل حيضها وان أحشت منه صوفة أسهل حيضها وهى تنزل الولد الميت ويشرب منها لعسر البول وعسر الولد ولمن سقى سما أو لدغته شئ من ذوى السموم وهى سليمة مأمونة لا يخاف منها نافعة وهى تنفع لوجع الكبد يسقى منها رطلا وعسلا وبماء فاتر وعسل وهى نافعة من السرطان ومن العقد التى تخرج فى الاصابع والسلع يعمل لهم منها مرهم ثم يطلى عليها.

والاذريون من الاشياء الصابرة على العطش وهى كبيرة وصغيرة ونباتهما سواء فالكبيرة شجرة مريم والصغيرة اذن العجوز.

وزعم السلف أن الحامل اذا أمسكتة يديها مطبقة احدهما على الاخرى ان الجنين يناله ضرر شديد فان ادامت امساكه واشتمامه أسقطت وان عسرت الولادة على الحامل فلتمسكه يديها كما وصفنا فانها ترمى الولد سريعا واذا بخر به هرب الفار والوزغ من الموضع الذى بخر فيه وفيه منافع جمة اختصرناها.

الوصف: قال الصنوبرى:

كان اذريونها من فوق تلك القضب خيام مسك فوقها سراق من ذهب
وقال ابن المعتز وأجاد:

كان اذريونها والشمس فيه كاليه مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه
قال ابن حجة فى الاذريون:

كان اذريونها ونوره قد أبهجبا وبيض برق لامع فى جنح ليل قد دجا
السوسن بضم السين لحن والصواب بالفتح وزن جوهر وكوثر ولم يسمع بالضم إلا جوذر، وهو حار يابس فى أول الدرجة الثانية ينفع من كان بارد المزاج ومن الاوجاع

المعارضة في العصب من البلغم ودهنه نافع من وجع العصب المتولد من البلغم ووجع الرحم والاسمانجوى أقل حرارة وأصل الاسمانجوى يسهل الماء الاصفر الشربة منه مثقال. انتهى كلام صاحب النور.

الوصف:

قال أبو نواس رحمه الله تعالى:

سقياً لارض إذا ما نمت نبهني
كأن سوسنها في كل شارقة
قال ابن حجة في السوسن:

بدا سوسن الروض المديح أزرقاً
كأن الربا أرخت ذبول غلائل
وأصفر يعلو طوله فوق مبيض
مصبغة والبعض أقصر من بعض

اللينوفر وهو أزرق وأصفر وأحمر وأبيض وجميع اصنافه باردة رطبة منوم مخدر للدماغ أقوى فعلاً من البنفسج في التنويم وينفع الصدر والرئة في الامراض الحارة ويزيل الصداع وكثرة شمه تزيل الاحتلام ويقطع شهوة الباه لا سيما ان شرب منه فانه يجمد المنى لخاصية فيه لا سيما أصله وبزره وشرابه ودهنه نافعات لامراض الرأس من حرارة. انتهى كلام ابن المحلى.

الوصف: قال ابن صابر:

يا حبذا بركة نيلوفر
أزرق في أحمر في أبيض
كأنه يعشق شمس الضحى
إذا تجلت يتجلى لها
يدنو إليها شاخصاً طرفه
لا يبتغي وجهها سوى وجهها
وقال ابن حمديس:

اشرب على بركة نيلوفر
كأنما أزهارها أخرجت
وقال ابن تميم وأجاد:

لينوفر لما تلبس ماؤه
لحظته أعينها فنكس رأسه
محمرة الاوراق خضراء
ألسنة النار من الماء
ثوباً فتاه على النجوم بثوبه
خجلاً وغاص من الحيا في ثوبه

وقال أيضا:

غدا اللينوفر المصفر يحكى النـ
تغوص العين فيه إذ اتجلى النـ
وقال أيضا:

ولينوفر كالزهر شكلا ومنظرا
وكل نجوم لكن الفرق بينهما
وقال ابن حجة:

لينوفر الليل منذ أبدى تلونه
قلنا له ذاك لون واحد وبه
أحمر وأزرق من ساسينا وشكا
يسمو وأنت بليد وهو فيه ذكا

obeikandi.com

الباب السادس عشر فى الروضات والبساتين

أجمع جوابو أقطار الارض على أن منتزهاتها أربعة سفد سمرقند وشعب بوان ونهر الابله وغوطة دمشق، قال أبو بكر الخوارزمي قد رأيتها كلها فكان فضل الغوطة على الثلاث كفضل الاربع على غيرهن كأنها الجنة صورت على وجه الارض فاما السفد فهو نهر تحف به قصور وبساتين وقرى مشتبكة العماثر ما مقداره اثني عشر فرسخا فى مثلها، وأما شعب بوان فبقعة من نواحي كورة سابور يكون مقدارها فرسخين قد ألحقتها الاشجار ظلالتها وجاست الانهار خلالها وهذا الشعب لبوان بن أبرج أفريدون وفيها يقول المتنبي:

مغانى الشعب طيبا فى المعانى	بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربى فيها	غريب الوجه والبدن واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها	سليمان لسار بترجمان
غدونا نغض الاغصان فيه	على أعسرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبت الشمس عنى	وجثن من الضياء بما كفانى
والقى الشرق منها فى ثيابى	دنائيرا تفر من البنان
لها ثمريشير اليك منه	باشورية وقفن بلا أوان
وأمنواه تصل بها حصاها	صليل الحلى فى أيدي الغوانى
إذا غنى الحمام الورق فيها	أجابتها الاغانى والقيانى
ومن بالشعب أحوج من حمام	إذا غنى وناح الى البيبان
وقد يتقارب الوصفان جدا	وموصوفا هما متباعدان
تقول بشعب بوان حصانى	أعن هذا تسير الى الطعان
أبوكم آدم قـد سن هذا	وعلمكم مفارقة الجنان

وأما نهر الابله وهو من أعمال البصرة وطوله أربع فراسخ وعلى جانبيه بساتين كأنها بستان واحد قد حط على خط مستقيم وكأن نخله غرس فى يوم واحد.

وأما الغوطة وهى من حيز دمشق فانها ناحية يكون طولها ثلاثين ميلا وعرضها خمسة

عشر ميلا مشتبكة القرى والضياح لا يكاد أن يقع للشمس على أرضها شعاع للالتفاف أشجارها واكتشاف أزهارها.

وللشعراء فى وصفها قصائد كثيرة أضربنا عن ذكرها لتردد العلل فيما يختار منها اذ كلها حسان لو جمعت لحضيت من تسطيرها الاقلام وكلت البنان، وقد روى فى بعض الاخبار عن كعب الاحبار انه قال: غوطة دمشق بستان الله فى أرضه، وقال جمال الدين بن نباتة كتبها المملوك ومنظر الروض قد شاق ودمع الغيث قد رقا ووجه الارض قد راق والغصون المنعطفة قد أرسلت أهواء القلوب بالاوراق وحمائمها المترنمة قد جذبت القلوب بالاطواق والورد قد احمر خده الوسيم وفكت أزواره من أجبياد القضب أنامل النسيم وخرجت أكفه من أكاماه بأخذ البيعة على الازهار بالتقديم.

وقال مجير الدين بن تميم:

كيف السبيل بلثم من أحببته	فى روضة للزهر فيها معرك
ما بين مثبور وناظر نرجس	مع اقحوان وصفه لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا	ترنو إلى وثغر هذا يضحك

وقال آخر وحللنا موضع كذا فافترشنا من زهره أحسن بساط واستظللتنا من شجره بأوفى رواق وطفقنا نتعاطى شموسا من أكف بدور وجسوم نار فى غلائل نور الى أن جرى ذهب الاصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء.

وقال الشريف على بن دفتر خوان:

ودوحة سكرت أغصانها بصبا	فللهوى فى معانيها اشارات
ماست فتقطها غيث بلؤلؤة	ف فوق أوراقها منه جمانات
فهن فى العين هاءات مطمسة	من اللجين وان سالت فميمات

وقال على بن ظافر فى منزل قد انقطفت قدود أشجاره وأبسمت ثغور أزهاره وذاب كافور مائه على عنبر طيبة وامتدت بكاسات الجلنار أنامل غصونه والنسيم قد خفت واعتل وسقط رداؤه الخفاق فى الماء فابتل ووهنت قوته حتى ضعف عن السير واشتد مرضه حتى ناحت عليه نوايح الطير (فخر الترك) أندم المجنوى:

الروض مقتبل الشبيبة مؤثق	خضل يكاد نضارة يتسدفق
نثر الندى فيه لآلى عقده	فالزهر منه متوج وممنطق
وارتاع من مر النسيم به ضحى	فغدت كمائم نوره تتفتق

وسرى شعاع الشمس فيه فاتقى
فالعصن مياس القوام كأنه
والطير ينطق معربا عن شجوه
غردا يغنى للغصون فينشئ
والنهر لما راح وهو مسلسل
فتمل ايام الربيع فانها
منها ومنه سنا شمس تشرق
نشوان يصبح بالنعيم ويعبق
فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
طربا جيوب الطل منه تشقق
لا يستطيع الرقص ظل يصفق
ريحانة الزمن الذى يستنشق

برهان الدين القيراطى فى دمشق سقى سهمها على قوس الكواكب وأقبلت من كتاب
زهورها فى مواكب وتحرك عودها حين غنت عليه من الورق القيان وطفح يزيدها فقلت
وهذا مما يعجب أبا سفيان، وقال سيدنا ومولانا أفضى القضاة بدر الدين محمد المخزومى
المالكي الشهير بابن الدمامينى - أسبغ الله عليه ظلاله - يصفها عند دخوله اليها فى ثامن
رمضان المعظم سنة ثمانمائة ونقلتها من خطه فتأملها المملوك فاذا هى جنة ذات ربوة
وقرار معين وبلدة تبعث محاسنها الفكر على حسن الوصف وتعين وحسبك بالجامع
الفارق بينها وبين سواها والانهار التى اذا ذكر قتل المحل فما أجراها واذا سمع حديث
الخصب فما أرواها ما أقول الا منتزهات مصر عارية من المحاسن وهذه ذات الكسوة ولا
أن النيل احترق إلا من الاسف حيث لم يسعده الدهر بالصعود الى تلك الربوة ولا أظنه
احمر الا خجلا من صفاء أنهارها ولا ناله الكسر الا لتألمه بالانقطاع عن الوصول الى سقى
أزهارها فلو رأى العاشق جبهتها لسلا بمصر معشوقه ونسى ظهور جواريه المتحبة
بمقامات غصونها الممشوقة ولو تطاولت المجنونة الى المفخرة لتأخرت الى خلفها
متخيلة وأجمحت عن الاقدام حين تحركت لها بدمشق السلسلة وحق مصر أن لا يجرى
حديث المفخرة فى وهمها وأن تتقى شر المنازعة قبل أن تصاب فى هذه البلدة بسهمها
فسقى الله منتزهاتها التى طرب المملوك برؤية حبكها وطالما اعتزت له المعاطف على
السماع ورأى بها كل نهر ذاب عنه الجليد فانهقد على حلاوة شكره الاجماع تروع حصاه
حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم.

وقال البدر يوسف لؤلؤ الذهبى:

هلم يا صاح الى روضة
نسيمها يعثر فى ذيله
يجلو بها العانى صدامه
وزهرها يضحك فى كفه

وقال ابن عمار:

ياليلة بتناها فى ظل اكناف النعيم من
فوق اكمام الرياض ونحت أذيال النسيم

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تشبيه القمر من خلال الاغصان:

كأنما الاغصان لما انثت امام بدر التم فى غيبه

بنت ملك خلف شباكها تفرجت منه على موكبه

وقال سيدنا بدر الدين محمد بن الدمامى فى كتابه الذى وضعه على غيث الادب

الذى انسجم فى شرح لامية العجم تصنيف الشيخ صلاح الدين الصفدى وسماه كتاب

نزول الغيث عند ذكر هذين البيتين: ظاهر هذه العبارة أن الاغصان شبهت فى حال انثائها

امام البدر فى الدجا بينت ملك تطل من خلف شباكها للنظر فى موكب أبيها وذلك عن

مظان التوجيه بمعزل ومقصوده أن البدر فى حال ظهوره من خلال الاغصان المشبهة على

الصفة المذكورة شبه بينت ملك على تلك الحالة تمثيلا للهيئة الاجتماعية بشبيهاها لكن

لفظه لا يساعده على هذا المطلوب فانه جعل الاغصان مبتداً وأخبر عنه بقوله بنت ملك

فلم يتم له المراد وكثير ما يقع له فى هذا.

قال يصف خالا على شفة:

قد شبه الخال على ثغره تشبيهه من لا عنده شك

كسبحه من جوهر تضمنت حق حقيق قفله مسك

وأين هذا من قول الطغرائى:

انظر الى الجنة فى ثغره لا ريب فى ذاك ولا شك

أما ترى فيه الرقيق الذى ختامه من خاله مسك

على أن مقطوع الصفدى الاول مع ما فيه من العيب مأخوذ من قول ابن قرناص.

وحديقة غناء ينتظم الندى بفروعها كالدرد فى الاسلاك

والبدر يشرق من خلال غصونها مثل المليح يطل من شباك

وقد عيب هذا البيت وشتان بين ذاك وبينه فتأمله: انتهى كلام الشيخ بدر الدين وقال

بعضهم وأحسن:

نحن فى عب سماء أقلعت بعد الارتواء وأقشعت عند الاستغناء والنبت خضل ممطور

والنقع ساكن محصور رش جبين النسيم وابتل جناح الهوى وضربت خيمة الغمام

واعرورقت مقلة السماء وقام خطيب الرعد ونبض عرق البرق.

وقال ابن الساعاتى (توفى سنة أربع وستمئة بالقاهرة وعمره احدى وخمسون سنة):

ولد نزلت بروضة عبقية
فظللت أعجب حيث يحلف صاحبي
ما الدوح الا جوهر والجوا الا
سفرت شقائقها فهم الاقحوا
فكأن ذا خد وذا ثغر تحسا
ولدت نواظرنا بها والانفس
والمسك من نفحاتها يتنفس
عنبر الارض الا سندس
ن بلثمها فرنا إليها النرجس
وله وذا أبدا عيون تحرس

بدر الدين بن يوسف بن لؤلؤ الذهبي - رحمه الله تعالى:

وحديقة مطلولة باكرتها
ينكر الماء الزلال على الحصا
وقال:

باكر الى الروضة نستحلها
والنرجس الغض اعتراه الحيا
والغصن فيها ألف قد بدا
ويلبل الدوح فصيحاً على
فثغرها يا صاح بسام
فغض طرفاً فيه أسقام
والنهر في أرجائها لام
الايكة والشحرور تمتاز

صفوان بن ادريس (توفي سنة ٩٨ - رحمه الله تعالى):

جاد الربا من بانة الجرعاء
ياليت شعري والزمان متقل
هل نلتقى في روضة موشية
وتنال فيه من تألفنا ملوما
في حيث أطلعت الغصون سوافا
وجرت ثغور الياسمين فقبلت
والورد في شط الخليج كأنه
وكان غصن الزهر في خضر الربا
وكانما جاء النسيم مبشراً
فكساه خلعة طيبة ورمى له
وكانما احتقر الضبيع فبادرت
والغصن يرقص في حلى أوراقه
واجتر ثغر الاقحوان بما رأى
أفديه من أنس تصرم وانقضى
نوّان من دمعي وغيم سماء
والدهر ناسخ شدة برحاء
خفاقة الاغصان والافياء
فيه سخنة أعين الرقباء
قيد قلدت بالآلى الانداء
عنى عذراء الآسة الميساء
رمد ألم بمقلة زرقاء
زهر النجوم تلوح في الخضراء
للروض يخبره بطول نواء
بدراهم الأزهار رمى سخاء
بالعذر عنه نغمة الورقاء
كالخود في موشية خضراء
طربا وقهقهه منه جرى الماء
فكأنه قد كان في الاغفاء

ونقلت من خط سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن الدمامينى هذا اللغز وكتب به إلى بعض الفضلاء الثغر المحروس ما قول مولانا - أبقاه الله تعالى - وضاعف اقباله ووالى فى ذات ينعم بها الجانى وتطرب فى مراتبها الالحان المغنية عن المثلث والمثانى خرساء لا تعرف حديث الادب المأثور وطالما تأملها الكاتب فوجد بها السجع والمنتور عيونها تذبذب إذا شربت وأعطافها ترقص إذا طربت طالما تحركت السواكن وهاجت البلابل ونهر من سأل عنها فاستعذب نهرها السائل وروى منها عن الزهرى حديث حسن ولم يعز إليها مع ذلك براعة ولا لسن ورمقت الاعيين خدودها وودت الانفس على الحالين ورودها استحسنت الخواطر حديث راويها إذا اعتل واستروجت لنفسه الطيب إذا اختل إن عرف لفظها كان علما لمحل لا بطرقه محل ولا ينكر تأنيثه فحل يحدث المصرى بحلاوته ويخبر بلفظه وطلاوته قد سهر من قديم تألقه البسطة وجهل السكر على أنه ما زال يقول بالنقطة يعرف المعشوق وآثاره وينال من المشتهى أمانيه وأوطاره وتوطأ فيحمد حملة الانعال وتقف عنده الجوارى على الارجل فلا تود الانتقال وينشد من شغف بمعانيه ويبحث طرفه لتأمل مغانيه وكتب إذا أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر والا فعلم على جملة يعرفها الطالب ويحسن ارتكاب المهالك لنيل ما فيها من المطالب قد فتحت لارباب المقاصد أبوابها ومنحت الافهام الضالة هديها وصوابها وصحت بما اشتملت عليه من العلل ونسخت مع أنها أحكمت بالسلامة على الحل:

وقد بسقت منها الفروع وأثمرت	إلى أن جنا منها الورى ثمر العليا
وفى وصفها يبدو الطباق فضدها	يموت بها غما وصاحبها يحيى

الوزير بن عمار:

وليل لنا بالسدين معاطف	من النهر ينساب انسياب الارقام
بعيث اتخذنا الروض جارا تزورنا	هدايه فى أيدي الرياح البواسم
تبلغنا أنفاسه فتردها	بأعطرها أنفاس وأزكى المباسم
تسير الينا ثم عنا كأنها	حواسد تمشى بيننا بالنمائم

وقال القاضى بدر الدين بن الدمامينى لنفسه - رحمه الله:

يقول مصاحبى والروض زاه	وقد بسط الربيع بساط زهرى
تعال نباكر الروض المفسدا	وقم نسعى إلى ورد ونسرى

وقال أبو جعفر ابن الشعرى (توفى سنة إحدى وثلاثين وستمائة):

يا هـل ترى أظرف من يومنا قلد جيد الافق طوق العقيق
وأنطق الورق بعيديداتها مرقصة كل قضيب وريق
والشمس لا تشرب خمر الندى فى الروض إلا بكثوس الشقيق
وقال بعضهم:

فى روضة علم أغصانها أهل الهوى العذرى كيف العناق
هبت بها ريع الصبا سحرة فالتفت الاشجار ساق بساق
وقال الشيخ عز الدين الموصلى ونقلتها من خطه - رحمه الله تعالى:
منابر الدوح فيها الورق قد سبجت فمالت القضيب للالحان واستمعت
وهاجها سحرا مر النسيم فمذ هب القبول إلى طيب الصبوح دعت
أبدت فرادى ومثنى من عجائبها تلك الرياض التى للحسن قد جمعت
بيننا ثغور بها للزهر قد بسمت أضحت عيونا بماء الطل قد دمعت
ومذ تلون وجهه الروض قابله نهـر به أعين فى صدره دفعت
وقال الشيخ الفاضل الكامل يحيى بن هذيل التجيبى أبو زكريا كذا ذكره العلامة ذو
الوزارتين لسان الدين محمد بن الخطيب فى تاريخه الإحاطة بتاريخ غرناطة (وذكر أن
وفاته سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة):

نام طفل النبت فى حجر النعامى لا هـتزاز الظل فى مهد الخزاما
وسقى الوسمى أغصان النقا فهوت تلثم أفواه الندامى
كحل الفجر لهم جفن الدجى وغدا فى وجنة الصبح لثاما
يحسب البدر محيا ثمل قد سقته راحته الصبح مداما
حوله الزهر كثوس قد غدت مسكة الليل عليهن خناما
وقال الوزير العلامة فخر الدين عبد الرحمن بن مكاس - تغمده الله بالرحمة - يصف
شجرة بشاطئ النيل المبارك بالروضة:

يا سرحة الشاطئ المنساب كثره على اليواقيت فى أشكال حصباء
حلت عليك عز اليها السحاب إذا نوء الثريا استهلكت ذات انوائى
فإن تبسم فيك النور من جذل سقاك من كل غيم كل بكائى
رحماك بالوارف المعهود منك فكم لنا بظلك من اهواء اهوائى
وكم نزلنا مقبلا منك ما حمى الهجير إذ حيث لا مرأى لحربائى

يظل من قبل الفضفاض فى ظل
يا طيبة بدواء القريض عالمة
لا صوح الدهر منك الزهر وانبجست
عصابة الشرب أموار روض زاهرة
خمائل الروض منشأها ومرضعها
فاستهمدت دوحها المخضل وافتربت
قريرة العين بالانواء باردة الـ
مقيل ندمان بل مغنى حمائل بل
لها مطارف سجسج فمصيفها
قديمة العهد هزتها الصبا فصبت
لا يدرك الطرف أقصاها على كلك
وصوت بلبلها الراقى ذرى غصن
كقفرع ناقوس دبرى على شرف
خلية حين أجنيت الضلوع على
تهكمت بى فلم تجنى أضالعها
بديعة الحسن قد فاز الجناس لها
وقام عنها لسان الزهر ينشدنا
كم صفق الموج من أزهارها طربا
وكم طربت لما أبدته من ملح
وجدت بالتبر من مالى ومن أدبى
كأنها من جنان الخلد قد كملت
كأن أغصانها اللدن الرشاق إذا
كان صمغتها الحمرا بقشرتها الدُّ
كأنها فوق دعص الموج إذ سفحت
مالت على النهر إذ جاش الخوير به
كأنما النهر مرآة وقد عكفت
ذو شاطئ راق غب القطر فهو على
كأنه عند تفريك النسيم له

من الغمام يقينا كل ضرائى
أنت الشفاء لدى الرمضا من الداء
عليك كل هتون الودق سوداء
تعزى لأكرام أخوال وآبائى
ضرع النميرين من نيل وانوائى
لجم الربا ورقت عرشا على الماء
قلب الذى لم تنله غير سبراء
كناس أرام بل أفناء درمساء
ظل يعادل فيه طيب مشتاء
فهى العجوز تهادى هدى مرهاء
حتى تعود له لحظات حواء
بحلة من دمقس الريش دكناء
مسبح فى سواد الليل دعاء
نار بشجوى بها لاحب لمياء
على الهواء وأجتتها على الماء
من المعانى بأفتان وأفياء
للهو كم أرج مسا بين ارجاء
فنقطته ييضاء وصفراء
يصبوا له كل ذى عقل وآراء
فكنت فى كل حال منهما الطاء
حسنا وحسبك من خضراء العاء
هصرت أفنانها أعطاف وطفاء
مدكناء قرص على أعكان سمراء
هضابه سفح وادرب أفياء
كأنها أذن مسالت لاصغاء
عليه تدهش فى حسن ولألاء
نهـر الابلـة يزرى أى ازراء
فرند سيف نضته كف جلاء

كأنه شبك من لؤلؤ نظمت
 كأنه حين يهدى زرقه وصفا
 وكم شدتنا حمامات الاراك على
 من كل ورقاء فى الافنان صادحة
 ورق تغنت بحيات رقين على
 باكرتها فى سراة من أصحابنا
 تداعبوا بمعانى شعرهم فأروا
 من شيخ مجنون فى شباب فتى
 يسمى إليها على جرداء جارية
 نوحية الصنع والاحكام منشأة
 سوداء تحكى على الماء المصنل شا
 ساجية البستها الصانعون لها
 غربية ذات ألوان وأجنحة
 لم يستطع شاوها إذ سيرها عنق
 كم قد نعمنا بها عيشا بصافية
 مما تخيرها كسرى وأودعها
 راحا إذا رجع الابريق يمزجها
 أم السرور التى أبقى الزمان بها
 فعاطيتها على ظل الندى سحرا
 واستجلها بنت مصر تستطيل على
 كم بين من قام معتل النسيم بها
 من كف ظبى وشاد أو وشادية
 على الحدائق لا الآكام تنقحنا
 أما أنا لست نواحا على طلل
 تركته لأناس كالتيوس غنوا
 يعزون للشعر لكن من جهالتهم
 من كل الكن عند البحث منقطع

أو جوهر السن أو تحليل رقصاى
 رقرق عين بوجه الأرض شهلاء
 أغصانها فأرتنا رقص هيفاء
 بين الحدائق فى فيحاء زهراء
 عيدانها قاله فى مغنا وغناء
 لا ينطوون بهلى حقد وشحناء
 ود الاحبة فى ألفاظ أعداء
 يقرى المجنون بقلب غير نساء
 من ايكها كهلال الافق حدباء
 تسير ما سيرت من غير اعياء
 مة على شفة كالشهد لعساء
 من التدابير ما يزهو بصنعاء
 لم أدر تعزى لروض أو لعنقاء
 عز الجياد على كد وانضاء
 شمطاء تجلى على الخلاء عذراء
 رب الخورنق فى قوراء جوفاء
 سمعت من صوته تسبيح فأفاء
 جزؤ الحياة وقد ألوى بأجزاء
 فإن ترشاقها موتى واحياء
 بغداد والموصل الحدبا وسوراء
 على اعتدال وحدباء وزوراء
 تشدو لنا بين صوت العود والناء
 ربح البنفسج لا نشر الخزاماء
 ولا خليط ولا نداب أحياء
 عن الممدام بدر الابل والشاء
 لم يفرقوا بين ابطاء واقواء
 كأنه واصل والشعر كالزواء

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى :

أشفاق فى وادى دمشق معهدا
ما فيه الا روضة أو جوشق
وكان ذاك النهر فيه معصم
وإذا تكسر ماؤه أبصرته
وشدت على العيدان ورق أطربت
فالورق تشدو والنسيم مشيب
وضياعها ضاع النسيم بها فكم
وخلت بقلبي من عسالة حبه
ولكم طربت على السماع بجنكها
فمتى أزور معالم أبوابها

وقال ابن ظافر فى بدائع البداية: اجتمع الوزير أبو بكر ابن القبطرنة والاديب أبو العباس ابن صارة فى يوم جلا ذهب برقه وأذاب ورق ودقه والارض قد ضحكت لتعبس السماء واهتزت وربت عند نزول الماء فقال ابن صارة:

هذى البسيطة كعاب ابرادها
فقال ابن القبطرنة:
فكان هذا الجو فيها عاشق
فقال ابن صارة:
وإذا شكا فالبرق قلب خافق
فقال ابن القبطرنة:

من أجل ذلة ذا وعزة هذه
وقال ابن تميم:

لو كنت إذا نادمت من أحببته
لرأيته عيونها من غيره

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر:

والاغصان قد أخضر نبات عارضها ودنانير الازهار ودراهمها وقد تهيأت لتسليم قابضها والمنثور وقد نظمت قلائده وصيغت ولائده والحوار وقد جاوز السهى بالبياشير

والسرور قد كشف عن سوقها وقالت لها تلك الغدران بهديرها إنه صرح ممرد من قوارير
والسوسان وقد لاحظ جفنه الوسنان والورد وقد ورد والبان وقد بان.

وقال الشيخ عز الدين الموصلى ونقلها من خطه - رحمه الله تعالى:

وروضة نقشتها للحيا ابر
مثل السوار لها سور أحاط بها
أو كالخلاخيل للادواح دار على
تحت الفياض رياض دبجت فبدت
أغصانها السند والاوراق سوسنه
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه
والظل ثوب إذا مر النسيم به
ونهرها زائد بالخصب يدنينا
وقال:

وروض نجم الزهر أصبح معجبا
مذ أرجف الماء النسيم تدرعت
فللروض تدبيح بألوان زهره
فراع نصيرا من حنان جناسه
وأغربت الألحان فى الدوح ورقة
وأسفر للأصباح خند مورد

وقال العفيف التلمسانى - قدس الله سره:

انظر إلى الاغصان فى حركاتها
فتقول أرباب البطالة يشنى
وقال شهاب الدين بن دمرdash (مولده سنة ثمان وثلاثين وستمائة، ووفاته سنة ثلاث
وعشرين وسبعمائة):

انظر إلى الاشجار تلق رءوسها
وعبيرها قد ضاع من أكمائها
وقال برهان الدين القيراطى من قصيدة:
تشوقتى الفات الروض مائلة
ولى من الورق فى أوراقها طربا

شابت وطفل ثمارها ما أدركا
وغدا باذبال الصبا متمسكا
من النسيم سكارى وهى دالات
كأنهن على العيدان قينات

وقال الشيخ مجد الدين الارموى (توفى سنة إحدى عشرة وسبعمائة):

كم للنسيم على الربا من نغمة وفضيلة بين الورى لن تجحدا
ما زادها وشكت اليه فاقاة الا وهزلها الشمائل بالندى

وقال: محبى الدين بن قرناص - رحمه الله تعالى:

أظن نسيم الروض والزهر قد روى حديثا ففاحت من شذاها المسالك
وقال دنا فصل الربيع فكله تغور لما قال النسيم ضواحك
وقال الفاضل علاء الدين على بن ظافر العسقلانى فى كتابه بدائع البداية قال اجتمعت
أنا والقاضى الاعز يوما فقلت له أجز:

* طار نسيم الروض من وكر الزهر *

فقال:

* وجاء مبلول الجناح بالمطر *

قلت: الشىء بالشىء يذكر، ذكرت بقول العسقلانى ما أنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ
عز الدين الموصلى محاجيا:

يا من له حسن لفظ يثنى عليه المثانى

ما مثل قول الهاجى أحوى الشفاء جفانى

وذكرت بلطف هذه الاحجية ما أنشدنيه من لفظه لنفسه سيدنا ومولانا الفاضل المفتن
المحدث المؤرخ شهاب الدين أحمد بن الشيخ نور الدين على الشهير بابن حجر ابقاه الله
محاجيا:

يا فاضلا هو فى الاحاجى ليس يخلو من ولع

ما مثل قولك للذى ييكى الحبيب اسكت رجع

وظرف من قال:

وروضة رقصت أغصانها وشدت أطيارها وتولى سقيها المحب
وظل شحروها الفريد تحسبه أسويدا زامرا مزماره ذهب

وقال ابن خفاجة فى نهر تحف به أشجار:

قد رق حتى ظن درعا مفرغا من فضة فى بردة خضراء
وغدت تحف بها الغصون كأنها هذب تحف بمقلة زرقاء

وقال الرصا فى نهر تحف به شجرة:

فانت عليه مع الظهيرة سرجة
فتراه أزرق فى غلالة سمرة

وقال نور الدين على بن سعيد:

كأنما النهر صفحة كتبت
لما أبانت عن حسن منظرها
وقال بعض المغاربة وأجاد الغاية:

ومنمن الشطين أحكم صقله
فخمائل الدياج منه حمائل
ولقد اختفى طرف له فى دوحة

وقال محيى الدين بن عبد الظاهر - رحمه الله:

ويطحاء فى روض يروك روضها
تلاحظها عين تفيض بأدمع
بها فاض نهر من لجين كأنه
كان حصاها اذ بدا فيه أحمر
والا فبرد بالظلال مسهم
وما لاح فى جنبه نبت وانما
وكم غازلته للغزالة مقلة
وتبصر منه كل حسن فسينبرى
إذا فاخرته الريح ولت عليلة
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا

صدئت لعينها صفيحة مائه
كالراع يستقل بظل لوائه

أسطرها والنسيم ينشئها
مالت عليه الغصون تقرؤها

كالمشرق قد اكتسى بفرنده
متعانق فيها البهار بورده
كالسيف رد ذبابه فى غمده

ولا سيما إن جاد غيث مبكر
يرفرقها منه هنالك محجر
صفائح أضحت بالنجوم تسمر
وأبيض دمع فى حدود ينثر
والا فطراس بالتجعّد بسطر
تبدا عذارا منه فى الخد أخضر
تسارق أوراق الغصون فتتنظر
حياء لديه وجهها وهو أصفر
بأذيال كشبّان الربى تتعشر
به الروض يحيى وهو لا شك جعفر

وقال على بن ظافر: مررت أنا والقاضى الاعز - رحمه الله تعالى - بساقية تتلوى تلوى
الافعوان، وتخفق خفقان قلب الجبان، والزهر قد نظم بلبتها عقودا فوق أثوابها الممسكة
والنسيم يكسوها ويسلبها غلاثل معركة فقلت:

* أساقية أم أرقم فر هاربا *

فقال:

* أم الريح قد هزت من الماء قاضبا *

فقلت:

حصا مثل در الشجر أجرى زلاله رضا بآ وأبدى نبتة النضر شاربا
فقال:

يوشحها زهر الرياض قلاندا ويلبسها مر الرياح جلاتبا
وقال الاديب أبو اسحاق إبراهيم بن خفاجة:

ورائحة رباتها تهابها الصبا تهادى عطف المترف المتخثر
وقد صقلت من صفحة الماء منصلا به من شعاع الشمس رونق جوهر
فمن شبك قد حيك حوك مفاضة ومن سمك قد صيغ صيغة خنجر
وقد نظرت شمس الاصيل إلى الربا بأضعف من طرف المريب وأفتر
ولاح على بلورة من غديره شعاع شراب للعشبة أصفر
وصفرة مسواك الاصيل تروقى على لعس من مسقط الشمس أسمر
إلى أن توارت بالحجاب مريضة ترفع فى ثوب من الليل أخضر
وغازلنى جفن من الافق أنجل يدير من الظلماء مقلة أحور

ونقلت من كتاب نزهة الابصار فى نعت الفواكه والثمار تأليف الشيخ الفاضل الكامل محمد بن القاضى المنشئ البليغ ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم الموصلى ولم أزل من الازهار فى سؤال وجواب وأنا منصت انصات المتعجب لمفاخرات الاعجاب اذ سمعت صوت هاتفة ورقاء على بانه خضراء بلسان فصيح وقلب بفرقة الاحباب جريح وقد أوفت على غصنها الرطيب ومالت وأعلنت بما أسرته من وجد وقالت:

اذكرونا ذكرنا عهدكم رب ذكرى قربت من ترحا
اذكروا صببا إذا اغنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

يا معشر الرياحين التى يزهى حسننها على كل حين لقد جزتم حد الاكثار ولم ينج أحدكم من سقطات العثار هب أنكم نزهة العيون وزينة الافئنان والفنون فهل أنتم الا أعشاش أفراخنا ومواضع أوساخنا واعواد خطبائنا وأرائك امرائنا ومهود أبنائنا وستور نساتنا رءوسكم محط أرجلنا وهاماتكم نعال أرجلنا ونحن المسيحون بحمد ربنا المثنون عليه بالأسن الناطقة والافواه العذبة الرائقة فلما سمعت كلام الحمام هممت بالانصراف من حيث أتيت لاخبر بما سمعت ورأيت إذا أقبلت غمامة تمشى لثقلها مشى الرداح ويكاد يلمسها من قام بالراح وما أظلمت الا أضواء البرق فى جوانبها فتمثلت ليلا فى صباح فلم يزل البرق يأخذ

فى اذهاب ردائها ويبدو نذيرا لدى أصوات ندائها وهل يلقى على الارض ما حملته فى
احشائها ثم قالت يا ذوات البكاء والنوح المفتخرات على الارائك والدوح أستم الباكين
بغير جوى الشاكين ألم الفراق من غير هوى بكم عرف الشقاق واشتهر ذكره فى الآفاق
قلوبكم خاشعة وعيونكم غير دامعة ومنكم عرف اختلاف الباطن والظاهر وقد أعرب عن
ذلك قول الشاعر:

وهاتف فى البان تملى غرامها فتتلو علينا من صبابتها صحفا
ولو صدقت فيما تقول من الاسى لما لبست طوقا ولا خضبت كفا
ونقلت من خط الشيخ شمس الدين محمد بن سمنديار الذهبى لنفسه الكريمة (توفى
قريبا من سنة خمس وثمانين وسبعمائة) وأنشدنى من نظمه:
سماع غناء الطير للدوح مرقص ومن طرب بالزهر منه ينقط

obeikandi.com

الباب السابع عشر

فى آنية الراح

الشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل جوهر لا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل فى اليد ولا يرتفع فى السوم وقدور الزجاج أطيب من قدور الحجارة وهى لا تصدأ ولا تندى ولا يتخللها وسخ الغمر وأوساخ الوضر وإن اتسخت فالماء وحده لها جلا ومتى غسلت بالماء عادت جديدة ومن كرع فيه بشرب فكأنما يكرع فى ائاء وماء وهواء وضياء، وما أحسن رسالة سهل بن هارون يفضل الزجاج على الذهب: الزجاج يحلو نورى والذهب متاع سائر والشراب فى الزجاج خير منه فى كل معدن ولا يفقد معه وجه النديم ولا يثقل اليد ولا يرفع فى السوم واسم الذهب يتطير منه ومن لونه مصيره إلى اللثام وهو فائن قاتل لمن أصابه وهو أيضا من مصائد ابليس ولذلك قالوا أهلك الرجال الاحمران والزجاج لا يحمل الوضر وهو أشبه شىء بالماء وصفته عجيبة... وهى رسالة طويلة.

ومن أحسن ما قيل فى ذمه قول النظام فإنه أخرجه فى كلمتين بأوجز لفظ وأتم معنى فقال سريع إليه الكسر ولا يقبل الجبر.

ذكر الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه وجد المتورد بن ربيعة يوم القادسية ابريق ذهب عليه يا قوت وزبرجد فلم يدر ما هو فلقيه رجل من الفرس فقال أنا أعطيك فيه عشرة آلاف دينار فعرف قيمته فذهب به إلى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه فباعه بمائة ألف دينار.

ووجد للوليد بن يزيد بعد مقتله جفنة بلور كأعظم ما يكون من الجفان قيل إنها تسع ثلاثمائة رطل ولما وقعت الفتنة بين عازم الدولة رقيب بن على وبين حاج خراسان بمدينة رسول الله ﷺ فى سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وعازم الدولة يومئذ أمير الموسم ومقدم القافلة المضرية وكانت الهزيمة على الخراسانيين فنهب أموالهم وأتى بعض النهاية إلى عازم الدولة بزبدية فيروزج تسع وزن رطل شامى كأحسن ما يكون من الزباد لا يعلم لها قيمة ودفعها عازم الدولة بعد ذلك إلى الظاهر.

ومن الاشياء النادرة المستظرفة المتجملات فى الملابس والمجالس ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن بدرون فى شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون فى قصة جبلة بن الايهم الغسانى وهو أن جبلة لطم انسانا من الناس فلما أراد الإمام عمر اقاوته منه فر إلى هرقل وتنصر ثم ندم على تنصره فقال:

تنصرت الاشراف من أجل لطمة	وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفى منها اللجاج ونحوه	فنت لها العين الصحيحة بالعمور
فيا ليت أُمى لم تلدنى وليتنى	رجعت إلى القول الذى قاله عمر
وباليتنى أرمى المخاض بقفرة	وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة	أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

ولما تنصر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية أقطعه هرقل الاموال والضيايع والرباع وبقي ما شاء الله ثم إن عمر رضي الله عنه بعث إلى هرقل رسولا يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجزية فأجاب إلى الجزية فلما أراد الرسول الانصراف قال له هرقل ألقيت ابن عمك هذا الذى عندنا يعنى جبلة الذى أتانا راغبا فى ديننا قال ما لقيته قال القه ثم اثنى أعطك جواب كتابك قال الرسول فذهبت إلى باب جبلة فاذا عليه من القهارة والحجاب والبهجة وكثرة الجموع مثل ما على باب هرقل قال الرسول فلم أزل أتلفظ فى الاذن حتى أذن بالدخول فدخلت عليه فرأيت أنه أصهب اللحية ذا سبال وكان عهدى به اسود اللحية فأنكرت عليه فإذا هو قد دعى بسحالة الذهب فذرها على لحيته حتى عادت سوداء وهو قاعد على سرير من قوارير قوائمه أربعة أسود من ذهب فلما عرفنى رفعنى معه على السرير فجعل يسألنى عن المسلمين فذكرت له خيرا قلت قد أضعفوا اضعافا على ما تعرف قال وكيف تركت عمر بن الخطاب قلت بخير حال فرأيت الغم فى وجهه لما ذكرت له من سلامة عمر ثم انحدرت عن السرير فقال لم تأب الكرامة التى أكرمناك بها قلت إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا قال نعم ﷺ ولكن تق قلبك من الدنس ولا تبال على ما قعدت فلما سمعته يقول ﷺ طمعت فيه فقلت له ويحك يا جبلة ألا تسلم وقد عرفت الاسلام وفضله قال أبعد ما كان منى قلت نعم قد فعل رجل من بنى فزارة أكثر مما فعلت ارتد عن الإسلام فضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع إلى الإسلام فقبل ذلك منه وخلفته بالمدينة مسلما قال ذرنى من هذا إن كنت تضمن لى أن يزوجنى عمر ابنته ويولينى الامر بعده رجعت الاسلام

قال فضمنت له التزويج ولم أضمن له الأمر قال ثم أومى إلى خادم كان على رأسه فذهب مسرعا فإذا خادم قد جاء ومعه خدم يحملون الصناديق فيها الطعام فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة وقال لى كل فقبضت يدى وقلت إن رسول الله ﷺ نهى عن الأكل فى أوانى الذهب والفضة فقال نعم ﷺ ولكن نق قلبك وكل فيما أحببت، قال ذاك فى الذهب وأكلت فى الخلنج ثم جىء بطساس الذهب وأباريق الفضة فغسل يده فى الذهب وغسلت فى الصفر ثم أومى إلى خادم بين يديه فمر مسرعا فسمعت حسا فإذا خدم معهم كراسى مرصعة بالجواهر فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن شماله ثم جاءت الجوارى عليهن تيجان الذهب فقعدن عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسى ثم جاءت جارية كأنها الشمس حسناء على رأسها تاج على ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه وفى يدها اليمنى جامه فيها مسك فنتت وجامه فى يدها اليسرى فيها ماء ورد فأومت تلك الجارية أو صفرت للطائر الذى على تاجها فطار حتى وقع فى جامه ماء الورد فاضطرب فيه ثم أومات إليه أو صفرت فوق على جامه المسك فتمرغ فيه ثم أومات اليه فطار حتى نزل على تاج رأس جبلة فلم يزل يرفرف حتى نفض ما عليه فى رأسه فضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه ثم التفت إلى الجوارى اللاتي عن يمينه فقال أضحكنا فاندفعن يغنين يخفق عيدانهن:

لله در عصابة نادمتهم	يوما بحلق فى الزمان الأول
يسقون من ماء البريص نديمهم	راحا يصفق بالرحيق المسلسل
أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل

قال فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال أتدرى من يقول هذا قلت لا قال حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ ثم أشار إلى الجوارى اللاتي عن يساره فقال لهن أبكيننا فاندفعن يغنين يخفقن عيدانهن ويقلن:

لمن الدار أقفرت بعمان	بين أهل اليرموك فالجمان
ذاك مغنى لآل جفنة فى الدهر	مجللى لحادث الازمان

قال فبكى حتى سالت دموعه على لحيته فقال أتدرى من يقول هذا قلت لا قال حسان ثم أنشد الأبيات التى أولها تنصرت الاشراف ثم سألتنى عن حسان أحيى هو قلت نعم فأمر له بكسوة ولى أيضاً كذلك وأمر بمال لحسان ونوق موقرة ثم قال لى إن وجدته حيا فادفع

الهدية إليه وأقرته عنى السلام وإن وجدته ميتا فادفعها إلى أهله وانحر النوق على قبره فلما أخبرت عمر بخبره وما اشترط على وما ضمنت له قال فهلا ضمنت له الامر فإذا أفاء الله به قضى الله علينا بحكمه ثم جهزنى عمر إلى هرقل ثانيا وأمرنى أن أضمن له ما اشترط فلما دخلت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته قلت إن الشقاء سبق عليه فى أم الكتاب.

وذكر الحكيم موفق الدين بن أبى أصيبعة فى ترجمة الحكيم سديد الدين بن ربيعة قال ومن شعره وهو مما كتبه على كأس فى وسطه طائر على قبة مجوفة إذا قلب الماء فى الكأس دار الطائر دورانا سريعا وصفر صفيرا ومن وقف بازائه الطائر حكم عليه بالشرب فإذا شربه وترك فيه شيئا من الشراب صفر الطائر وكذلك لو شربه فى مائة مرة فمتى شرب جميع ما فيه ولم يبق فيه درهم فإن صفيره يتقطع والابيات هى هذه:

أنا طائر فى هيئة الزر زورى	مستحسن التكوين والتصوير
فاشرب على نغمى سلاف مدامة	صرفا تنير حنادس الديجور
صفراء تلمع فى الكثوس كأنها	نار الكليم بدت بأعلى الطور
وإذا تخلف فى شرابك درهم	فى الكاس نم به عليك صفيرى

قلت: كتبت هذه الابيات لغرابة هذا الكأس وأما الشعر فإنه ليس بطائل.

قال الثعالبى فى تحفة الارواح وموائد السرور والافراح إنه كان فى الزمن القديم امرأة فى العراق تعتمد إلى الصينى الابيض فتصير منه الشمشى والاسود والسماقى والأخضر حتى لا يشك ناظر فى أنه كان كذلك فى الاصل وما علم أحد من الرجال سواها فى ذلك وأهل الخبرة بهذا النوع إذا وقع فى أيديهم شئ من عمل هذه المرأة عرفوه (القول فى الكأس المصور) قال أبو نواس:

ودار ندامى عطلوها وأدلاجوا	بها أثر منهم جديد ودارس
مساحب من خز الرقاق على الثرى	واضغاث ريحان جنى ويابس
تدار علينا الراح فى عسجدية	حبنتها بأنواع التصاوير فارس
فنال بها كسرى وفى جنباتها	مها قد رمتها بالقسى الفوارس
فللراح ما زرت عليها جيوبها	وللماء ما دارت عليه القلائس

قال الجاحظ وجدنا المعانى تقلب ويؤخذ بعضها من بعض الا هذا المعنى فإن

قلت: وضمن هذه الأبيات الأديب أبو الحسين الجزار تضمنا حسنا أجاد فيه إلى الغاية

وهو:

كتبت بها فى يوم لهو وهامتى
وعندى صحاب للمجون ترحلت
فللماء ما زرت عليه جيوبهم
مساحب من خز الرقاق على القفا

وقال أيضاً:

بنينا على كسرى سماء مدامة
فلو رد فى كسرى ابن ساسان روحه

أخذه الباشى فقال:

فى كأسها صور تظن لحسنها
ولذا المزاج اثارها فتقسمت
فكأنهن لبسن ذاك محاسدا

وقال ابن المعتز:

وساق يجعل المنديل منه
غلالة خده صبغت بورد
بدا والصبح تحت الليل باد
بكأس من زجاج فيه أسد

وقال ابن قلاقس (ومولده سنة اثنتين وخمسائة، ووفاته سنة سبع وستين وخمسائة):

دارت زجاجتها وفى جنباتها
فخلعت عن عطفه حلة قهوة

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى - رحمه الله تعالى:

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها
وقفت لشوقى من وراء زجاجة

وقال المرحوم فخر الدين بن مكاس - رحمه الله تعالى:

إذا ما أديرت فى حشا عسجدية
فحسبك نيلا فى السيادة أن ترى

بها كل ذى ملك وتاج تصورا
نديمك فى الكاسات كسرى

قلت: والسبب الموجب لتصويرها ما ذكره الفقيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن بدرون فى شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون وهو أن سابور بن هرمز الملقب بذى الاكتاف لما رجع من قتال بنى تميم قصد الروم والدخول إلى القسطنطينية متنكرا فاستشار قومه فحذروه التفرير بنفسه فلم يقبل قولهم وسار متنكرا إلى القسطنطينية فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام فدخل فى جملةهم وجلس على بعض موائدهم وقد كان قيصر أمر منصورا أتى عسكر سابور فصوره فلما جاء قيصر بالصور أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة وأتى بعض من كان على المائدة التى عليها سابور بكأس فنظر بعض الخدام إلى الصورة التى على الكأس وسابور مقابل لها على المائدة فعجب من اتفاق الصورتين وتقارب الشبهين فقام إلى الملك فأخبره فمثل بين يديه فسأله عن خبره فقال أنا من أساورة سابور وهربت منه لأمر خفته فيه فلم يقبلوا ذلك منه وقدم إلى السيف فأقر بنفسه وجعل فى جلد بقرة وتمايم حكايته إلى أن خلص وعاد إلى ملكه فى كتاب سلوان المطاع فى السلوانة الثانية منه وهى حكاية غريبة مشتملة على أنواع من الحكم.

وقال صلاح الدين الصفدى - رحمه الله:

كئوس المدام تحث الصفا فكن لتصاويرها مبطلا
ودعها سواذج من نقشها فاحسن ما ذهب بالطلا

وقال زين بن الوردى - رحمه الله تعالى:

دع الكاس من من نقشها وصاف بصاف أحب
إذا ذهب بالطلا فقد طليت بالذهب

وقال شمس الدين بن العفيف فيما يكتب على كأس:

أدور لتقبيل الثايبا ولم أزل أجود بنفسى للندامى وأنفاسى
وأكسو أكف الشرب ثوبا مذهبا فمن أجل هذا لقبونى بالكاسى

الشيء بالشيء يذكر قال شهاب الدين بن أبى جحلة مضمنا:

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتى وحظيت بعد الهجر بالائتناس
وكسى العذار الخد حسنا فاسقتنى واجعل حديثك كله فى الكأس

وقال إبراهيم بن الحاج الغرناطى (ومولده سنة خمس عشرة وسبعمائة - رحمه الله

تعالى):

يا رب كاس لم يشح شمولها فاعجب لها جسما بغير مزاجى
لما رأينا السحر من أشكالها جملا نسبناه إلى الزجاجى

وقال الاديب أبو بكر بن مجير وقد اقترح عليه حسود وصف كأس أسود فقال ارتجالا:

سأشكو إلى الندمان أمر زجاجة تردت بلون حالك اللون أسجج
تصب بها شمس المدامة بيننا فتغرب فى جنح من الليل مظلم
وتجحد أنوار الحميا بلونها كقلب حسود جاحد يد منعم

القول فى القدح قال القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى وصفه: تكون من جوهر مكنون وتجسد من هواء مظنون واتخذ خدر الآنية العنب وطاف به الساقى فاصبح منه فى راحة وهو فى تعب فهقه عليه الابريق فصدح وطار منه شرار المدام فقيل قدح وكتب سيدنا ومولانا بدر الدين محمد بن أبى المخزومى المالكى الشهير بابن الدمامينى - فسح الله فى أجله إلى سيدى الجناب المجدى فضل الله بن مكائس آدم الله عزه - وذلك فى ربيع الأول سنة خمس وتسعين وسبعمائة وقد تجاسر العبد وتوقا بمكارم الأخلاق المخدومية فأهدى هذا اللغز لينعم مولانا بقبوله ويتفضل بحله عند حلوله فقال ما اسم حبيب إلى النفوس شبيه بالبدر حليف للشموس إن قلب كان لقلبه من العين مكان من المناسبة وإن سقط قلبه مع هذا الفعل كان ضد الاقوال الكاذبة وإن صحف بعد العكس أنبأ عن الذكاء وهذا غاية الشرح وإن غير ثانيا علم ورب الكلام المحرر أنه دال على الطرح حسبه مع التصحيف آلة للصيد معينة على المكر والكيد إن قلع طرفه كان مزج باقيه قواما وإن عكس كان الطرب بتصحيفه مدا ما وإن زال أوله كان العكس عتابا لمتعاطى اثمه وإن صحف اشتاقت الشفاة إلى تقبيله ولثمه وربما كان الهزل عن تصحيفه الآخر منافيا لاسمه مباينا فى الحقيقة لحده ورسمه والمملوك يسأل الصفح عن هذا الهذيان والامتنان بالجواب مع شىء من نظم المقر الصاحبى للوالدى وشىء من نشره ليحلى المملوك بعقوده جيد تذكركه ويتأنس بحسنه الغريب فى زمن غربته فكل غريب للغريب نسيب ومدح مولانا أجل من أن يحيطه قلم العبد أو لسانه أو يحصره بيان الاديب أو بنانه ونسأل الله تعالى أن يتمتع ببقائه ويعلى درجات ارتقائه بمته وكرمه فكتب الجواب يقبل الارض التى أطالت بالجفا حرمانه وتدار كته بعد اجراء دموعه فعظمت فى الحاليتين منها شأنه وانتهى إلى اللغز الذى يتمتع بمحله ويشرب بقدحه فابتهل شكرا ومالت أعطافه بالقدح الفارغ سكرا فوجده كما قال حبيب إلى النفوس

يجتهد فى التوصل بماء حاره إلى الرءوس يأتيك بالمعنى اللطيف ويقف حدقك من
تصحيفه بعد العكس بين تصحيف وتحريف فحلله من ساعته وقابل شمس المنيرة بذبالته
وكتب قرينه لغزا وخالف نفسه إذ قالت لا تتعبنى فى مجارة هذا الجواد لذا وقد ذكرته أولا
فى باب الرياحين وقال القاضى التنوخى - رحمه الله تعالى:

وراح من الشمس مخلوقة هواء ولكنه جامد
بدأ لك فى قدح من نهارى وإذا تأملت لها وهى فيه
وماء ولكنه غير جارى فهذا النهاية فى الايضاض
وتأملت نورا محيطا بنارى كأن المديرة لها باليمين
وهذا النهاية فى الاحمرار تدرع ثوبا من الياسمين
إذا قام للسقى أو باليسار وقال النضير الحمamy - رحمه الله تعالى:

أصبحت من أغنى الورى مستبشرا بالقدح
عندى خمرة ذهب أكتاله بالقدح

وأنشدنى سيدى وأخى تقى الدين أبو بكر حجة الحموى لنفسه مضمنا - رحمه الله:
أرى طير أقداحنا نائحا يحوم على عذب ورد القدح
فقلت لدر الحباب اجتهد ومد الشباك وصد من سبح
وقال ابن تميم:

يا حسنه قدح يضىء زجاجه ليل الهموم إذا ادلهم وعسعا
أهديته مثل النهار فإن حوى صرف المدام غدا نهارا أشمسا
الابريق قال ابن المعتز:

وكان ابريق المدامة بيننا ظي على شرف أناب مدلها
لما استحش السقا حتى لها فبكى على قدح النديم فقهقها
وقال إبراهيم بن اسحاق الموصلى - رحمه الله عليه:

كان أباريق المدام لديهم ظباء بأعلى الرقمتين قيام
وقد شربوا حتى كان رقابهم من اللين لم تخلق لهن عظام
صاعد اللغوى:

كان ابريقنا والراح فى فمه طير تناول ياقوتنا بمنقار

السرى الرفاء الموصلى - رحمة الله عليه:

أبريقنا عاكف على قدح نخساله الأم ترضع الولدا
أو عابدا من بنى المجوس إذا توهم الكاس سرعة له سجدا

السراج المحار (توفى سنة إحدى عشر وسبعمائة - رحمة الله عليه):

يا حبذا شكل أبريق تميل له منا القلوب وتصبو نحوه الحدق
يروق لى حين أجلوه ويعجبني منه طلاوة ذاك الجسم والعنق
كم قد شربت به ماء الحياة ولن ينالنى منه لا غص ولا شرق
حتى غدا خجلا مما أقبله فظل يرشح من أعطافه العرق

الراووق الجويان القواس - رحمه الله تعالى:

ولما حكى الرواق فى العين شكله وقد علق العنقود فى سالف الدهر
تذكر عهدا بالكروم فكله عيون على أيام عهد الصبى تجرى

وقال بدر الدين حسن المعزى - رحمه الله:

أعجب ما فى مجلس اللهو جرى من أدمع الرواق لما انسكبت
لم تزل البطة فى قهقهة ما بيننا تضحك حتى انقلبت

وقال برهان الدين القيراطى - رحمه الله:

باكرت راووقى وبطنى التى قد قهقهت ودم المدامة يسفك
وأضعت مالى فيهما حتى غدا هذا يصغى لى وهذا يضحك

وقال صدر الدين بن عبد الحق (توفى تقريبا سنة سبعين وسبعمائة):

أسبل الراووق لما صلبا أدمعا لكن رأينا عجبنا
بينما الراووق يبكى بدم ضحك الأبريق حتى انقلبا

وقال سيدى المقر المجدى سلمه الله تعالى وأجاد:

قم واصلب الراووق واشف قلبى منه وبلغنى بذاك سؤلى
واسفك دم الزق وناد هذا جزاء من يلعب بالعقول

وقال محمد بن العفيف فى باطية وأجاد:

إنا المجالس والجلس أنيسه أزهى بحسن ناضر للناضر
اصفو فاطهر ما أجن ولم يكن فى باطنى شيء يخالف ظاهرى

وما أطف من قال عجلوا:

عجلوا بشرب البواطي فالصواب الصواب نيك الخواطي

كان لابي الحارث خمسون دنا كان يقول إنه لم يفسد فيه نبذ قط منذ عشرين سنة
فأوصى به عند موته للفضل الرقاشي وقال هذا جزاء له فإنه كان كلما اجتمعنا على أمر قال
قم فابدأ به (الامير صلاح الدين الاربلي) فيما يكتب على طبق تحت أقداح (توفي المذكور
سنة سبع وثلاثين وستمائة، ومولده سنة اثنين وسبعين وخمسمائة) رحمة الله عليه:

من فرحتي بالندامي واجتماعهم حولى وقربهم منى وايناسى
جعلت صفحة خدى تحت أخمص ما قد غادرته الندامى أسفل الكاسى

الباب الثامن عشر فيما يستجلب بها الأفراح

وهو خمسة فصول:

الفصل الأول: في من مدحها من الملوك والرؤساء.

الفصل الثاني: في تدبير استعمالها على رأى الحكماء.

الفصل الثالث: في آداب متشيها وما يجب على مستعملها.

الفصل الرابع: في استهدائها واستدعاء الإخوان.

الفصل الخامس: في من وصفها من الشعراء الأعيان.

الفصل الأول

قال كسرى النبيذ صابون الهم:

قلت من هنا قول الشيخ بدر الدين البشتكى:

وكننت إذا الحوادث دنستنى قرعت إلى المدامة والنديمى

لا غسل بالكتوس الهم عنى لأن الخمر صابون الهمومى

وقال أرسطاطاليس الراح كيمياء الفرح، وقال جالنيوس الراح صديق الروح، وقال آخر الراح درياق سم الهم، قال عبد الملك بن صالح الهاشمى ما حمشت الدنيا بأظرف من النبيذ وقال الثعالبي لكل شئ سر وسر النبيذ السرور، وقال الدنيا معشوقة ريقها الراح، وقال الجاحظ إن النبيذ إذا تمشى فى عظامك ودب فى أجرامك منحك صدق الحسن وفراغ النفس وجعلك رجبى البال خلى الدرع قرير العين منشرح الصدر حسن الظن وسد عليك باب الغم وحسم عنك خاطر الهم، وقيل لأبى حميد الفضل بن وكيل ما تقول فى النبيذ المصفى المروق المعسل المعتق فجعل يتمنطق ويقول أخاف الا اشتغل بشكر الله تعالى الكريم على نعمه فيه وكان مطيع بن اياس يقول فى النبيذ معنى فى الجنة موجود لان الله - عز وجل - يقول إخبارا عن أهلها: ﴿الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن﴾^(١) والنبيذ

(١) الآية: ٣٤ من سورة فاطر.

يذهب الحزن، وقيل لأبى عائشة إن فلانا لا يشرب النبيذ فقال قد طلق الدنيا ثلاثا، وقيل للأعمش مثل ذلك فقال دعوه حتى يقتله القولنج.

وقال: يزيد بن المهلب وددت لو أن كاساً بألف دينار وكل منكح فى جبهة أسد فلا يشرب الا جواد ولا ينكح الا شجاع.

وقال: عبد الملك للاختل صف لى الخمر فقال أولها صداع وآخرها خمار قال فما يعجبك منهما قال: إن بينهما طربة لا يعاد لها ملكك وأنشأ يقول:

إذا ما نديمى على ثم على ثلاث زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل حتى كأنى عليك أمير المؤمنين أمير

وقال ابقرط الخمرة صديقة الجسم والتفاحة صديقة النفس.

نادوة: اجتمع محدث ونصرانى فى سفينة فصب النصرانى من ركوة كانت معه فى مشربة وشرب وصب فيها وعرض على المحدث فتناولها من غير فكر ولا مبالاة فقال النصرانى جعلت فداك إنما هو خمر فقال من أين علمت أنها خمر قال اشتراها غلامى من يهودى وحلف أنها خمر فشربها بالمعجلة وقال للنصرانى أنت أحق نحن أصحاب الحديث انصديق نصرانيا عن غلامه عن يهودى والله ما شربتها الا لضعف الاسناد.

وقال الجاحظ كل شئ من المأكول يكون أوله أطيب من آخره الا النبيذ فإن القدح الأول ثقيل والثانى أسهل والثالث أسلس والرابع أسوغ والخامس أعذب والسادس الذ حتى ينتهى إلى غاية السرور.

حكى أن عبد الملك بن مروان امتحن اعرابيا من الشعراء فقال صف لى الخمر فاطرق الأعرابى وقال:

شموس إذا شجعت لدى الماء مرة لها فى عظام الشاربين دبيب
ترك الغداء من دنها وهى دونه لوجه أخيه فى الوجوه قطوب

فقال عبد الملك شربتها يا أخا العرب ووجب عليك الحد فقال ومن أين لك ذلك يا أمير المؤمنين فقال لأنك وصفتها بصفتها فقال وإنى قد رابى من أمير المؤمنين ما رابه بأن يكون أيضا شربها إذ عرف أنى وصفتها بصفتها فضحك منه وأحسن جائزته.

نادوة: جلد مدنى فى الشراب وكان طويلا والجلاد قصيرا فقال له تقاصر لينالك السوط فقال ويلك إلى أكل الفالوذج تدعونى والله لوددت أنى أطول من عوج وأنك أقصر من ياجوج وماجوج.

كتب رجل إلى ابن قريعة القاضي فتيا (توفى المذكور سنة سبع وستين وثلاثمائة ببغداد) ما يقول القاضي - أيده الله - في رجل سمى ولده مداما وكناه أبو الندامي وسمى ابنته الزاح وكناهها أم الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه أبو الاطراب وسمى وليدته القهوة وكناهها أم النشوة أينهى عن بطالته أم يؤدب على خلاعته؟ فكتب تحت سؤاله لو بيعت هذا لأبى حنيفة لأقعه خليفة ولعقد له راية، وقاتل من تحتها من خالف رأيه ولو علمنا مكانه لمسحنا أركانه فإن أتبع هذه الاسماء افعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا أنه قد أحى دولة المجون وأقام لواء ابنة الزرجون فبايعناه وشايعناه وإن تكن اسماء سماها ما له بها من سلطان خلعنا وفرقنا جماعته فنحن إلى إمام فعال أحوج منا إلى إمام قوال انظر أيديك الله إلى معاني هذا النثر الذي يعجز عنه البديع والمجون الذي لا يلحقه الخليع.

وقالت دنائير جارية البرامكة من أصبح وعنده قنينة ناقصة وزبديّة طباهجة باردة وتفاحة معضوضة ولم يصطبيح فهو أحرق فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج.

الفصل الثاني

في تدبير استعمالها على رأى الحكماء

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسين على بن أبى الحزم القرشى المتطبب المعروف بابن النفيس - تغمده الله برحمته - فى الجملة الثانية فى قواعد الحبر العلمى من الطب فى كتابه المشهور المعروف بالموجز عندما ذكر تدبير المشروب ما هذا نصه:

وخير الشراب ما طاب طعمه وعطرت رائحته وصفى لونه واعتدل قوامه والعلامة الجيدة للشراب الجيد الخالى من الغش أنه إذا ترك المقدار القليل مدة طويلة لم يفسد ويقدر طول المدة تعرف الجودة والرقيق اللطيف أسرع اسكارا وتحللا والغليظ أبطأ اسكارا وتحللا وأدوم خمارا لكنه يسمن وخصوصا الحلو وليكن من تسديده على حذر ويختار للشباب والمحوررين الأبيض الممزوج قبل شربه بمدة بكثير الماء وللمشايع الأصفر القوى القليل المزج فإن ارادوا الاغتذاء والسمن فالأحمر ودع الشيخ وما احتمله وجنبه الصبيان وعدله فى الشبان وإنما يستعمل الشراب عند انحذار الغذاء من المعدة وأما فى خلل الأكل أو عقيب فضار لتتفيذه الغذاء على فجاجته على أن المعتاد به لا يتفع باستعمال ما يعين على الهضم الا بمقدار ما يقوى على التنفيذ وما دام السرور يتزايد واللون

يحسن والبشرة تلين والجلد يربو والحركة نشيطة والذهن سليما فلا تخف من افراط فإن أخذ النعاس يغلب والغشيان يقوى والبدن والدماغ يثقل والذهن يتشوش والحركة تسترخى فقد وجب الترك فحيثئذ يجب القىء والقيء على قليل منه ردىء لأنه يغصب من البدن ما ينفعه والشراب بالاقداح الصغار خير من الكبار والتعبيد بين الاقداح لينهضم الأول قبل ورود الثانى أفضل وينبغى أن يحف مجلس الشراب بالمنظر اللذيذ من الأزهار والمحبوبين من الناس والاراييح اللذيذة والسماع المطرب ورفع كل ما يغم ويقبض النفس كالوسخ والصنان واللباس القذر والكمد وبعد غسل البدن والاطراف ولبس المشرف وتسريح الرأس واللحية وتقليم الاظفار وليكن المجلس مشرفا فسيحا بقرب المياه الجارية ومع الظرفاء من الاصدقاء وذلك لأن الشراب يحرك قوى النفس ويشير كل الشهوات فإذا لم تجد كل قوة مطلوبها تأذت وانقبضت فلا تقبل النفس على الشراب كل القبول ولا تنصرف فيه التصرف الواجب فيقل نفعه وربما فسد فكان شره أكثر من نفعه.

ومنافع الشراب منها نفسية ومنها بدنية.

أما النفسية فلا يمكن أن يساويه فيها غيره وذلك كالسرور وبسط النفس وتفسيح أمليها وتشجيعها وإزالة البخل والغم والفكر الفاسد وهو أنفع الاشياء للماليخوليا لتفريجه المضاد لا يحاش السوداء وتحسن الظن وتقوى ذهن قوى الدماغ لأن دماغه لا ينفع عن ابخرة الشراب المسكر بل عن حده اللطيف فيصفو ذهنه صفاء لا يصفو مثله بغيره فلذلك قوى الدماغ لا يسكر بسرعة وبسرعة السكر وبطئه تعلم قوة الدماغ وضعفه.

وأما البدنية فإنها وإن أمكن أن تستفاد بغيره من المعاجين والمركبات فذلك يعسر وذلك كتتحسين اللون وانارته وتبريقه واشراقه وتقوية الحرارة الغريزة وانهاشها وانضاج الرطوبات وإذلاقها وتفتيح المجارى وإزالة سددها وتفتيح المسام وتقوية الهضم وتكبير الروح وتلطيفها وانارتها واثارة الدم وتنقيته وانضاج البلغم وتلطيفه وادرار الصفراء وترطيبها وتعديل مزاج السوداء وقمع عادتها وإخراجها ونفعه يتعلق بالقوى الطبيعية والحيوانية أكثر من القوى النفسانية وإدامته تبرد الدهن وترخى العصب وتورث الرعشة والتشنج وكثيرا ما يموت السكران بالسكتة والصرف محرق للدم مفسد لمزاج الدماغ والكبد والمسطار يخاف منه ذو سنطار بالنفحة واسهاله والسكر المتواتر يوهن قوى الدماغ والعصب ولا بأس به فى الشهر مرتين لراحة قوى الدماغ والفصل والبلد الباردان

يحتملان كثرة الشراب وقوته وما أمكن ترك التنقل فهو أولى لكن المحرور قد ينتفع بالتنقل بمثل السفرجل والرمان المز والتفاح والكمثرى والزعرور وأقراص الليمون وحمض الاترج شرابه بل يحتاج إلى التنقل بأقراص الكافور كما يفعل بالمدقوقين والمبرودين بحوارش التفاح والخلنجيين والتمر والفسق والمرطوب بالقرعامة وزيتون الماء والفسق واللوز المملوحين والاشياء التي تبطئ بالسكر التنقل باللوز وخصوصا المز خمسون لوزة يستعمل قبل الشرب فيمنع السكر وكذلك التنقل بيزر القنيط المملح وأكل القنبطية والكربنية قبل الشراب وكذلك استعمال المدرات والثرايد الدهنية وإن أبطأت بالسكر لكنها تمنع كثرة الشرب والمسكرات بسرعة كالتنقل بجوز الطيب ونقعه في الشراب وكذلك العود والبشليم وورق العنب والزعفران وكل هذه تسكر مفردة وأما البنج واللقاح والشوكران والافيون فمفرط وإنما يستعمل لمن يريد أن يعالجه بما لا يحتمله في الصحو ومما يذهب رائحة الشراب الكزبرة اليابسة والرأس ودار صيني العين وأفضل ما يمزج به الشراب الماء وقد يمزج بماء لسان الثور ليزداد تفريجه وهو بذلك يسر سرورا عظيما وقد يمزج بماء الورد فيقوى المعدة والقلب أكثر وقد يمزج بأوراق الفرايج واللحم لمن غشى عليه أو ضعف وضيعف عليه أن لا تطول المدة إلى حيث تصل المرقمة مفردة والله أعلم. انتهى كلام ابن النفيس الحكيم الفاضل المؤيد محمد بن المحلى الشهير بالعترى في كتابه النور المجتني من رياض الندماء.

واعلم أن الاكثار من الخمرة يحدث الامراض الباردة الرطبة كالسكته والفالج واللقوة والخدر والرعدة والاسترخاء والسبات هذا لمن مزاجه مستعد للبرد فأما أصحاب المزاج الحار فإنها تولد الحميات الحارة ولا سيما إن وافقها غذاء حار وفصل حار ومزاج صرف والغرض من الخمرة أن يأخذ منها اليسير بعد الطعام بثلاث ساعات ولا بأس باستعمال النشوة والسكر في الشهر مرتين نافع وكذلك القيء كرتين في الشهر ويجب ألا يؤخذ الغذاء الا وقت الشهوة وبعد الرياضة ومن أراد الاستكثار من الشراب فلا يستكثر من الطعام ومن أراد أن يطول جلوسه على الشراب فلا يستكثر من الرياضة والحمام ولا يمتلئ من الطعام وإذا كان الغذاء ظهرا كان الشراب عصرا ويبدأ بالاقذاح الصغار أولا.

وأما أوقات الاجتماع عليها فيكون ذلك والقمر في برج الزهرة أو عطارد متصلا بهما اتصالا مقبولا ويحذر ثبوت المشتري ونظره إلى القمر والعامل إذا انقطع إلى الخمرة في

يوم مذموم كفى شر ذلك اليوم باشتغاله بها إلا أنه يجب أن يكون خلوه مع نديم مأمون الجانب عاقلا يكفى شر ذلك اليوم إن شاء الله تعالى ومنه صفة تفاحة تسكر سريعا إذا شمت يؤخذ زعفران ومبيعه وحمّام ولقاح وقشور أصل البروح ينعم سحقه ويعجن بشراب صرف عتيق ويتخذ منه تفاحة منقشة وتشم والحرمل مفردا ومع الشراب يسكر الشارب سكرا مفردا ومن شرب خمس سعدات أو عشرة مسحوقة لم يسكر يومه ويجب ألا يفعل ذلك الا صاحب المزاج البارد وأما المحرور فيجعل غذاءه إذا أراد ألا يسكر بالخل والسماق والحصرم وماء الليمون بلحوم الدجاج والجداء والخرفان ويمتص ماء الرمان المز واكل السمك الطرى بالخل والتنقل باللوز الحلو لا سيما إن وافق ذلك سماع مطرب أو نديم يعجب وينشد:

الخمير طيبة وليس تمامها الا بطيب خلّاتق الجلاس

ما يقطع رائحة الشراب من الفم:

فمن ذلك سعد وكبابة ودار صينى بالسوية يدق ويستف منه مثقال لا سيما بعد القيء المستقصى وسف الكزبرة والنعناع ومضغ العود الرطب وكذلك السعد وأكل البصل يخفى رائحة الشراب والفوتنج النهري اذا مضغ قطع رائحته. انتهى كلام العبرى.

وقال التيفاشى فى كتابه سرور النفس بمدارك الحواس الخمس وهو عدة مجلدات اننى لما رأيت لهج الخلفاء والملوك وشغف جمهور الأمم من العرب والعجم بشراب شراب العنب واختلاف مذاهبهم فى استعماله مع الاتفاق على الميل إليه على تباين بخلهم ومللهم وقد ذكر عن الاحنف بن قيس أن رجلا قال له يا أبا بحر ما ألد الأشربة فقال له الخمر فقال كيف علمت ولم تذقها قال لأننى رأيت من أحلت له لا يصبر عنها ورأيت من حرمت عليه يخطئ البهائم ووجدت جل من يستعمل هذا المشروب لا يفى له خيره بشره ولا يقوم نفعه بضره وذلك لجهله بوجه استعماله فإن من المعلوم إن الخمر إنما المقصود من شربها منفعتان احدهما للنفس بالتفريح ونفى الهموم واخرهما للبدن بحفظ صحته عليه ونفى الامراض النازلة به وتحقق عند كل من له أدنى مسكة من عقل أنها إذا استعملت على غير ما ينبغى انعكست هاتان المنفعتان مضرتين فصار عوض السرور هما وغما وضجرا وسوء خلق وعوض الصحة مرضا مزمن أو موتا فجأة حسبما نشرحه إلا أنه لا يقتصر الأمر على عكس هاتين المنفعتين فقط بل يتعدى إلى مضار أخرى عظيمة إن

سلمت المهجة كذهاب العقل والمال والجاه والذكر الجميل بل لا يقف الأمر على ذلك بل يتعدى الضرر إلى الاعقاب فإن الحكماء أجمعوا قاطبة على أن مدمن الخمر لا ينبغي وإن أنجب كان الولد أحق. انتهى كلام التيفاشي.

ونقلت من مجموع بخط بعض الافاضل قد ذكر الحكماء والأطباء والعلماء والشعراء والفضلاء والبلغاء من مضار الخمر ومنافعها وبهجة عواربها وطوالعها فمن ذلك قولهم الخمر يستخن الجسم ويجود الهضم ويرطب الاعضاء ويسكن القيء والعطش إذا مزجت وتدر البول وتسهل الطبيعة وتسرع النفس وتحدث النشاط والطرب والارحة لا سيما في الابدان المعتدلة هذا في أخذ القصد فإذا أكثر منها أحدث ذلك السهر وورم الكبد وقلة شهوة الجماع والغذاء والنسيان والبخر والرعشة والدمع وضمف البصر والحميات واختلاط العقل والتبلد والسكته والصرع وموت الفجأة لأن الخمر تملأ الدماغ فتغمر الحرارة كما يغمر الدهن نار السراج فيطفأ. انتهى.

الفصل الثالث

في آداب متشيها وما يجب على مستعملها

ينبغي للمعاشر والنديم المجالس للملوك والرؤساء أن يكون نظيف الكف نقي الظفر متعاهد التقليمة والتخليل بين أصابعه وغسل يده ومعصمه في أوقات وضوئه ومطعمه طيب المعاني عطر البشرة نظيف الوجه والشارب والانف نقي الجبين مستعملا للسنوات وأخذ السعد بالغدوات وتسريح اللحية وتنظيف الثياب وعمامته خاصة لأن العين كثيرا ما تقع عليها متعطر بالبخور والغالية والدرابر على الشعر والثياب وليجلس في مرتبه بحسن أدب وسكون جاشر بغير اتكاء ولا مد رجل ولا عبث بشوب ولا بلحية ولينهض بنهوض الملك ويجلس حيث يشير إليه ويدنو إذا استدناه ويجيبه إذا سألته ولا ينهض عن المائدة أولا ولا يمد يده مبتدئا ولا يلق أصابعه ويعبدها في الطعام ولا يغمس أنامله ولا يسرع المضغ ولا يكثر الضحك والكلام ولا يعض اللحم بأسنانه ولا يرد ما عض في الصحيفة ولا يتناول ما بين يدي غيره ولا يكثر اللقم ولا يفتت الخبز ولا يخلخل الملح ولا يلتقط الدسم بالخبز ولا يكثر من اغتراف الجيوب والامراق خوفا من أن يسيل على الثياب وينسب إلى الشره وسبوء الادب ولا يفسخ الدجاج بيده بعنف خوفا من الاندلاق وهو أن يكون تحت

جلد الدجاجة أو فى أوراكها دسم فيطير على ثياب من بازائه بل يقطع بالسكين على تواضع ولا يحصر الزيتون بشدة فربما طارت نواتها فأصابته وجهه جليسه ولا يحمل بيده الحلوى بكثرة ولا يدخل إلى فيه الطعام الحار ثم يخرج منه فيه ولا ينفخ فيه وفى المرقعة ليبرد ولا يكثر شرب النماء ولا يتجشأ ظاهرا ولا يمشمش العظام ولا ينفض المخاخ ولا يعض الفواكه إن حضرت قبل الطعام ولا يمد يده إلى قطعة لحم مشهورة ولا بيضة منضورة ولا سنوسجة مشتهاة ولا ما تقع الشهوة عليه ولا ما تسارع النفس إليه ويجب أن يتجنب الخمرة فى مجالس الملوك ومن يخاف على عرضه.

حكى أن المتنبى كان يأبى شرب الخمرة ويكرهه فألزمه سيف الدولة بن حمدان فشرب ذات ليلة عنده ففرطت منه فارطة بأن قبل غلاما ومازحه ثم ندم لوقته فقام وانصرف وبقى أياما لا يحضر مجلسه فأكثر بطلبه حتى حضر فأمره بالشرب فامتنع وأقسم أنه لا يشرب أبدا خمرا وأنشأ يقول:

رأيت المدامة غلابة	تهيج للمرأة أشواقه
تسئ من المرء تأديبه	ولكن تحسن أخلاقه
وبالأمس مت بهما مودة	وهل يشتهى الموت من ذاقه

فعفاه من الشرب.

وإذا ألزم العاقل الشرب فى مجالس الملوك فلا يشرب فإن غلب لزم الصمت والسكوت وتكلفه إلا أن يسأل فيرد جوابا مختصرا..

وحكى أن نصيبا كان يجالس عبد الملك بن مروان ويؤاكله ويجلس قريبا منه فألزمه بالشرب فقال يا أمير المؤمنين لست لك بقرابة ولا لى عليك يد بيضاء ولا أنا ذو حسب ونسب وإنما أنا عبد أسود قربنى منك أدبى وعقلى فيأبى بك أن تسلبنى أدبى وعقلى الذى قربنى منك فعجب منه وعفاه.

وينبغى ألا يشربها أبدا الحمقى والسفهاء والجهال حتى يخرجون فى فجورهم وسفهمهم وتكثر حماقتهم.

وقال أبو نواس - رحمه الله تعالى:

والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عدوا بأكفائها

وقال آخر:

وقد تعرف الجهال من حلمائنا
تزيد حميها السففيه سفاهة
وجدت أقل الناس عقلا إذا انتشى
جليسك من يحكى إليك المساويا

وقال آخر:

على قدر عقل المرء فى حال صحوه
يؤثر فيه الخمر فى حال سكره
فياخذ من عقل كثير أقله
ويأتى على العقل اليسير بأسره

قال المأمون الشراب ستر فانظر مع من تهتكه وقال الجمار حرم النبيذ على ثلاثة عشر نفسا على من غنى الخطأ واتكأ على اليمين وأكثر أكل النقل وكسر الزجاج وسرق الريحان وبلى ما بين يديه وطلب العشاء وقطع اللمة وحبس أول قدح وأكثر الحديث وامسخط فى منديل الشراب وبات فى موضع لا يحتمل المبيت ولحن المغنى ونقلت من خط الحافظ جمال الدين اليفمودى من مجاميعه المسماة بكنوز الفوائد ومعادن الفرائد ما صورته لما تقلد كسرى أنوشروان مملكته عطف على الصبوح والغبوق فكتب اليه وزيره رقعة يقول فيها إن فى إدمان الملك الشراب ضررا على الرعية والوجه تخفيف ذلك والنظر فى أمور المملكة فوق على ظهر الرقعة اذا كانت سبلنا آمنة وسيرتنا عادلة والدنيا باستقامتنا عامرة وعمالنا بالحق عاملة فلم نمنع فرحة عاجلة.

قال سليمان أخطأ كسرى من وجوه أحدها أن الادماني افراط والافراط مذموم وآخر أنه حمل أن أمن السبل وعدل السيرة وعمارة الدنيا والعمل بالحق لم يוכל به الطرف الساهر ولم يحظ بالعناية التامة ولم يحفظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام مع أنه متى كان كذلك دب اليها النقص والنقص باب الانتقاص مزيل للاصل مزعزع للدعامة وآخر أن الزمان أعز من أن يبذل كله للاكل والشرب والتلذذ والتمتع فان فى تكميل النفس الناطقة باكتساب الرشدها وإبعاد الغى عنها ما يستوعب أضعاف العمر فكيف اذا كان العمر قصيرا وكان ما يدعو اليه الهوى كثيرا وآخر أنه ذهب عليه أن العامة والخاصة اذا وقفت على اشتهاى الملك بالذات وانهماكه فى طلب الشهوات ازدرته واستهانته به وجذبت عنه بأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير.

وما أحسن ما قال الاديب الفاضل أبو عبد الله محمد بن الرفا الرصافى من رصافة قرطبة - رحمة الله تعالى - وقد مر بروضة نزهة فتذكر جلوسه فيها مع رفقة له كانوا أعزاء على قلبه:

سلى خميلتك الريا بآية ما	كانت ترف بها ربحانة الادب
عن فتية نزلوا أعلى أسرتها	عفت محاسنهم الا من الكشب
محافظين على العليا وربنما	هزوا السجايا قليلا بابنة العنب
حتى اذا ما قضوا من كأسها وطرا	وضاحكوها الى حد من الطرب
راحوا رواحا وقد زيدت عمائمهم	حلما ودارت على أبهى من الشهب
لا يظهر السكر حالا من ذوائبهم	إلا التفاف الصبا فى السن العذب

ونقلت من خط سيدنا ومولانا الجناب المجدى فضل الله ابن المرحوم الصاحب فخر الدين بن مكانس هذه الارجوزة وسماها عمدة الحرفاء وقدوة الظرفاء من نظم والده سامحه الله تعالى:

هل من فنتى ظريف	معاشر حريف
يسمع من مقلالى	مسا يبسهـر اللآلى
أمنحه وصيه	سارية سـريه
تنيـر فى الدياجى	كلمـعة السـراجى
جالبـة السـراء	جليلة الانبـاء
مـساجنة خـليـعه	بليغـة مطبـوعه
رشيقـة الالفـاظ	تسهل للحـفـاظ
جادت بها القـريحه	فى معرض النصيـحه
أنا الشـفـيق الناصـح	أنا المـجد المـازح
اسلك الجـسمـاعه	فى طريق الخـلاعـه
اجـد لـلا كـيـساس	عـهـد أبى نـواس
ان تبـتـغى الكرامـه	وتطلب السـلامـه
اسلك مع النـاس الـادب	تر من الدهـر العـجب
لـن لـهم الخـطـابـا	واعـتـمـد الـآدابـا
تـنـل بـهـا الطـلابـا	وتـسـحر الـالبـابـا

واخلع ردا الرقاعه
ولا تفساخر بنسب
والعقل زين القسوم
لحائز الرياسة
فلا تقل قط أنا
إذا أوتمنت لا تخن
والكيس في الفطانه
والخسرق داعي الهلكه
لا تسخط الرئيسا
لا توحش الانيسا
تنفر الاصحاحا
تدعو الى المجانبه
بين سسرة رؤسا
وكن غلام الطاعه
واحذر وبال السخف
لا تهمل الملاعبا
للنرد والشطرنج
وقلل المقةالا
ولا بغيضانكدا
تسطو على المنداما
تنقص الافراحا
لا تشحذ السلافه
والنقل والمدامسا
شناعة عظيمه
غيسر وضيع عادم
مما لاق بالمبدامى
وطيب الاخبار
والنكتة المبتهله

البس حلا الخلاعه
ولا تطاول بنسب
الممرء ابن اليسوم
ما أروض السيساسة
ان شئت تلقى محاسنا
وان أردت لا تهين
العز في الأمانه
القصد باب البركة
لا تغضب الجليسا
لا تصحب الخنيسا
لا تكثر العتبا
فكثرة المعاتبه
وان حللت مجلسا
اقصد رضا الجماعه
داريهم باللطف
لا تلفسين كاذبا
قرب الندامى يلجى
واختصر السؤالا
ولا تكن معريدا
ولا تكن مقداما
لا تمسك الاقداحا
لا تقطع الظرافه
لا تحمل الطعاما
فذاك في الوليمه
لم يرتضيها آدمى
وقل من الكلامى
كسراتك الاشعار
واترك كلام السفله

وقالت الاكياسى
 بادره بالمندبل
 فشملة الكرام
 وان رقت عندهم
 فان سلمت مـره
 لا تأمنن الثنائيه
 والدبدبون احذره حذر
 فيا لها من فضيحة
 فاعلها لا يكرم
 كم أسكن التـرابا
 وكم فسـتى من ذره
 جازوه من جنس العمل
 ليس له من آسى
 كفنته تلك شهره
 اياك والتطفـيلا
 تبـالها من مـحنة
 لا تقرب الطاعه
 ولا تكن مـبـذولا
 وان دعـاك الاخـوه
 فلا تصـقع ذقنكا
 ولا بجـار الدار
 ولا نجـل تـالفـه
 ولا تقـل لمن تحب
 فهـذه أمـثـال
 سـيرها الاغـراب
 قد وضـعوا فى الورى
 وان حـللت مـشـربه
 فأقلل من المـدام

اذا أريق الكاسى
 فى غايـة العـجـيل
 سفنـجة المـدام
 فلا تشـاكل عـبـدهم
 فلا تـعد يا عـره
 فان تلك القاضيه
 فانه احـسدى الكـبر
 ومـحنة قـبـيـحه
 وان دوى لا يسـرحـم
 ذا قـسـوة ذبـابا
 أصبح مـفضى الثـقبـه
 وصار فى الخلق مـثـل
 كم مـثـل بـعض النـاس
 ومـثـلة وعـبـره
 وشـامـة الوبـيـلا
 وثـلـمـة وهـجـنة
 فـانـهـا دلا عـه
 ولا تـكن مـلـولا
 الى ارتشـاف القـهـسـوه
 ولا تـزرهم بابـنـكا
 ولا بشـخص طارى
 ولا صـديق تصـدقـه
 ضـيف الكـرام يصـطـحب
 غـالبـهـا مـحـال
 السـادة السـفـهاب
 طـرا بأولاد الخـرا
 مع سـوقـه لا كـتبـه
 فى مـجـلس العـسـوام

نوع من الجنون	فكثرة المجنون
وكل من شاء فعل	والامر فيه يحتمل
وكل مفعول مضى	وأخبر الامر الرضى
ضرب من الانعام	فعمصية العوام
فصاصير لاكل السكك	وان صحت تركى
ولم يكن فيه جفا	هذا اذا تطفنا
ونزغلة منكده	وان يكن ذا عسر رنده
بالسيف والدبوس	يقوم للجلوس
ونحس ذاك اليوم	أبشربق تل القوم
وصيتى واصل وفد	فاقبل كلامى واعتمد
ولا تعزز تعلم	ولا تخالف تندم
والحار لا يلاجى	فالشؤم فى اللجاج
تصحبها التحية	فهاكها وصيه
إليك والسلام	يحملها الكرام

الفصل الرابع

فى استهدائها واستدعاء الاخوان

كتب ابن العميد الى بعض اصحابه يستهديه خمرا قد اغتتمت الليلة أطال الله بقاء سيدى ومولاي رقدة عين الدهر وانتهزت فرصة من فرص العمر وانتظمت مع أصحابى كالشرا فان لم تحفظ علينا ما نحن فيه من النظام باهدائى المدام عدنا كبناات نعش والسلام. وقال جحظة البرمكى يستهدى نبذا (توفى سنة ست وعشرين وثلاثمائة - رحمه الله):

قد زارنى اليوم نور عينى	وكان بالامس صد عنى
وليس عندى له نبيذ	وليس يرضى بذاك منى
فجد علينا بنصف دن	بربع دن بثالث دنى
لا تنكرن كدنى وشحنى	فاتنى شاعر مغنى
حالا لو خافا مليكا	اذا لكدى بسكل فن

وكتب عبد الرحيم بن أحمد القاريس خوى الى أخيه الاكبر :

بلغ جمال الدين عبد الواحد صدر الانام الماجد بن الماجد
برد الهوا زاد فى قلبى الهوى فانعم على بقلب ضد البارد
وأشندنى الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكائس من لفظه لنفسه:
براح ورماني بعثت اليكم وبسر وتفاح تضوع كالند
كما حليت بكر على الشرب ناهد مقمعة الاطراف قانية الخد
الاستدعاء قال بعضهم :

تفضل بحق الكأس والراح والهوى وترجيل أصداع غدود على خد
وكن غير مأمور جواب كتابنا ولا توحشنا بالتعلل والوعد
ولآخر:

جعلت فداك قد حضر الطعام وضجت من تأخر ك المدام
فاما جئتنا عجلا والا أخذنا فى اغتيابك والسلام

وكتب أحمد بن يوسف الى صديق له هذا يوم رقت حواشيه وبدت تبشير الجبور فيه
والمرء بأخيه كبير وبمساعده جدير وأنت قطب السرور ونظام الامور فلا تتأخر عنا فنقل
ولا تنفرد منا فنذل.

وقال عبيد الله بن طاهر (توفى سنة ثلاثمائة):

القدر قد هدرت والدين مبذول والروض قد رش والريحان مبلول
وقرت العين قد جاءت بمزهرها يصيح فى يدها والنائي مشغول
ولا يتم لنا عيش ولا طرب حتى نراك فانت القصد والمستول
وكل عيش بلا راح ومسمعة ولا نديم ولا أنس فتعليل
يوم التلاق قصير كيف طال لنا وغيره فيه مع ابعاده طول

وقال آخر نحن فى مجلس قد أبت راحته أن تصفو أو تتناولها يمينك وأقسم غناه لا
طاب ان لم نعه أذنك فاما خدود تاريخه فقد احمرت خجلا لابطائك واما عيون نرجسه فقد
حدقت تأميلا للقائك ونحن لغيبتك كعقد قد ذهب واسطته وشباب قد اخذت حدته فاذا
غابت شمس السماء عنا فلا بد أن تدنو شمس الارض منا فان رأيت أن تحضر لتصل
الواسطة بالعقد ويحصل بقربك فى جنة الخلد فكن الينا أسرع من السهم الى ممره والماء
الى مقره.

وقال الوزير أبو القاسم بن السقاط يومنا أعزك الله يوم بقيت شمسه بقناع الغمام وذهبت طاسه بشعاع المدام ونحن في قطار الوسمى في رداء هدى ومن نضير النوار على نضائد النضار ومن نواسم الزهر في لطائم العطر ومن غرر الندمان بين زهر البستان ومن سقا الكئوس ومعاطى المدام بين مشرقات الشمس وعواطى الارام فرأيك في مصافحة الاقمار ومنافحة الانوار واجتلاء غرر الظباء الجوارى واتقاء درب الغناء الحجازى موفقا ان شاء الله تعالى.

وقال محمد بن أبى محمد بن الفياض كاتب سيف الدولة بن حمدان وقد أجلتنا يومين وهذا ثالث وأعطينا عهدين وكنت الناكث فهل ابتدعت ما أتيت أو كان لك عليه باعث فيا قسيم روحى ويا نسيم صبحوحى ها قد آن الغبوق الا أنه يعز بمرشف شفتيك وكأس عينيك ووالله لا شربت الا على آس عذارك وورد خديك فابره قسمى ورد الجواب من فمك الى فمى.

وقال القاضى السعيد بن سناء الملك وقد انتظمت انتظام الجمان واجتمعنا على رغم انف الزمان وعندنا فلان وما أدراك ما فلان تارة ينظر فيملاً علينا البيت سحرا وتارة يبسم فيفرق علينا درا.

وقال أبو الوليد بن الحبان الشاطبى نحن فى روض أغصانه الندماء وغمامته الصهباء فبالله الا ما كنت لروض مجلسنا نسيماً ولزهر حديثنا شميماً وللجسم روحاً وللطيب ريحاً وبيننا عذراء زجاجتها خدرها وخبائثها ثغرها بل شقيقة حوتها كمامه أو شمس حجبتها غمامه اذا طاف بها معصم الساقى فوردة على غصنها أو شربها مقهقهة فحمامة على فنتها طافت علينا طوفان القمر على منازل الحلول فأنت وحياتك اكليلنا وقد آن حلولها فى الاكليل.

وقال بدر الدين بن صاحب وكتب بها الى صاحب فخر الدين ابن مكائس تغمدهما الله برحمته وسامحنا واياهم بمحمد وآله هل لك بسط الله آمالك وضاعف نعيمك ودلاك فى عذراء مصونة كالدرة المكنونة فتانة مفتونة كأن على خدها فوق ورده ياسمينه مخدرة تدهش العقول لمجتلاها وتغشى العيون لضوئها سناها مظلومة الريق فى تشبيها بالضرب وفى اللثات وفى أنيابها شنب لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير بلقسية الجمال لها صرح ممرد من قوارير ضرة للشمس تلبس زى البدور ليلين ويرطب بها عيش السرور ليلها من

حسنها نهار وضوء وجهها ليد لامسها سوار عجوز الاسم صبية الاستمتاع بكر تستخف
الحليم بكشف القناع تعصبت بالدجى طيبا وتلثمت بالصباح وتلطفت حتى مازجت الارواح
كريمة الاصل والفعال حسنة المعانى والخصال أديمها كلما يعتق يغلو ووردها كلما مر
بحلو يخلع الوقور فى حبها العذار ويطييعها بالسعد فلك اللهو المدار ثلمة المعاطف تقيقه
قهقهة الرعونة كأنما خلقت نشوانة من الطينة يزداد ثغرها طيبا فى ساعة السحر وتعرف
عينها المخفية بحسن الاثر حديثها السحر الحلال وعتيقها خلع الدلال أيامها اعياد وأوقاتها
أوقات القلوب والاكباد تطيب عيش الجلاس وتفرك أذن الوسواس من القاصرات الطرف
فى كل قصر وهى على الاطلاق مليحة ذهبية العصر رومية لها بالكيمياء معرفة مع انها
بادراك المطالب متصفة فتارة تقلب الاحزان أفراحا ومرة تكتال لك الذهب أقداحا نديمها
يجد فى نفسه تخايل المملكة ويكاد أن يمد على الدنيا من لؤلؤة حباتها شبكة قينة كأنما
غنت الفلك فنقطتها بالنجوم قارية تخلقت بعد أن تقمصت ببياض الغيوم تجمع شمل
الاحباب وتهذب الاخلاق الصعاب لو خالطها حبل لماس أو قابلها جماد ل قيل انه كاس أو
قتلت ندائها لما نسبت الى اياس ولقال لسان حالهم وفيها منافع للناس وتلطف حتى كان
رائها سامع يطيب ويطرب وحتى يكاد يأكل بالضمير ويشرب تغايرت الاستقصاءات على
شكلها النورانى وما نفثت فى خلقها الجثمانى الروحانى فلم يجد الطير له فيها مدخلا لكن
قع منها بالتلطيف تطفلا على أنه وارثها بالتعصب وقل جدها للام بلا تثرىب انفاسها مسكية
وطبائعها برمكية ومكارمها خاتمية وانسابها قيصرية بكر خاتم ربها وهى ترضع أباهها من
حلبها فتعيد الشيخ صبيا والمشغول خليا فكأنها استعارت الارضاع من أمها التى لها ثدى
كالنجوم عدة وتعلمت منها المكارم لما رأت أكفها بالندى ممتدة غانية طعم الحياة فى
ريقها وضيق الموت فى مبايتها وتطبيقها لا تنزل الحوادث ساحتها ولا يعرف التعب من
صافح راحتها حمراء تخلع ثوبها على الندمان بل تكاد تطبق عينها على الانسان لا ينهض
البليغ بوصفها فالعجز عن ادراك لطفها ادراك لطفها.

أخبرنى الجنب المجدى - سلمه الله تعالى - أن والده أجاب عن هذه الرسالة جوابا
مجزعا الى الغاية وأن مسودتها علمت.

وقال أبو الحسين بن بسام ليستنهض همه نديم (توفى سنة ثلاث وثلاثمائة رحمه الله):

الا بادر فلا تأن سوى ما	عهدت الكأس والبدر التمام
ولا يكسل برؤيته ضبابا	يظن به الحديقسة والمدام
فإن الروض ملثم الى	ان توافيه فينحط اللثام

وقال الشهاب الاعزازى من موشحة أولها (توفى سنة عشرة وسبعمائة):
 كأس رؤيه * جلا علينا النديم * أم سنا مصباح
 أم شمس حسن * قد توجتها النجوم * فى سماء الاقداح
 ومنها:

وأجساد لنا خليل نراه منذ ليلى الى
 غائبنا * وماء الشمول لذيه وهو سالى
 أيش منا * قل يا رسول نائبا فى ظلالى
 غيره:

دوحه غنى زبرجديه * ونم شادورنم * وبقايا راح
 ويوم دجن * وقد دعاك النديم * فأجب يا صاح
 وقال الحكيم شمس بن دانيال يداعب:

شمس الدين قد أبطأت عنا لأمر قل لنا ماذا الجفاء
 وقلت اليوم بعد العصر تأتى وبعد العصر يأتينا الجزاء
 ونقلت من خط الصاحب المرحوم فخر الدين بن مكاس ما صورته كتبت الى
 صاحبنا الاديب الفقيه العالم الحافظ الراوية أبى حفص سراج الدين عمر السكندرى الشهير
 بالقوصى استدعبه وفيها بعض مداعبة:

الحمد لله المجيب لمن دعاه:

يا ذا الذى فكره مثل اسمه يقدر فندت عنا وما من شأنك الفند
 بما اعتذارك عن هذا الصدود وما هذا وقد ضمنا بالحيرة البلد
 عافاك ربك من داء القطيعة بل شفاك من كل داء أمره نكد
 فيم التواني وشهر الصوم مقتبل عن خمرة ضوئها فى الكأس يتقد
 وفتية مخلصين الود قد جلبوا على المحبة لا حقد ولا حسد
 ان ذاع وصفك فى ناديتهم طربوا أو جال ذكرك فيما بينهم سجدوا
 ان لم تشرف بناديتهم فاشرفوا أو لم تنفق لهم آدابهم كسدوا
 لم ذا هجرت بنى الآداب فابد لنا فما اعتذارك لا أهل ولا ولد
 قد صرت توحشهم بعد اوان قربوا وكنت تؤنسهم قربا وان بعدوا
 تركت عشرتهم لما رغبت الى جاء طويل عريض زانه مدد

ما هكذا تفعل الدنيا بصاحبها
وبعد فاحضر فذنب العبد مغتفر
أولا فعصبة فسق كلهم سبق
لهم ايور قيام طول دهرهم
كأنهم من حديد جمعوا زبرا
من كل اير تحك السحب هامته
مرنفل مكهمر مغضب شرس
مسكرج الرأس فى عرينه شمم
تلك الايور تراهم فى نكورهم
ومن قرى رقعتى هذى وليس يرى
مولاي انى محب فاتخذ كلمى
يا در لنا فبنو الآداب كلهم
وانت أدرى بقوم ان قلوا سلقوا
فأوعدوك وان لم تأت نحوهم
لا زلت ترقى على زهر النجوم علا
وكتب اليه يداعبه:

يوم عليك سعييد
يا بحر علم خضم
يا ناقض الود يا من
ويا رقيق الحواشى
يا جامع الشمم يا من
قد غيرتك الليالى
فكيف تبلى نفارا
لم لا تنبيه وتعلو
وانت خلفك قوم
والناس شكوا وقالا
والشعر فبك توالى

فالناس بالناس والاخوان تنتقد
ولو تطاول من هجرانك الامد
سود غلاظ شداد مالهم عدد
من حين ادراكهم بالحسين ما رقدوا
يستوثبون فلا يقواهم الاسد
يهيج كالبحر اذ يبدوله زيد
لظهره جملونات بها عقد
معشر الدوم فى حلقومه غدد
كأنهم تحت فسطاط السما عمد
عقنبه حاضرا لم يشه أحد
نصيحة فعليها الخل يعتمد
تجمعوا من فجاج الارض واحتشدوا
بالسن ما لقتلى حربها قود
فكل منحرف فى الحال ما يعد
ما حلت الريح أقوام وما رصد

يبلى الهنا ويعيد
تأتى اليه الوفود
شوقى اليه يزيد
ماذا الجفا والصدود
بمما لديه بجود
والجفاء وهو شرود
منا ونحن عبيد
على الورى وتسود
كل قصى شديد
ما شاب منه الوليد
طويله والمديد

أصبحت كالبدور مرأى	وهو القريب البعيد
يا أكثر الناس نحبا	قل لى لماذا العقود
وقد أتى الصوم فالمم	بنا فقربك عبيد
واغتنم شفاءك واشرب	فقد أئتت السعود
واحضر إلينا اذا ما	وافاك دن النضيد
فـعـندنا ان تـزـرنا	ما نشتهى ونريد
راح وظبى وشهاد	يشجى الانام وعود
تزوج المـمـاء بالراح	والملاح شهود
وانت جوهر فضل	به تحلى العقود
لا زال عـزـمك والـر	أى مفلح ورشيد
يستـخـدم الدهر فيـه	ما تقهره وتبـيد
أيامـه خـسـم ويـبـ	ض والليالى سود

وقال آخر نحن قوم من شيعه الخمر نحب العتيق قد فرضنا عنا يد الهم بسماع الوتر
واقمنا من ناصب الغم وعدك المتظر.

الفصل الخامس

فيمن وصفها من الشعراء الاعيان

القول فى الكرمه:

الكرم أكرم الشجر جوهرأ وأشرفها محتدا وعنصرا منافعها عظيمه وعوائدها جسيمه
وثمرها يزهى على جميع الثمار طيبا ومنفعة ومواد الشرب فيما يستخرج منه مستجمعة
وينبغى أن يختار لها أرض معتدلة رطبة لا مفرطة الرخاوة ولا صلبة ولا يكثر سقيها فيصير
ما يعصر منها رقيقا مائيا ولا يفرط فى تعطيشها فيكون يابسا ناريا ويعتمد تزويل أرضها باخثاء
البقر فانها حافظة لما استودعته دون غيرها من الشجر وألا يفرس ما يضادها فى أقرب
مواضعها ولا يلاصقها الا ما يقاربها فى طبائعها فيجتنب الدفلى والذلب والخرع وما
يشاكلها وتجاور الورد والتفاح واللوز والخوخ وما يماثلها والتفاح أشبهها به.

نكتة حسنة: قال أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة لسليمان بن كثير بلغنى أنك
كنت فى مجلس قد جرى بين يديك فيه ذكرى فقلت اللهم سود وجهه واقطع عنقه واسقنى

من دمه فقال نعم قلته ونحن فى الكرم الحصرم لما نظرت اليه فاستحسن قوله وعفا عنه لسداد جوابه.

القول على ثمرها أجمع العجم والعرب على أن رأس الفاكهة التين والعنب لانهما يهديان الخصب الى الجسوم ونفذوا أنهما غذاء غير مدموم وعقيد العنب اذا طبخ نفع من بعض الخوانيق وقطع الرطوبات المضرة بالحلوق وقد ورد فى الخبر المأثور ما هو عند أصحاب الحديث مشهور وهو كلوا الزبيب فانه يطفى الغضب ويذهب الوصب ويشد العصب ويرضى عن الرب، وأطيب العنب ما اخضر عوده وتسلسل عنقوده. وتدفق ماؤه ورق لحاؤه وقل عجمه واستجلاه مستطعمه وأفضل الاشربة ما اتخذ منه وهو الخمر لما فيها من الفضائل ولما انفردت به من شريف الخصائل فالألانة منبسطة بنشر محاسنها والمدايح مشوقة اليها من أفضل معادنها والنفوس بمحبتها كلفه والقلوب الى ما تجتنيه منها متشوفة من اعتياد شربها لم يصبر عنها ومن لم يذقها ورآها دعاه نسيما ولونها الى الأخذ بحظ وافر منها وما أحسن قول ابن المعتز فيها:

معتقة صاغ المزاج لرأسها
جرت حركات الدهر فوق سكونها
وأدرك منها الآخرون بقية
وقد خفيت من صوفها فكأنها
وقال القاضى الفاضل - رحمه الله عليه:

لها ممن تصفو على الشرب أربع
سرور الى القلب وتبر الى يد
ولما رأينا ياسمين حبابها
وقال مجير الدين بن عبد الظاهر:

خمرة للشقيق أمست شقيقة
قال قوم من لطفها هى فى الكأ
كيف تغدو عتيقة لدنان
أنجبت فرحة وجاءت بكاس
هى مخلوقة من الماء فاعجب
كم تبدت بها معانى سرور
بنت كرم بالمكرمات خليفه
س مجاز الكاس قالت حقيقه
وهى فى قبضة الندامى رقيقه
صبغت حمرة فنعم العقيقه
كيف نار من مزنة مخلوقه
بسوى الماء لم تكن مطروقه

سلفتنا على العقول وقالت
حملت همنا فحمدا وشكرا
كم بكت بالدموع منها الرواويـ
أتراني أعصى الهى فيها ثم
يتولى الجنب كتب الوثيقه
لعجوز على بنيتها شقوقه
ق وجاءت جيوبها مشقوقه
أخشى من أن يقول الخليقه

وما أحسن قوله ملغزا فى شملة وان لم يكن مما فيه لكن الشيء بالشيء يذكر بلوازمه
ومشمولة رقت وراقت فأصبحت:

على الشرب تزهى حسين
معتقة ما شملت بعد عصرها
ولا عصرت يوما برجل ولا لها
تهللى الى الكاس
لائم وكم فيها منافع للناس
إذا ما أديرت من صعود الى الرأس

وقال ديك الجن عبد السلام بن رعيان الحمصى (مولده سنة إحدى وستين ومائة
وتوفى سنة ست وثلاثين ومائتين):

بها غير معذور فداو خمارها
فقم أنت واحت كأسها غير صاغر
فقام يكاد الكأس تحرق كفه
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها
موردة من كف ظبي كأنما
وصل بعشيات الغبوق ابتكارها
ولا تشق الا خمرها وعقادها
من الشمس أو من وجنتيه استعارها
فياخذ من أقدامنا الراح ثارها
تناولها من خده فأدارها

قلت: أحسن ما ضمن هذا العجز الشيخ بدر الدين حسن العربى الشهير بالزعارى:

وبى سامرى مربى فى عمامة
موردة دارت بوجه كأنما
وقال مجير الدين بن تميم مضمنا:

لو كنت شاهدا وقد جليت لنا
لرايت أحسن ما يرى بزجاجة
فى كأسها لما انتشى الندماء
سال النصار بها وقام الماء

وقال صدر الدين بن غنوم:

قم نفترخ بكر المدامة بكرة
فالراح سيف قاطع لهمومنا
وقال شرف الدين راجح الحلوى:

فى روضة حسنت وراقت منظرا
أوما تراه بالحباب مجوهر

أعجب شىء رأته عيني ما بين عود وحقق نائي
 زحف سرور بجيش هم وقتل خمر بسيف مائي
 وقال محبى الدين المغربى حافى راسه (مولده سنة خمس وثمانين وستمائة، وتوفى
 سنة اثنين وستين وسبعمائة):

لم يتندر بدر الحباب بكأسها الا لصييد بلابل الأرواح
 مزحت فأنجزت الذى وعدت به من نفخ روح الهوى فى الأشباح
 وقال الناشئ:

صفت وأحداق نورها بزجاجها فكأنما جعلت اناء انائها
 وتكاد أن مزجت لركة لونها تمتاز عند مزاجها من مائها
 تزدد من كرم الطباع بقدر ما تؤدى به الا زمان من أحزانها

وقال البديع الهمدانى قال ابن خلكان (كانت وفاته سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة مسموما
 بمدينة هراة):

وفتيان كأقران الثريا على طرق من العيش الرخيم
 بساقبهم من الغزلان أحوى كأن بطرفه داء الظليم
 تنادوا للمدام وعنفونى وقالوا هاك حظك من نعيم
 فقلت أخاف عقباها ولكن أشيعكم الى باب الجحيم

وقال أبو تمام الطائي (توفى سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة) وفى وفاته ثلاثة أقاويل:

بمدامة تعدو المنا لكثوسها حولا على السراء والضراء
 راح اذا ما الراح كن مطيها كانت مطايا الشوق فى الاحشاء
 صعبت وراض المزج بينى خلقها فتعلمت من سنن خلق الماء
 حرقاء تلعب بالعقول حبابها كتلعب الافيال بالاسماء
 وضعيفة فاذا أصابت فرصة فيكت كذلك قدرة الضعفاء

وقال أبو الحسن على بن موسى الغرناطى ضمنى وإبا يحيى الكاتب مجلس أنس
 فتذكرنا ما قيل فى معاقرة الشراب فى المشيب فأنشدنى لنفسه:

لاموا على حب الصبا والكاسى لما بدا زهر المشيب براسى
 والغصن أحوج ما يكون لشربه ايان يبدو بالازاهر كاسى

ثم قال هل سمعت في هذا المعنى شيئا لغيري فقلت لا ثم أعلمت حتى عملت فيه وهو معنى غريب قلت:

يلوموننى ان شبت فى الخمر صلة وائنى اذا وافى المشيب بها أحق
اذا شاب رأس الليل بالفجر قريب له كثوس الصباء من خمرة الشفق
آخر:

صب فى الكاسى عقيق فجرى وطفنا الدر عليه فسبح
نصب الساقى على حافاتها شبك الفضة فاصطاد الفرح
وقال أبو نواس - رحمة الله عليه:

يطوف بها ساق أغن يرى له على مستدار الاذان صدغا معقربا
اذا عب فيها شارب القرم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا
وقال ابن المعتز - رحمة الله عليه:

قد أظلم الليل يا نديمى فاقصدح لنا النار بالمدام
كسأئنا والورى رقسود نقبل الشمس فى الظلام
وقال ابن حمدى المصنفلى - رحمة الله عليه:

قم هاتها من كف ذات الوشاح فقد نعى الليل بسير الصباح
من قبل ان ترشف شمس الضحى ريق الغوادرى من ثغور الاقحاح
وقال ابن رشيد - رحمة الله عليه - أيضا:

خليل النفس لا تخلى الزجاجا اذا بحر الدجى فى الجو ماجا
مشعشة كأن الشمس ألقت على ايدى السقاة به محاجا
اذا مريخها اتقد احمرارا سكبن المشتري فيه مزاجا
وقال ابن حجاج - رحمة الله عليه:

ويحكم يا كهول أو شيوخ النفس حق أو يا معاشر الفتيان
اشربوها خمرا مما اقتناها آل دير الفنون للقسربان
بكثوس كأنها ورق النس رين فيها شقائق النعمان
اشربوها وكل اثم عليكم إن شربتم بالرطل فى ميزان
فى ليال لو أنها دفعتنى وسط ظهري وقعت فى رمضان

وقال ابن سناء الملك:

الكاس لم تذب فكيف حاسبتها
لا بل هممت بشربها ورأيتها

وقال وجيه الدين بن الدروى:

يفيض على كسرى غلالة قهوة
ونص على دين المجوس لهيها

وقال القاضى الفاضل - رحمه الله:

يلوح عليها خجلة اذ ادارها
أتانى بها والصبح من تحت ذيله
حبيب كأن كأسه من صبابتى

وقال أبو نواس - رحمة الله عليه:

وخمار الحب عليه ليلا
فترحم والكرى فى مقلتيه
أين لى كيف سرت الى حريمى
فقلت له ترفق بى فأنى
فكان جوابه إن قال كلا
وقام الى الدنان فسد فاها

وقال آخر:

جلوها على الندمان فاحمر وجهها
وألقوا عليها الماء فاصفر لونها

وقال يزيد بن معاوية:

لى وله اذا الكاسات دارت
محاذئة الذ من الامانى

وقال البحترى - رحمة الله عليه:

تخفى الزجاجه لونها فكأنها
ولها نسيم كالرياض تنفست
وفواق مثل الدموع تحدرت

أوحشتها من طول ما أنسيته
القت عليك شعاعها فلبسته

ويسلمه عمدا الراحة سالب
فشق الدجى عن صدره منبج راهب

فمن عرق ييدو الحباب لذى المزج
كما استل سيف أو كما ابتسم الربى
فظاهرها برد يزىر على وهجى

قلانص قد تعبن من السفار
كمخمور شكى ألم الخمارى
وجفن الليل مكتحل نفار
رأيت الصبح فى خلل الديار
وهل صبح سوى ضوء العقار
فعاد والليل منسدل الازار

بخجلتها عند البروز من الخدر
وتحسن عند المتلقى وجل البكر

رقا سحرا بحل عرى الهموم
وأبث جوى أرق من النسيم

فى الكف قائمة بغير إناء
فى أوجه الارواح والابداء
فى صحن خد الكاعب الحسناء

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى ملغزا فى مدام:

وما شىء حشاه فيه داء وأوله وآخره سـواء
إذا مازال آخره فجمع يكون الحد فيه والمضاء
وان أهملت أوله ففعل له بالرفع والنصب اعتناء
وله:

حببناها مشعشعة تلالاً وثوب الليل فضفاض الذيل
فحسبها إذا الساقى جلاها تفتش بالسراج على العقول
ولآخر:

أدير بلحيتى البيضاء كاسى بكيس زائد منى وفضنه
ألم يرنى وعفوا الله راج ومن شرهى أصفىها بقطنه
وقال الشيخ يحيى الخبان (توفى سنة سبعين وسبعائة):

بعيشك هاتها حمراء صرفا صباحا واطرح قول النصوح
فهذى الشمس قد بزغت بعين تغامزنا على شرب الصبوح
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

مـورـد الخـد أدار الطـلا فقال لى فى حبها عاتى
عن أحمر المشروب ما تنهى قلت ولا عن أخضر الشارب
وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى:

قم هاتها فى الظلام صافية تورث جسمى وقبضتى بسطه
أضحت عليها الأفراح دائرة يا صديق من قال انها نقطه
وقال المرحوم فخر الدين بن مكائس:

للراح بالكيميا شبه فان لها للقلب والرأس تقطيرا وتصييدا
قالوا هى الشمس اشراقا وقد جهلوا وما ذاك الا شعاع الشمس معقودا
وقال بدر الدين بن الصاحب:

يا حاسب الكاس لا تزدها من بعد حبس الدنان حسره
واغتتم مزاجا لها لطيفا يورثه الانتظار صفره
وقال من لفظه لنفسه سيدنا القاضى بدر الدين محمد بن الدمامينى:

قم بنا نركب طر ف اللهو سبقا للمدام
واثنى يا صاح عنانى للكمسيت وللجسامى

وللشيخ شهاب الدين بن حجر - أبقاه الله تعالى - لنفسه الكريمة:

أطيل الملال لمن لامنى وأملأ فى الروض كأس الطلا
وأهوى الملاهى وطيب الملا ذفها أنا منهمك فى الملا

ومن لفظه لنفسه الكريمة الجناب المجدى بن مكانس:

نزل الطل بكرة ونوالى تجدددا
والندامى تجمموا فأجلى كاسى على السدا

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة:

أمعطل الكاسات عن عشاقها يكفيك بالتعطيل عيب عائبا
ذهبت كئوسك بالمدام فقد أرى للناس فيما يعشقون مذاها
فمتى سلكت من الهموم مهالكا صادفت فى فتح الدنان مطالبا
ومتى امتطيت من الكئوس كميتها أمسيت تمشى فى المسرة راكبا
ومتى طرقت عشى أنس دبرها لم تلق الا راغباً أو راهباً

وقال الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه - تغمده الله برحمته:

لأن شبه الساقى المدام بعسجد فقد مال بالتشبيه عن صنعة الأدب
ولكن رآها جوهراً سميت طلا فموه لما حلت الكاس بالذهب

ونقلت من خط الشيخ بدر الدين البشتكى لنفسه:

وخمار هدينا فى الدياجى بجذوة كأسه وسنا النديم
سألنا منه عن خمر حديثنا فأخبرنا عن العصر القديم

قلت: وعلى ذكر الحديث قال أبو بكر بن عياش كنت وسفيان الثورى وشريك نمشى بين الحيرة والكوفة فرأينا شيخاً أبيض الرأس واللحية حسن السميت فقلنا هذا شيخ جليل قد سمع الحديث ورأى الناس وكان سفيان أطلبنا للحديث وأشدنا بحثاً وأعلمنا به وأحفظنا له فتقدم الى الشيخ وسلم عليه ثم قال له أعندك شىء من الحديث فقال له أما الحديث فلا ولكن عندى عتيق سنين قال فنظرنا فاذا الشيخ خمار.

نادرة: قيل لخالد بن صفوان أتمل الحديث قال انما العتيق يمل.

رجوع: وقال المرحوم فخر الدين بن مكانس:

من شرطنا ان أسكرتنا الطلا صرفنا تداوينا بشرب النما
نعاف مزج الماء فى كأسها لا آخذ الله السكارى بما

وقال بدر الدين بن الصاحب:

يأبىها العاصر بادر إلى عنقودك الفاخر فى كرمه
اياك ان تتركه ساعة تزيب النحاس على أمه

وقال مجير الدين بن تميم:

وليلة بت اسقى فى غياهبها راحا تسل شبابى من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرت الى غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم
ولما تمثلت فى أواخر سنة خمس وتسعين وسبعمئة بين يدى سيدنا ومولانا أوجد
العصر من غير مدافع ولا منازع أقضى القضية بدر الدين محمد بن أبى بكر المخزومى
الشهير بالدمامينى - أسبغ الله ظلاله - تذاكرنا بين يديه الكريمة الكتب وحسن أسمائها
فأخبرنا أنه فى زمن الصبا جمع مقاطيع من الخمرىات وسماها مقاطع الشرب تأمل ما ألطف
هذه التسمية.

القصائد قال الشيخ العالم المقتن البارع صدر الدين محمد بن المرحل ويعرف فى
الشام بابن وكيل بيت المال - تغمده الله بالرحمة (مولده سنة خمس وستين وستمائة ووفاته
سنة ست عشرة وسبعمئة - رحمه الله تعالى):

ليذهبوا فى ملامى أية ذهب فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
لا تأسفن على مال تمزقه أيدى سقاة الطلا والخرد العرب
والمال أجمل وجه فيه تصرفه وجه جميل وراح فى الدجى لهب
فما كسوا راحتى من راحها حللا الا وعروا فؤادى الهم واستلبوا
راح بها راحتى فى راحتى حصلت فمنى عجبى بها وازداد بى العجب
اذ ينبع الدر حلو من مذاقته والتبر منسبك فى الكأس منسكب
وليس الكيمياء فى غيرها وجدت وكل ما قيل فى أبوابها كذب
قيراط خمر على القنطار من حزن يعيد ذلك أفراحا وينقلب
عناصر أربع فى الكأس قد جمعت وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح وطوقها فلك والانجم الحبيب
ما الكاس عندى بأطراف الانامل بل بالخمس تقبض لا يخلو لها الهرب
شجبت بالماء منها الرأس موضحة فحين أعقلها بالخمس لا عجب

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى لو لم يقل الشيخ صدر الدين من الشعر الا هذا البيت لكان قد أتى بشيء غريب نهاية فى البديع لقد غاص فيه على المعنى ودق تحيله فيه: وما تركت بها الخمس التى وجبت وان رأوا تركها من بعض ما يجب وان أقطب وجهى حين تبسم لى فعند بسط الموالى يحسن الادب

هذا البيت أيضا بديع المعنى دقيقه وقد اعتذر عن اقتضابه بأحسن عذر وأوضحه وما أحسن قول ابن رشيق:

أحب أختى وإن أعرضت عنه وأقل على سامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيب راض كما قطبت فى وجهه المدام
وتمة الأبيات :

عاطيتها من بنات الترك عاطية لحاظها للأسود الغلب قد غلبوا
هيفاء جارية للراح ساقية من فوق ساقية تجرى وتنسكب
من وجهها وتثنيها ومقلتها تخشى الالهة والقضبان والقضب
يا قلب أرادفها مهما مررت بها قف بى عليها وقل لى هذه الكتب
وان مررت بشعر فوق قامتها بالله قل لى كيف البان والعذب لكن
ترك وجتها ما فى زجاجتها مذاقته للريق تنتسب
تحكى الثنايا التى أبدته من حجب لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصرى:

قضى وما أقضيت منكم لبانات متيم عبثت فيه الصبايات
ما فاض من جفته يوم الرجيل دم الا وفى قلبه منكم جراحات
أحبابنا كل عضو فى محبتكم كليم وجد فهل للوصل ميقات
غبتم فغابت مسرات النفوس فلا انتم زعمى ولا تلك المسرات
يا حبذا فى الصبا عن حبكم خبر وفى بروق الفضا منكم اشارات
وحبذا زمن اللهو الذى انقرضت أوقاته الغر والاعوام ساعات
أيام ما شعر البين المبين بنا ولا خلت من مغانى الانس أبيات
حيث المنازل وروضات مدبجة وحيث لى بديار اللهو سلطنة
وحيث أسعى لاوطان الصبا مرحا ولى على ثغر من أهوى ولايات
ولى على حكم من أهوى ولايات

حانت ولا طرقت للقصف حانات
الى المدام له بالسبق عادات
تحت الدجى فكأن الدير مشبكات
لم يبق فى دنها الا صبنايات
حتى كأن سنا الاكواب رايات
حتى لقد أصبحوا من قبل ما باتوا
حاجات قوم وللحاجات أوقات
كأنما هى للكاسات كاسات
وهى الحياة كأن الشرب أموات
فاسترجعت من روث القوم تارات
هبات حسن وفى الإناء هبات
نار تطوف بها فى الارض جنات
توزعت من قلوب الناس حبات
كأن أصداغه للعطف واوات
حتى لقد رقصت تلك الزجاجات
شربا تشن به فى العقل غارات
هى المنازل لى فيها علامات

ورب حانة خمار طرقت وما
سبقت قاصدا مغناها وكنت فتى
أعثر الى ديارها الاقصى وقد لمعت
وأكشف الحجب عنها وهى صافية
راح زحفت على جيش الهموم بها
وبت أجلو على الندمان رونقها
مصونة السرح ماتت دون غايتها
تجول حول أوانيسها أشعتها
ويصبح الشرب صرعى دون مجالسها
تذكرت عند قوم دوس أرجلهم
واستضحكت فلها فى كل ناحية
كأنها فى أكف الطائفين بها
من كل أغيد فى دينار وجته
مبلبل الصدغ طوع الوصل منعطف
ترنحت وهى فى كفيه من طرب
وقمت أشرب من فيه وخمرته
وينزل اللثم خديه فينشدها

وقال الأديب الفاضل الكامل أبو الفتح بن قلاؤس السكندرى :

كافورة الصبح فتت مسكة الغسق
وخل كأسك نجما عند مغتبق
فان للزند حلياً ليس للمعنى
فى نفحة من نسيم المنديل العبق
مخضرة الورق فى محضلة الورق
فالخمر من عسجد والكاس من ورق

الحق بنفسج فجرى وردتى شفق
قم هات جامك شمساً عند مصطبغ
واقسم لكل زمان ما يليق به
هب النسيم وهب الريم فاشتركا
واسترقصنى كاسترقاص حاملها
وظلت بالكأس أغنى الناس كلهم

وقال الشيخ الفاضل الكامل برهان الدين ابراهيم بن عبد الله بن محمد المعروف

بالقيراطى - رحمة الله عليه :

قسما بروضة خده ونباتها
 وبسورة الحسن التى فى خده
 وبقامة كالغصن الا أننى
 لاعزرن غصون بان زورت
 ولاصبحن للذى متيقظا
 وياكرن رياض وجنته التى
 كم ليلة نادت بدر سمائها
 وجرت بنادهم الليالى للصبأ
 فصرفت دينارى على دينارها
 خالفت فى الصهباء كل مقلد
 فتحير الخمار أين دنائها
 فشممتها ورأيتها ولمستها
 ونبتعت كل مطاوع لا يختشى
 يأتى إلى اللذات من أبوابها
 عرف المدام بجنسها وينوعها
 باصاح قد نطق المزار مؤذنا
 فخذ ارتفاع الشمس من أقداحنا
 ان كان عندك يا شراب بقية
 الخمر من أسمائها والدر من
 واذا العقود من الحباب تنظمت

وقال الصاحب العالم المفتن فخر الدين عبد الرحمن بن مكناس:

خليلى هيا للصبح وبكرا
 ولا تركبا الليل البهيم اركبا مدا
 وصيدا بنات الكرم من دنها
 اذا ما أديرت فى حشا عسجدية
 فحسبك نبلا فى السيادة أن ترى
 مدام حوت معنى السرور أفرطت
 لذلك قد تزهى بوجهه مسخلق

وحشا أوانى لهوها تحمد السرا
 ما كمينا أو من الصبح أشقرا
 فان أوانى راحها عندى القرا
 بها كل ذى ملك وتاج تصورا
 نديمك فى الكاسات كسرى وقبرا
 فمنها سرى فيها السرور وأثرا
 وحلاها ثوب النسيم مزعفرا

إذا ضررتها تحت حبابها
وبرهانه ذبح الهموم الا ترى
وقال الاديب الفاضل الكامل فخر الترك أيدمر المجنوى من قصيدة مطولة تقدمت
أوائلها فى باب الروضات والبساتين:

وسلافة باكرتها فى فتية
شربت كثافتها الدهور فما ترى
يسعى بها ساق يهيج به الهوى
تنادم الالحاظ منه على سنا
راق العيون غضاضة وغضارة
ورنا كما لمع الحسام المستضـ
وأظللنا فى فرعه وجبينه
وكان مقلته تردد لفظه
وإذا العيون تجمعت فى وجهه

وقال الشيخ الفاضل الكامل كمال الدين على بن النبيه:

طاب الصبوح لنا فهناك وهات
كم ذا التواني والشباب مطاوع
قم فاصطبغ من شمس كأسك واغثق
صفراء صافية توقد بردها
ينسل من قار الظروف حبابها
وتريك خيط الصبح مفتولا اذا
عذراء واقعه المزاج أما ترى
يسعى بها عبل الروادف أهيف
يهوى فتسبقه ذائب شعره
يدري منازل نيران كنوسه

وقال الأديب الفاضل الأوحى أمين الدين جويان القواس:

إذا افتر جنح الليل عن مبسم الفجر
وفاحت لنا من عابق الروض نكهة
وعهدى بوجه الارض مبتسما فلم
ولا ح به ثغر من الانجم الزهر
رشقنا بها برد الرضاب من الخمر
يغرغر منها الدمع فى مقل القدر

إذا أرحف الماء التسييم لوقتته
وبحر الرياض الخضر بالزهر مزيد
ومن شهب الكاسات بالنجم نهتدى
نصون الحميا بالقناني وانما
ولما حكى الراوق فى العين شكله
تذكر عهدا بالكروم فكله
عجبت لها والراح تبكى به فلم
إذا ما أثنى كأسها غير متزع
يناولنيها مخطف الخصر أهيف
ينادمننا نظما ونشرا ولفظة
فلم يسقنى كأس المدامة دون أن
وناجوز ثم اثنتى غصن بانه
وقال وفرط السكر يشنى لسانه
ردوا من رضاي ما يعيىض عن الطلى
ومن كان لا تحوى زراعاه مثرى

وقال الشيخ الامام الفاضل البار صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحللى - رحمه الله:

رشاً بالراح مخضوب اليدى
فطافت مقلناه بآخرين
يجاذب خصره جبلى حنين
ويشر عجمه قافا بغين
شهدنا الجمع بين النيرين
ومن خمر الرضاب بمسكرين
جيوش الحسن منه بعارضين
كما انتسب الرماح الى ردين
فبدلها الحياء بوردين
أوانى الراح من ورق وعين
ويات الزق مسغول اليبدين

أراد التبر فى كأس اللجين
وظاف على الصاحب بكأس راح
رخيم من بنى الاتراك طفل
يبدل نطقه ضادا بدال
إذا يحلو الحميا والمحميا
يطوف على الرفاق من الحميا
وأخر من بنى الاعراب حفت
الى عينيه تتسبب المنايا
يلاحظ سوسن الخدين منه
ومجلسنا الأنيق تضىء فيه
فاطلقنا فم الابريق فيه

تركب فى قناة من لجـين
توقـد فى أكف الساقـين
حواشى نورها فى المشرقين
يحف من السقاة بكوكبين

وشمعنا شبيه سنان تبر
وقهوتنا شبيه شواظ نار
إذا ملئ الزجاج بها وطارت
عجبت لبدر صار شمسا
ولله:

فحـرقت حلة الظلماء باللهب
أطفـال در على مهد من الذهب
لحدثنا بما فى سالف الحقب
قبل السلاف سلاف العلم والأدب
كأن فى لفظه ضرب من الطرب
تضىء فيه كئوس الراح كالشهب
أزوج ابن سحاب بابتة العنب
يعيد أرواحنا من مبدء الطرب
من نفخة الصوارم من نفخة القضب
والزهر مبتسم عن ثغره الشب
خذلان يرفل فى أثوابه القشب
يد الربيع وجادتها يد السحب

بدت لنا الراح فى تاج من الحبيب
بكر إذا زوجت بالماء أولادها
بعيدة العهد بالمعصار لو نطقت
باكرتها فى رفاق قد زهت بهم
بكل متشح بالفضل مبتزر
بل رب ليل غدا فى الـهاب غدت
بدلت عقلى صدافا حين بت به
بتنا بكاساتها صرعى ومطربنا
بعث اتانا فلم نعلم لفرحتنا
بروضة ظل فيها الظل أدمعه
بكت عليه أساليب الحيا فغدا
بسط من الروض قد حاكت مطارفها
وقال الوأواء الدمشقى - رحمه الله تعالى:

س وكفا عن شرب ما تسقيانى
ت بأنى أموت بكرة ثانى
سكنت فى مواطن الأحزان
حدقا ما تدور فى أجفان
واح مجرى الأرواح فى الأبدان
ه ظنى من ظرائف الأشجان
ه بخضاب الكئوس مخضوبتان
ف إذا ما بكت عليها القناني
د إذا شئت فى خدود الغواني
ج ما دغدغت صدور المثنان

اسقيانى ذبيحة الماء فى الكأ
اننى قد آمنت بالأمس إذ مت
قهوة تطرد الهموم إذا ما
نشرت راحة المزاج عليها
فهى تجرى من اللطافة فى الأر
يتهادى بكأسها من هدايا
أنها الريح الذى راحتنا
عج بضحك الأقداح فى رهج القص
واسقنى القهوة التى تنبت الور
لا تدغدغ صدر المدام بأيدي المز

وقال أبو الفتوح بن قلاقس - رحمه الله:

كم مقلة للشقيق الغض رمداً
وكم ثغور اقاح فى مراشفها
فما اعتذارك من عذراء جامحة
نضت عليها حسام المزج فامتعت
أما ترى الصبح يخفى فى دجته
والطير فى عذبات الدوح ساجعة
فحى بالكأس كسرى تحى رمته
وعذ بمعجز آيات المدامة من
فما الفصاحة الا ما تكرره
فاعكف على جلس اللذات مغتماً

انسانها سايح فى بحر دمع انداء
رضاب طائفة بالرى وطفاء
لانت كما لامستها راحة الماء
بلامة للجباب الجم حصداى
كأئما هو سقط بين أحشائى
تطابق اللحن بين العنود والناء
بروح راح سرت فى جسم سراء
نوافث السحر فى أجفان حوراء
منازل الدن من ترجيع فأفاء
فالدهر فى حربه تلوين حرباء

قيل: أتى عبد الملك بن مروان بسكران فقال له ماذا شربت فقال:

معتقة كانت قريش تعافها
فقال مع من؟ فقال:

سقونى مع الشعرى بكأس روية
قال فما غنيت؟ فقال:

سقونى وقالوا لا تغن فلو سقوا
فعفى عنه وأطلق سبيله.

ومن كلام الشيخ برهان الدين القيراطى:

يوم أنيق وغيم دفيق، وروض إذا سلسل ماؤه المطلق تهلل وجهه الطليق، فإذا دعى
التدامى فيه بالصبوح جاءت قنية فى يدها ابريق، وإذا انحرت السقاة فيه دماء الرقاق صارت
أيامهم كلها أيام تشريق، وإذا خاط من الشرب ثياب سرور غار من أرجه المسك الفتيق.

قلت: قوله أيام التشريق مأخوذ من قول أبى الحسن الجزار يفتخر:

انى لمن معشر سفك الدما لهم دأب
تضىء بالدم اشراقاً عراصهم

وسل عنهم ان رمت تصديق
فكل أيامهم أيام تشريق

وقال برهان الدين القيراطى أيضاً:

زوج المـمـاء برأحك	وأجلها بين مـلاـحـك
لا تعطل يوم لـهـو	من صبوح فى صباحك
وإذا خفت افتـضـاحا	كل عيش فى افتـضـاحك
أو ترى فيها جناحا	قسم ودعنى من جناحك
وصل اليوم اغتـبـاقا	من كنـوس باصـطـباحك
صباح هذا وقت راحى	واقـتـراحى واقـتـراحك
فاطرح من لام جهـلا	فى اطراحى والـطـراحك

وقال شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة هذه الأبيات تجب فى الحب وتقلب اكسير راحها لجين الزجاج إلى الذهب قد امتزجت بالقلوب امتزاج الماء بالراح ولم يفتح بمثلها على صاحب مفتاح الفرح، كم رقصت على سماعها الأحبة ونقط الحبيب دينارها من خده وشامته بدينار بغير اوط وجبه.

وقال الشيخ بدر الدين البشتكى - أبقاه الله تعالى:

أقول كلما والله نظرت إلى هذه الابيات، والكلمات الحجيلات، أكاد أسكر بلا راح، وأطير من الأدب بلا جناح.

هذه عبارة الشيخ بدر الدين ومن خطه نقلت.

قلت: ولو قال بدر الدين وأطير من الأدب وأطير من الفرح لكان أحسن فتأمله.

وأشد عن لفظه لنفسه سيدنا القاضى المفضى البارع صدر الدين على بن سيدنا ومولانا

القاضى أمين الدين بن الأدمى - سلمه الله تعالى - ونقلتها من خطه:

سيح القمري فى الدوح وغرد	فحسبنا إن فى الروضة معبد
والند فاض على زهر الربا	فسرت بين الندامى نفحة الند
إنما الزهر ثغور فتحت	باسمات بحميل المزن تحمد
فأسقنى القهوة حتى انثنى	مثل غصن البان لما يتأود
من يدى ظبى عزيز أهيف	مخطف الخصر رقيق مايس القد
كامل الاوصاف لكن ثغره	ولما ريقه حلو مبرد
جامع الحسن لوصل مانع	طرفه الهندى قد بالغ فى الحد
ضيق العين إذا ما سمته	قبلة سل من اللحظ مهند
وحمى فاه بلحظ فاتر	فهو تركى على الثغر مجرد

يا له من عجب في لحظه
لينت أعطافه الخمرة لى
بنت كرم عشقوها زما
تسلب العقل من الرأس كما
قل لساقينا إذا طاف بها
أترع الكأس واسرع واغتنم
ما ترى الأنجم كانت زمرا
فهى مثلى حين غابت سادتى
سكر العشاق منه وهو عربد
فأعادت أسد الخلية أغيد
طال حتى إنه لم يحص بالعد
سلبت قدما من الكرمة باليد
سحرا بين الندامى يتسرد
جمع شملى واختش أن يتبدد
لم يدع ذا الصبح منها غير فرقد
عن عياني بعد جمع صرت مفرد

قلت: واذا ذكرنا مدحها أيضاً وأوسعنا المجال فى ذلك فلا بأس بإيراد نبذة من ذمها فى الحديث المرفوع جمع الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه الخمر، وفى كتاب المبهج الخمر مصباح السرور ولكنه مفتاح السرور.

وقيل لبعضهم تركت النبيذ وهو رسول إلى القلب فقال نعم ولكنه بش الرسول يبعث إلى القلب فيذهب إلى الرأس.

وكان العباس بن على عم المنصور يأخذ الكأس بيده يقول لها: أما المال فتتلقين وأما المروءة فتخلقين وأما الدين فتفسدين فيسكر ساعة ثم يقول أما النفس فتسخنين وأما القلب فتشجعين وأما الهم فتطردين أفراك متى تقتلين ويشربها.

قيل لأعرابى لم لا تشرب النبيذ قال لا أشرب ما يشرب عقلى.

وقيل لبعضهم لم لا تشرب فقال عقلى لا أقدر على جمعه فكيف أفرقه وما أظرف من

قال شعرا:

تقول أثوابى لمسا رأيت
شيبى وتكعيبى على صدرى
بالله يا شيخ أما تستحي
إلى متى تصبغنى بخمرى

وقال آخر:

قد هجرت الراح حتى
ليس لى فيها نصيب
وعلى الراوق منى
طول ما عشت صليب

وقيل مهر الخمر العقل والدين والدرهم، سئل بعض الشيوخ عن الخمر فقال: تضيع مال وعقل وزيادة بول وجنون.

وإذا ذكرنا الخمر ومنافعها ومضارها ومدحها وذمها فلا بأس بإيراد نبذة من المفردات المركبة نقلتها من كتاب مفرح النفس تأليف الحكيم الفاضل الرئيس بدر الدين مظفر ابن القاضي مجد الدين عبد الرحمن قاضي بعلبك ولى رئاسة الطب بدمشق (وتوفى سنة تسعمائة وخمسة وسبعين بدمشق) رحمة الله عليه:

صفة مفرح حار للملوك والكبر الأوائل كان الخلفاء المتقدمون من بنى العباس وغيرهم يستعملونه وله منافع كثيرة يطول شرحها والحاصل أنه يبرئ جميع الأمراض السوداء عاجلا ويفرح تفريحا مفرطا حسنا:

خولنجان وزراوند مدحرج وسنبل وسلحة وجعدة وزنجبيل وقاقلة كبار وصغار ودار صيني الصين وقرنفل وزرنب وذرساذ من كل واحد ثلاثة دراهم قفاح الأذخر وغاريقون وحاشا وتريد وقسط حلو وسادج ويشفانج محكوك وحماما من كل واحد خمسة دراهم وعرق ذهب وياقوت أحمر رماني وزمرذ من كل واحد مثقال وزعفران مثقالان يدق الجميع وينخل ويعجن بعسل مادي ويوضع فى إناء من صيني أو فضة ويرفع ويستعمل الشربة منه مثقالان بشراب تفاح شامى وماء لسان ثور نافع - إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح حار للمتوسطين من الناس سعة خمسة دراهم زر ورد منزوع الاقماع عشرة دراهم قرنفل وسنبل الطيب ومصطكى وأسارون وزرنب وزعفران من كل واحد درهمان بسباسة وقاقلة كبار وصغار وجوزبو من كل واحد درهم عود ثلاثة يدق الجميع وينخل ويعجن بعسل منزوع الرغوة ويرفع ويستعمل الشربة وزن مثقال بشراب تفاح حلو وماء لسان ثور نافع - إن شاء الله تعالى.

مفرح حار للفقراء وهو شراب الابرسم وله منافع كثيرة منها التفريح المفرط وقوة الاحشاء خصوصا الكبد وينفع من جميع الأمراض الباردة ويقوى الانعاظ يؤخذ بريسم خام ينفع فى الماء أياما عشرة فى قدر من حديد فإن لم يتهيا من حديد فيتفع فى الماء المطفى فيه الحديد دفعات كثيرة ويغلى غليانا جيدا ويصفى ويضاف إليه بوزن الماء سكرًا وعسلًا ويعقد ويرفع ويطيب بشيء من زعفران وخولنجان ومصطكى روح ويستعمل نافع - إن شاء الله تعالى .

صفة مفرح بارد للملوك والكبراء طباشير عشرة دراهم لسان ثور خمسة دراهم زر ورد منزوع الاقماع أربعة دراهم طين أرمنى سبعة دراهم شير املج خمسة عشر درهما خشب

صندل أبيض وأحمر وأصفر من كل واحد درهمان زعفران نصف درهم عرق ذهب جيد وفضة من كل واحد مثقال ابريسم محرق على ما وصفنا درهم يدق الجميع ناعما وينخل ويعجن بجلاب قد عقد من عسل وسكر بماء الورد وماء التفاح وماء السفرجل وماء الرمان ويحرك ويرفع الشربة ثلاثة دراهم بشراب حماض وتفاح شامى وماء لسان الثور وماء ورد وماء خلاف نافع - إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح بارد للمتوسطين من الناس يؤخذ اهليدج كابلى وأملج من كل واحد خمسة دراهم وزر ورد منزوع الاقماع وخشب صندل أبيض وأصفر وأحمر من كل واحد ثلاثة دراهم وورق فضة مثقالان ولؤلؤ كبار نقى البياض غير مثقوب مثقال يدق الجميع وينخل ويعجن بعسل الاهليدج الكابلى الشربة مثقالان بشراب حماض وتفاح شامى بماء ورد وما خلاف نافع - إن شاء الله تعالى.

صفة مفرح معتدل للمتوسطين من الناس بهمين أحمر وأبيض من كل واحد خمسة دراهم عسل اهليدج كابلى منزوع الرغوة عشرون دراهما شاهترج ولسان ثور وترنجان من كل واحد عشرة دراهم طباشير وكسفرة يابسة وطين محتوم من كل واحد ثلاثة دراهم ابريسم خام محرق على ما وصفنا قشر الفستق الخارج من كل واحد درهمان بسد ولؤلؤ كبار غير مثقوب وكهربا من كل واحد درهم عود هندي خام نصف مثقال يدق الجميع ناعما وينخل ويعجن بجلاب قد عقد من سكر وعسل ويرفع فى اناء من صينى أو فضة الشربة مثقالان بشراب حماض وتفاح شامى وماء لسان الثور وماء ورد وماء خلاف وما نيلوفر نافع - إن شاء الله تعالى.

نادرة: دخل رجل على بعض أصحابه يعوده من مرض بالقلب وكان له غلام يدعى ياقوت شديد الافتتان به وكان متهما به فقال له حاشاك يا سيدنا تشكو وجع القلب وعندك المفرح الياقوتى.

الباب التاسع عشر في الصاحب والنديم

قال النبي ﷺ: «أكثرُوا من الإخوان فإن ربكم حيى كريم يستحي أن يعذب عبده بين إخوانه» وقال على رضي الله عنه: أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان وأعجز منهم من ضيع ما ظفر به منهم، وقال عمر رضي الله عنه: ثلاث يثبتن لك الود في صدر أخيك أن تبتدئه بالسلام وأن توسع له للمجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه، وقال الخليل بن أحمد: الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال، وقال رجل لابن المقفع أنا بالصدديق آنس من الأخ فقال صدقت الصديق نسيب الروح والأخ نسيب الجسم، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما الدخان على النار بأدل من الصاحب على الصاحب.

اعرابي: المودة بين السلف ميراث بين الخلف.

اعرابي: دع مصارعة أخيك وإن حث التراب في فيك.

اعتذر رجل إلى صاحب من تعذر اللقاء فقال أنت في أوسع عذر عند ثقتي وفي أضيق عذر عن شوقي.

المأمون: الإخوان على ثلاث طبقات: طبقة كالغداء لا يستغنى عنه وطبقة كالدواء لا يحتاج إليه إلا في الاحايين وطبقة كالغذاء لا يحتاج إليه أبداً، وقال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجالساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكتافاً الذين يآلفون ويؤلفون» وقال على بن أبي طالب - كرم الله وجهه: الغريب من ليس له حبيب، وقال أيضاً، لا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه فإنه ليس بأخ من ضيعت حقه، وقال علقمه بن لبيد العطاردي لابنه إذا نازعتك نفسك صحبة الرجال فاصحب من إذا صحبته زانك وإن خدمته صانك وإن نزلت بك مؤنة مانك اصحب من إذا مددت يدك بفضل مدها وإن بدت بك ثلمة سدها وإن رأى منك حسنة عدها اصحب من يتناسى معروفه عندك ويتذكر حقوقك عليه.

قال لابي داود السجستاني صاحب له أستمده من معبرتك قال لا فاحترق الرجل حياء فقال أعلمت أنه من شرع في مال أخيه بالاستئذان فقد استوجب بالاحشمة الحرمان.

قرع باب بعض السلف صديق له بالليل فنهض إليه ويده كيس وسيف وهو يسوق جارية له ففتح الباب وقال قسمت أمرك بين نائبة فهذا المال وعدو فهذا السيف وأيمة فهذه الجارية.

كان على بن الجهم يمدح أبا تمام ويطيب فيه فقيلاً له لو كان أخاك ما زدته على هذا المدح فقال إن لم يكن أخاً بالنسب فإنه أخ بالآداب.

مر بخالد بن صفوان رجلان فمرج إليه أحدهما وطواه الآخر فقال عرج علينا هذا لفضله وطوانا ذاك لبغيه.

الاعمش أدركت أقواماً لا يلقي الرجل أخاه الشهر والشهرين فإذا لقيه لم يزد على كيف أنت وكيف حالك ولو سأله شطر ماله أعطاه ثم أدركت آخرين إذا لم يلق الرجل منهم أخاه يوماً سأله حتى عن الدجاجة فى البيت ولو سأله حبة من ماله منعه.

وأحسن من قال من رضى بصحبة من لا خير فيه لم يرض بصحبة من فيه خير.

كان يقال إن الكيس الذى لا يمل مناجات الصديق.

الهند من كتم الأحبة نصحه والأطباء علته والإخوان بثه فقد خان نفسه.

كان الخليل إبراهيم - صلوات الله عليه - إذا ذكر زلته غشى عليه وسمع اضطرابه من ميل، فقال له جبريل: يا خليل الله الجليل يقرؤك السلام ويقول هل رأيت خليلاً يخاف خليله قال يا جبريل كلما ذكرت الزلة نسيت الخلّة.

قال العتبى لقاء الإخوان نزهة القلوب. قال سليمان بن وهب غزل المودة أرق من غزل الصباية والنفس بالصدى أنس منها بالعشق. وقال يونس النحوى يستحسن الصبر عن كل واحد إلا عن الصديق، وقال ابن المعتز إذا قدمت المودة شبهت بالقرابة، وقال عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرماؤه يعنى فى قضاء الحقوق.

عمرو بن مسعدة العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق، وكان بعضهم يقول اللهم احرسنى من أصدقائى فإذا قيل له فى ذلك قال إنى أقدر أحترس من أعدائى ولا أقدر على الاحتراس من أصدقائى.

وقال ابن الرومى:

عدوك من صديقك مستفاد	فلا تستكثر أن من الصحاب
فإن الداء أكثـر ما تراه	يكون من الطعام أو الشراب

واعلم أنه لا يتناهى فى حسدك إلا الاصدقاء والندماء فإنهم متى رأوك بحال وهم بأنقص منه انغرس فى قلوبهم حسدك فلو خولتهم أضعاف نعتك لم يزالوا يحسدونك حتى تفتقر ويستغنون والحسد داء الابد، روى عن النبى ﷺ أنه قال: «يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال» قال معاوية بن قرة نظرت فى المودة والإخاء فلم أجد أثبت مودة من ذى أصل.

قال أبو الحسن بن جبير الأندلسى البنسى:

تغير اخوان هذا الزما . ن فكل خليل عراه الخلل
وكانوا قديما على صحة . فقد داخلتهم حروف العلل
قضيت التعجب من أمرهم . فصرت أطالع باب البذل
ولله در ناصر الدين بن التقيب:

فأين الصديق الصدوق الذى . مودته من قرى صافيه
فما لى صديق سوى درهمى . ولا لى حبيب سوى العافيه
وقال أبو العلاء المعرى:

جريت دهرى وأهليه فما تركت . لى التجارب فى ود امره غرضا
وقال القاضى ناصح الدين الارجاني والثاني يقرأ معكوسا وهو غاية:

أحب المرء ظاهره جميل . لصاحبه وباطنه سليم
مـودته تدوم لكل هول . وهل كل مـودته تدوم
وقال صلاح الدين الصفدى:

عذيرى فى اللبالي من صديق . على مالى وعرضى قد تسلط
تأول اذ تأخر عنه خيرى . فهل ألقاه يوما قد توسط
وقال الشريف العقيلي وأجاد:

ألذ مودات الرجال مذاقة . مودة من ان ضيق الدهر وسعا
فلا يلبس الود الذى هو سادجا . إذا لم يكن بالمكرمات مرصعا

وقال مخارق أنشدت المأمون قول أبى العتاهية (مولد أبى العتاهية سنة ثلاثين ومائة وتوفى سنة إحدى عشرة ومائتين):

وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب . يروق ويصفو إن كدرت عليه

قال لى أعد فأعدت سبع مرات فقال لى يا مخارق خذ منى الخلافة واعطنى هذا
الصاحب لله در أبى العتاهية ما أحسن ما قال.

وأحسن من قال:

بروحى من صاحبتة فوجدته أرق من الشكوى وأصفى من الدمع
يوافقنى فى الهزل والجذ طائعا فينظر من عينى ويسمع من سمعى

وقال الجاحظ كان أبو دؤاد إذا رأى صديقه مع عدوه قلا صديقه وقال ابن عساكر فى
تاريخ دمشق قال ابن عائشة قال هشام بن عبد الملك ما بقى على شىء من لذات الدنيا الا
وقد نلتها وما انتهى إلا شيئا واحدا أخا أرفع مؤنة التحفظ بينى وبينه، وقال معاذ بن جبل
رضي الله عنه: صحبة العاقل فى المفاوز والاسفار خير من صحبة الجاهل بين الرياض والانهار.
ولله در القاضى الفاضل.

وما برح الإخوان إخوان الزمان فإذا أحسن كانوا من التابعين له بإحسان وإذا أساء كانوا
من المهاجرين لا من الهجرة ولكن من الهجران.
وقال جعفر بن محمد لولده: يا بنى من غضب عليك من إخوانك ثلاث مرات ولم
يقبل فيك سوءاً فاتخذة خليلا.

ويجب على الصديق إذا رأى صديقه معسرا وهو موسر أن يواسيه ببعض ماله، فقد
حكى عن بعض الحكماء أنه رأى رجلين لا يفترقان فسأل عنهما فقبل هما صديقان فقال ما
هما بصديقين لانى أرى أحدهما موسرا والآخر معسرا ولو كانا صديقين لتواسيا، وقال
المأمون لندمائه: أفیکم من يقدر يدخل يده فى كم صديقه فيأخذ منه نفقة يومه فقالوا لا
فقال ما انتم بأصدقاء والصديق الصديق معدوم وأما من تصادقه مجاز فيمثل بقول القائل:

ارض من المراء فى مودته بمما يؤدي إليك ظاهره
من يكشف الناس لا يجد أحدا تصح منهم له سرائره

الهند إياك والاعتزاز بمصادقة العدو فإنها ما أوجبها الا أمر وعلة فمع ذهاب العلة
رجوع العداوة كالماء يسخن فإذا رفع عن النار عاد باردا وصفة الصديق أن يعادى من
تعاديه ويهوى من تهوى وقال بعض الحكماء صديق عدوى عدوى، وقال الشاعر:

تود عدوى ثم تزعم أننى صديقك إن رأى منك لعازب
إذا نحن أظهرنا لقوم عداوة ولان لهم منكم جناح وجانب
فلا أنتم منا ولا نحن منكم إذا أنتم سالمتم من نحارب
وليس أخى من ودنى رأى عينه ولكن أخى من ودنى وهو غائب

واعلم أن الخصال المحموده والكمال لا يوجدان فى شخص ابدا ولا بد من عيب يشويه فان اخترت صديقا ورضيته وكاشفته فبدت منه هفوة أو زلة فاغفرها فالسيف ينبو والجواد يكبو وإذا صفى الصديق فلا تناقشه فى دينه ولا مذهبه فإن ذاك يوجب القطيعة والعداوة واجر معه فى هواه من دينه إذا جرى هو فى هواك من صداقتك.

قال أبو العلاء المعرى - رحمة الله عليه:

إذا ما الخل أصفانى ودادا فسقيا فى الحياة له ورعيا
ليقرأ إن أراد كتاب موسى ويقرأ إن أراد كتاب شعيا

واصلح ما صادقت حكيما أو أديبا عاقلا عالما فإن عداوة هذا خير من صداقة الجاهل قال بعض الحكماء: الجاهل عدو نفسه فكيف يكون صديق غيره ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه.

ومتى تغير الصديق عليك فاستيقظ ذلك بقريحة حسن منك كما قال الشاعر:

وإذا استعجمت مودة خل فاعتبرها من أعين الغلمان
إن عين الغلام تنبيك عما فى ضمير المولى من الكتمان

القول على النديم: النديم فعيل بمعنى مفاعل منادم والندمان أكثر منادمة وملازمة من النديم لان زيادة اللفظ توجب زيادة المعنى، ويقال رجل رحيم ولا يقال رحمان لأنه ثناء المبالغة وفى الدعاء يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لأن رحمته فى الدنيا عمت الكافر والمؤمن والفاسق والناسك ففى الآخرة يخص برحمته المؤمنين والمسلمين دونهم واشتقاق اسم النديم من المنادمة كأنه يندم على مفارقتة لوجود الراحة به والأنس إليه، وينبغى له أن يكون حسن المبرة نبيل الهمة مستوى الذبول واطراف الأكمام نظيف المخفى من الملابس كالقلنسوة والسرراويل والتكة والجورب ومنديل الكم، فإذا كملت فيه هذه الخصال كان محبوبا إلى القلوب سهلا على الأرواح، وإذا لم يكمل كان بالضد مستثلا معيا فى العيون بغیضا على القلوب كما قيل فى أبى يعلى الكاتب القرشى:

نعمة الله لا تعاب ولكن ربما استثقلت على أقوامي
لا يليق الغناء بوجه أبى يعلى ولا نور بهجته الاسلام
دنس الثوب والعمامة والبرذو ن والنعل والقفا والغلام

وينبغى له إذا جلس للشراب مع الملك أن يجلس فى المرتبة التى لا يتجاوزها إلى ما

هو أعلى منها عنده ولا يحط نفسه عنها ولا يكثر الاتكاء بين يديه وليكن منتصب الجلوس خفيف الوطأة إن قام قام لقيامه وليحذر التبسيط والتمديد والتمطى والشاؤب والتنخع والبصاق وتفريك اليدين وفرقة الأصابع واللعب بالخاتم والعبث باللحية والعمامة ولا يكون من شأنه التعزية والتهنئة ولا التشميت عند العطسة ولا اسراع بالتحية ولا العبث بالفاكهة والرياحين والأزهار ولا تناول للشمامات ولا الاكثار من التنقل بعد الشرب ولا يرمى ثقل ما يمتصه بحيث يرى ولا يعض الفاكهة نهشا بل يقطع منها حاجته بالسكين قطعاً ولا يكثر شم الريحان ولا ادارة اليد فيه ولا يقطع رءوسه ولا ينفذه عند أخذه ولا يفركه ولا يلتقطه بعد مضغه وليكن شربه مصاً وكرعه جرعا ولا يشرب من الشراب ما لا يطبق فيزول عقله وليصب لنفسه ما يعلم أنه يقوم به ولا يرفع القدح قبل الملك ولا يصب فيه نبذاً من قبل صبه أو معه ولا يقترح صوتاً ولا يظهر الطرب ولا يوقع على تلحين ولا يبد منه هزل إن ناوله الساقى قدحاً أخذه بلا ازدياد ولا نقصان ولا مماسكة ولا مماراة فإذا أحس بنفسه سكرأ أسرع القيام والانصراف وهو يملك نفسه ولا يلمس كف الغلام عند مناولة كأس ولا يكثر ملاحظته عند معاطاته الراح ولا يشير إليه ولا يغمزه ويستحب منه أن يكون مفتناً فيجرى مجرى أبان اللاحق بما وصف نفسه للفضل بن يحيى البرمكى وذلك أنه ورد إلى بابه ليعرض نفسه وأدبه عليه فأتى إلى محمد بن زيد ان الثقفى فقال له: إن رأيت أصلحك الله أن تعرض قصتي على الأمير فقال وما فيها قال أعرض نفسى وأدبى عليه فقال عند الأمير مثلك مائة ألف فأتى منصور بن هشام فقال له: تعرض رقعتى على الأمير، فقال وما فيها فقال له: أعرض نفسى وأدبى عليه فقال فهل لك فيمن دون الأمير ليشاطرك الضياع والأموال والريق ما خلا الأهل والولد قال قد نازعتنى نفسى إلى شىء لا بدّ لى من أن أعطيها شهوتها منه فأخذ قصته فأدخلها إلى الفضل بن يحيى فاذا فيها:

أنا من بغية الأمير وكنز	من كنوز الأمير ذو ارباح
كاتب حاسب أديب خطيب	ناصر زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريد	شدة مما يكون تحت الجناح
لى فى النحو فطنة واتقاد	أنا فيه قلادة بوشاح
لو رمى بى الأمير أصلحه الله	ه رماحا حطمت سمر الرماح
غير ما عاجز ولا مسكين	طوع أمر الأمير آسى الجراح
لست بالضخم يا أمير ولا الق	زعم ولا المدحرج الدحداح

لحبة سبطة ووجه مليح
وكثير الحديث من ملح النأ
كم وكم قد خبأت عندى حديثا
فبمثلى تغلو الملوك وتلهو
أيمن الناس طائرا يوم صيد
أعلم الناس بالجوارح والخنه
كل هذا جمعت والحمد لله
لست بالناسك المشمر كمه
لو دعانى الأمير عاين منى
واتقاد كشعلة المصباح
س بصير بخافيات ملاح
هو عند الأمير كالتفاح
وما حى للمشكل القساح
فى غمد وغدوة أو رواح
ل وبالخرد الحسان الملاح
ه على أننى ظريف المزاح
ه ولا الفاتك الخليع الوقاح
سمريا كالبلبل الصياح

قال: فدعى به فلما دخل أتى كتاب من أرمينية فرماه إليه وقال له أجب عنه فأجاب من
ساعته فى عرصته فأمر له بمائة ألف درهم وكان أول داخل وآخر خارج وإذا ركب فى
الموكب فركابه مع ركاب الفضل.

ومن صفات النديم ألا يكون لجوجا ولا حسودا ولا ماريًا ولا طامح العين ولا طايش
اللب ويكون حمولا موافقا لك فى عملك ومذهبك ودينك كتوما للسر ويكون أدبيا عاقلا أو
حكيمًا فاضلا ليس على طبيعتكما منافرة طبيعية ولا عرضية بشرًا إذا حدثته وبشر إذا حدثك
كلما ازداد سكره ازداد تواضعه لك ومودته وفضله فالخمرة تحرك ما يوجد من عقل
وجهل وتبرزه فى الإنسان من القوة إلى الفعل وهى محك العقول.

صافح أبو العميل عبد الله بن ظاهر عند قدومه من سفره فقبل يده فقال عبد الله خدش
شاربك كفى فقال شوك القنقذ لا يضر بترين الاسد فتبسم عبد الله وقال كيف كنت بعدى
قال اليك مشتاقا وعلى الزمان عاتبا ومن الناس مستوحشا، أما الشوق إليك فلفضلك وأما
العتب على الزمان فلمنعه منك وأما الاستيحاش من الناس فلرضاهم بعدك فاحتبسه فلما
حضر الشراب سقاه بيده فقال:

نادمت حرا كأن البدر غرته
فعلنى برحيق الراح راحتته
معظما سيدا قد أحرز المهلا
فمت سكرًا فشكرًا للذى فعلا

بيننا أبو العباس السفاح يحدث أبا بكر الهذلى فعصف الريح فأذرت طستا من سطح إلى
المجلس فارتاع من حضر ولم يتحرك الهذلى ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح فقال ما

أعجب شأنك يا هذلي فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾^(١) وإنما لي قلب واحد فلما غمره السرور بقائده أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال فلو انقلبت الخضراء على البيضاء ما أحسست بها ولا وحت لها فقال السفاح لئن بقيت لأرفعن منك ضبعا لا يطوف به السماع ولا ينحط عليه العقبان.

ومن الآداب اللطيفة ما يحكى عن إبراهيم بن المهدي قال: كنت عند الرشيد فأتاه رسول معه أطباق عليها مناديل ورقعة فأخذ يقرأ الرقعة ويقول وصله الله وبره فقلت يا أمير المؤمنين من هذا الذي أطنبت في شكره لنشركك في جميل ذكره فقال: عبد الملك بن صالح ثم كشف عن الأطباق فإذا هي فواكه فقلت يا أمير المؤمنين ما يستحق هذا الوصف إلا أن يكون في الرقعة ما لا نعلمه فرمى بها إلى فإذا فيها دخلت يا أمير المؤمنين إلى بستان لي قد غمرته بنعمتك وقد أينعت فواكهه فحملتها في أطباق قضبان ووجهت بها إلى أمير المؤمنين ليصل إلى من بركة دعائه مثل ما وصل إلى من نوافل برة فقلت وما في هذا الكلام ما يستحق الدعاء فقال أوما ترى كنى بالقضبان عن الخيزران وهي اسم امنا.

وقال الشعبي أخطأت عند عبد الملك بن مروان أربعاً وهي حدثني بحديث فاستعدته منه فقال أما علمت أنه لا يستعاد أمير المؤمنين وقلت حين أذن لي أنا الشعبي يا أمير المؤمنين فقال ما أدخلناك حتى عرفناك وكنيت عنده رجلاً فقال أما إنه لا يكتنى أحد عند أمير المؤمنين وسألته أن يكتبنى حديثاً فقال إنا نكتب ولا نكتب.

ولما كان مجلس الشراب مؤهلاً للاستكثار من اللذات والتقلب في المسرات كان الأولى به أن يجمع من الندماء من فيه من الحذاق بالغناء ومن يكون حديثه بطرب سامعيه وملحه أحسن موقعا من الأغاني المعجبة في قلوب منادمييه كما وصفه بعض الشعراء فقال:

حديث يشرب له الفواني ويأخذ كل سمع باستماعي

فيكون للحديث نوبة وللغناء أخرى. وحكى عن بشار أنه قال لا تجعلوا مجالسكم حديثاً كله ولا غناء كله ولا هزلاً كله ولا جدّاً كله ولكن تنقلوا فان العيش خلص.

واعلم أن في النديم والخمر لذات شتى فلذة الخمر زوال الهموم والغموم والأفكار ولذة النديم المحادثة، قال الشاعر:

وما بقيت من اللذات الا محادثة الرجال ذوى العقول

وقد كانوا اذا عدوا قليلا فقد صاروا أقل من القليل

وأما أوساط الناس فيجب ألا يستكثر من الندماء ويقتصر على القليل فإن الكثير سبب اذهاب المال ووجود العداوة وفقدان المسرة وتعب القلب والجسم ولا يجب أن تصطفى ندima حتى تغضبه في الصحو فان وجدته حمولا مطاوعا قبولاً لما تأمره به يصفيك وداده حاضرا وغائبا مساعدا لك في الشدائد اذا وقعت فيها فاعتمد عليه فقلما تجد هذا النديم، وقد قال الشاعر:

إذا كنت مختاراً لنفسك صاحباً فمن قبل ان تبدئه بالود أغضبه
فإن كان في حال التعدي راضياً والا فقد جرّبته فتجنّبه

قال بعض الظرفاء شرط المنادمة قلة الخلاف، والمعاملة بالانصاف والمسامحة بالشراب، والتغافل عن الجواب، وادمان الرضى، والطراح ما مضى واسقاط التحيات، واجتناب افتراخ الاصوات، وأكل ما حضر، واحضار ما تيسر، وستر العيب.
ولقد أحسن من قال:

لا خير في الشرب إلا مع أخاتقة إن سر غنى وإن غنيته طربا
يعطيك صمتاً إذا غنيته وإذا شربت حى وإن حييته شربا
عف اللسان عفيف الفرج تحمده فى كل حال إذ ثرى وإن تربا
فاشدد يدك عليه إن ظفرت به وأكثر مودته لا تكثر الرها

كان إبراهيم بن المهدي يقول: لذة العيش في ثلاث: منادمة الأحباب ومعاقرة الشراب ومذاكرة الآداب، ويروى أن أول من جعل لندمائه أمانة ينصرفون بها من مجلسه إذا أراد ذلك كسرى وهو أنه يمد رجله فيعرفون أنه يريد قيامهم فينصرفون وتبعه الملوك فكان فيروز الاصغر يدلك عينيه وكان بهرام يرفع رأسه إلى السماء وكان في الإسلام معاوية يقول العزة لله وعبد الملك يلقي المروحة من يده، وحدث بهذا الحديث عند بعض البخلاء وسئل ما أمارته فقال: إذا قلت يا غلام هات الطعام.

والناس يختلفون في الشرب فمنهم من يرى كثرة الندماء ومنهم من يرى الانفراد ومن رأى هذا رأى جماعة من أهل الأدب قديما وحديثا ولهم فيه أشعار وأخبار ومنهم من رأى مطالعة الكتب عليها واعمال الفكرة في تصنيف العلوم والآداب، كما حكى عن الشيخ الرئيس ابن سينا أنه قال: كنت استعين على مصنفات علمى باستعمال اليسير من الخمر المصلوح من الماء ومنهم الفارابى ودليل ذلك قوله شعرا:

لما رأيت الزمان تنكسا	وليس فى العشرة انتفاع
كل رئيس به ملال	وكل رأس به صدداع
لزمت بيتى وصنت نفسا	لهما عن اللذة امتناع
أشرب مما اقتنيت راحا	لهما على راحتى شعاع
لى من قراريرها ندامى	ومن قراقيرها سماع
واجتنى من حديث قوم	قد اقفرت منهم البقاع

قال بعضهم رأيت أعرايبا جالسا بالفلات تحت ظل شجرة ومعه ركوة وهو يشرب قدحا ويصب فى أصل الشجرة قدحا فقلت له ما هذا فقال هو نديم لا يعربد على يلحقنى بظله ويحمل عنى كله.

وقال بعضهم دخلت على بعض الرؤساء فلقيته يشرب وبين يديه كلب صيد وهو يشرب قدحا ويصب قدحا بين يدى الكلب ومهما أكل طعاما أو نقلا رمى إلى الكلب منه فقلت له أتنادم كلبا فقال نعم يكف عنى أذاه ويحرسنى من أذى سواه يشكر قليلى ويحفظ مبيتى ومقيلى وأنشد شعرا:

وأشرب وحدى من كراحتى الأذى	مخافة شر أو سباب لثيم
وقال الشيخ صفى الدين الحللى وأجاد:	
إذا لم أجد للراح خلا موافيا	فلى بى أنس كامل حين أشرب
لسانى يغنينى وفكرى منادى	وكفأى تسقينى وقلبى يطرب

ومما يجب على ذوى السيادة والمروءة أن يسامحوا نديمهم إذا وقعت منه هفوة أو غفلة.

وما أحسن قول خالد الشكرى:

ولست بلاح لى نديما بزلة	ولا هفوة كانت ونحن على الخمر
عزلت بجنبى قول خلى وصاحى	ونحن على صهباء طيبة النشر
فلما تمادى قلت خذها غريقه	فانك من قوم حجاجحة زهر
فما زلت أسقيه وأشرب مثلما	سقيت أخى حتى بدا وضح الفجر
وخر صريعا للجبين موسدا	فوسدته واخترت حملى على الهجر
وأيقنت أن السكر طار بلبسه	فأغرق من شمتى وقال ولم يدر
وزال لسان كان إذ كان صاحيا	يقلبه فى كل فن من الشعر

وقال أبو نواس - رحمة الله عليه:

ولست لنديم صددق وقد أخذ الشراب بوجتته
تناولها والا لم أذقها فبأخذها وقد ثقلت عليه
ولكني آخذ الكأس عنه وأصرفها بعبسة حاجبيه
وإن رام الوساد لنوم سكر دفعت وسادتي أيضاً إليه
وهذا ما حببت له وإنى أبر له من والديه

ولله در الصاحب بن عباد: قد حملت أوزار السكر على ظهور الخمر.

وتلطف من قال:

وطويت بساط الشراب على ما فيه من خطأ وصواب
وقال أيضاً:

تعلم في مرافقة النديم مطاوعة الأراكة للنسيم
وعاشره بأخلاقى فنانى وحقق عبداً رق للنديم
أعاطيه أحاديثى وكأسى فيسكر بالحديث وبالقديم

وقال ابن المعتز:

وندامى فى شباب وحسن أتلفت ما لهم نفوس كرام
بين أقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام
وغناء يستعجل الراح بالرا ح كما ناح فى الفصون الحمام
فكان السقاة بين الندامى الفات بين السطور قيام

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة - رحمه الله:

بروحى نديم يشهد العقل أنه قضى العمر باللذات وهو خبير
تذكر مزج الكأس عند وفاته فأوصى لها بالثلث وهو كثير

وأنشدنى من لفظه لنفسه أقضى القضاة بدر الدين محمد المخزومى:

ورب نهار فيه نادمت أغيدا فما كان أحلاه حديثاً وأحسنا
منادمة فيها منادى فحبذا نهار تقضى بالحديث وبالمنا

كتب إلى الحسن بن وهب صديق له من أهل الأدب فصلاً من كتاب قال فيه وقد قسمك الله بين طرفى وقلبي ففى مشهدك أنس قلبي يرويه طرفى وفى بعدك لهو طرفى يذكر قلبي، فأجابه الرجل: فهمت كتابك الذى أخبرت فيه بما أخبرت فسيان عندك على هذا

رأيتنى أم لم ترنى إذ كان بعضك يؤنس بعضا وحضور أعضائك تنوب لك عن حضورى
لكننى أراك فيخشع قلبى وأغيب عنك فيدمع طرفى فسيان بين من سلا أبدا ومن حزن دهره.
سئل إسحاق الموصلى عن عدد الندماء فقال واحد هم واثنان غم وثلاثة نظام وأربعة
تمام وخمسة مجلس وستة زحام وسبعة موكب وثمانية سوق وتسعة جيش وعشرة نعوذ بالله
من شرهم وضرهم.

قال أبو العينا: رب وحشة أنفع من أنيس ووحدة أمتع من جليس.
وقال الجاحظ:

أرى للكأس حقا لا أراه لغير الكأس الا للنديم
هو القطب الذى دارت عليه رحا اللذات فى الزمن القديم
وكتب المرحوم فتح الدين محمد بن الشهيد إلى القاضى أمين الدين ابن الانفى
المالكي تغمده الله برحمته - وكان قد تأخر عن زيارته:

حتام فى سجن الصدود سرور عبدك يحتبس
معنى الجفاء فهمته قد زدت فى المعنى قبس
وأغث بأنفاس الرضا نفسى فما فيها نفس
يا مالكي بأبيك زر نروى الزيارة عن أنس
أقرأ ألم نشرح فكم نلقاك تقرأ فى عبس
العمر أنفس أن تعيب ش نهار همك كس الغلس
إن الحياة لغفوة والعيش طيف يختلس

الباب العشرون

في مسامرة أهل النعيم

الليلة الأولى: حكى أنه كان بمدينة بغداد رجل من أولاد النعيم ورث من أبيه مالا جزيلا وكان يتعشق قينة فأنفق عليها أشياء ثم اشتراها وكانت تحبه كما يحبها ولم يزل ينفق عليها ماله وهو في أكل وشرب إلى أن لم يبق له شيء وأفلس فطلب معاشا يعيش فلم يقدر على شيء، وكان الفتى في أيام سعادته يحضر القينة في صناعة الغناء لتزداد في صناعتها فبلغت في الصناعة الغاية التي لم يدركها أحد سواها وكان الفتى قد علم من صناعة الغناء مثلها وأوفى فاستشار بعض إخوانه ومعارفه فقالوا له ما نعرف لك معاشا أصلاح من أن تغنى أنت والجارية فتأخذ على ذلك المال الكثير وتأكل وتشرب وأنت كل يوم طيب العيش فأنف من ذلك وعاد إليها فأخبرها بما أشير به عليه وأعلمها أن الموت أحب إليه من ذلك فصبرت معه على الشدة ثم قالت لقد رأيت لك رأيا قال ما هو قالت تبعني فإنه يحصل لك من ثمنى ما إن تعيش فيه عيشا طيبا وتتخلص من هذه الشدة وأخلص أنا وأحصل على نعمة فإن مثلى لا يشتريه الا ذو نعمة وبه أكون السبب في رجوعى اليك قال فحملها إلى السوق فكان أول من أعرضها عليه فتى هاشميا من أهل البصرة ظريف أديب كريم النفس واسع الحال فاشتراها بألف وخمسمائة دينار عينا فقال الرجل حين لفظت بالبيع وقبضت المال ندمت غاية الندامة وبكى أشد بكاء وصارت الجارية في أقبح من صورتي وجهدت في الإقالة فلم يكن إلى ذلك سبيل وأخذت الدنانير في الكيس ومضيت لا أدري إلى أين أذهب لأن بيتي موحش منها وورد على من البكا واللطم والنحيب شيء لا أصفه قال فدخلت بعض المساجد وجلست أبكى فيه وأفكر فيما نابنى وفيما عملت بنفسى فحملتنى عيني وتركت الكيس تحت راسى كالمخدة ونمت فلم أشعر إلا بإنسان قد جذبني من تحت راسى ومضى يهرول فانتبهت فزعا فطلبت الكيس فوجدته قد أخذ فقمت أريد أجرى وراءه وإذا برجلى مربوطة فى جبل والجبل فى وتد فوقعت على وجهى وإلى حين أن أخلص رجلى هرب ذلك الرجل عنى فبقيت ألطم على وجهى ورأسى وقلت فارت من أحب وذهب المال فكيف حالى فزاد بى الأمر إلى أن جئت إلى الدجلة ووضعت ثوبى على وجهى ورميت روحى فى الدجلة فظن الحاضرون لى وأن ذلك لغيب نالنى فرموا أرواحهم خلفى

فسالونى وسألونى عن أمرى فأخبرتهم خبرى فصرت بين راحم ومستجهل إلى أن جاءنى شيخ منهم فأخذ بغصتى وقال لى يا هذا ذهب مالك وتذهب نفسك وتكون من أهل النار فثق بالله العظيم قم معى فأرنى بيتك فما فارقتى حملتنى إلى منزلى وقعد عندى حتى رأى السكون فى فشكرته وانصرف فكدت أقتل نفسى فتذكرت الآخرة والنار فخرجت من بيتى هاربا إلى بعض أصدقائى القدماء فأخبرته بخبرى وما جرى على فبكى لى رحمة وأعطانى خمسين دينارا وقال اقبل رأى واخرج الساعة من بغداد واجعل هذه نفقة لك إلى حيث تجد قلبك تشاغل وأنت من أولاد الكتاب وخطك جيد وأدبك بارع فاقصد من شئت من العمال فاطرح نفسك عليه فلعله أن يستخلفك فى شىء تنتفع به وتعيش معه ولعل الله - عز وجل - أن يجمع عليك جارىتك فعملت على هذا وجئت إلى الكتبيين وقد قوى حالى وزال عنى بعض الهم واعتمدت على أننى أقصد واسط لأنه كان لى بها أقارب فإذا زلال مقدم وجراية كبيرة وقماش فاخر ينقل إلى الزلال فسألتهم أن يحملونى إلى واسط فقالوا هذا الزلال لرجل هاشمى ولا يمكننا حملك على هذه الصورة فسألتهم أن يحملونى وأرغبتهم فى الاجرة فقالوا اذا كان ولا بد اخلع هذه الثياب التى عليك والبس ثياب الملاحين واجلس معنا كأنك واحد منا فرجعت واشتريت من ثياب الملاحين وجئت إلى الزلال بعد أن اشتريت خيزا وما يصلح للسفر وجلست معهم فما كان إلا ساعة حتى رأيت جارىتى بعينها ومعها جارىتان يخدمانها فسهل على ما كان بى وقلت أراها واسمع غناها من هنا إلى البصرة واعتقدت أن أجعل قصدى البصرة وطمعت أن أداخل مولاها وأصير من ندمائه وقلت لعلها لا تخلىنى من المراد وكنت واثقا بها فلم يكن اسرع من أن جاء الفتى الهاشمى راكبا ومعه عدة ركبان فنزلوا فى الزلال وانحدروا فلما صار عند كلوادى أخرج الطعام وأكل والجارية وأكل الباقون على وسط الزلال وأطعم الملاحين ثم أقبل على الجارية فقال لها كم هذه المدافعة عن الغناء ولزوم الحزن والبكاء لست أنت أول من فارق مولا كان لها محبا فعلمت ما كان عندها من أمرى ثم ضربت ستارة فى جانب الزلال واستدعى اللذين يأكلون ناحية جلس معهم خارج الستارة فسألت عنهم فإذا هم اخوته ثم أخرج الصوانى فيها الخماسيات والحرادابات من المحكم مملوءة شرابا فقرت عليهم وقدمت لهم الانتقال وما شاكل ذلك وما زالوا يرفقون بالجارية إلى أن استدعت بالعود وأصلحته واندفعت تغنى من البعيد الأول وهو:

بأن الخليط بمن عرفت فأدلجوا عمدا بمن أهواه لم يتحرجوا
وغدت كأن على ترائبى نحرها جمر الغضا فى ساعة تأجج

ثم غلبها البكاء ورمت العود وقطعت عن الغناء وتنغص على القوم مشربهم ووقعت أنا مغشياً على فظن القوم أنى قد صرعت فصار بعضهم يقرأ فى أذنى وأفقت بعد ساعة فلم يزالوا يدارونها ويرفقون بها ويسألونها إلى أن أصلحت العود واندفعت تغنى فى البعيد الثانى:

فوقفت أندب للذين تحملوا وكان قلبى بالشفار يقطع
فدخلت دارهم أسائل عنهم والدار خالية المنازل بلقع

ثم شهقت شهقة كادت تلتف وارفع بكأوها وصرخت أنا ووقعت مغشياً على وتبرم الملاحون منى وقالوا كيف حملتم هذا المجنون فقال بعضهم إذا بلغتم بعض القرى فأخرجوه وأريحونا منه فجاءنى من ذلك أمر عظيم ثم وضعت على نفسى الصبر والتجلد وقلت أعمل الحيلة فى أن أعلمها بمكانى من الزلال لتضع من إخراجى وبلغنا إلى قريب ضيعة فقال صاحب الزلال اصعدوا بنا إلى الشط فطرحوا القماش وطلعوا وكان مساء فطلع الملاحون وخلا الزلال فقامت حتى صرت خلف الستارة فغيرت طريقة العود عما كانت عليه إلى طريقة أخرى وكانت تعلمها منى فرجعت إلى موضعى من الزلال وفرغ القوم من حوائجهم فى الشط ورجعوا والقمر قد انبسط فقال لها مولاها بالله عليك لا تنغصى علينا عيشنا ولم يزلوا إلى أن أخذت العود وجسته وشهقت حتى ظنوا أن روحها قد طلعت وقالت والله مولاى معى فى الزلال فقال لها مولاها والله يا هذه لو كان معنا ما منعت من معاشرتنا ولعله كان يخف ما بك ونتنفع بغنائك ولكن هذا بعيد قالت هذا مما لا أسمعه مولاى معنا قال الهاشمى فسأل الملاحين قالت افعل فسأل الملاحين وقال هل حملتم معكم أحداً قالوا لا وأشفقت أن ينقطع السؤال فصحت نعم هو ذا أنا فقالت كلام مولاى والله فجاءنى الغلمان فحملونى إلى الرجل حملاً فلما رآنى عرفنى وقال ويحك ما هذا الزى وما الذى أصابك إلى أن صرت إلى هذه الحالة قال فصدقته عن أمرى وبكى وأعلى نحيب الجارية من خلاف الستارة وبكى هو وإخوته بكاءً شديداً رقة لنا قال لى يا هذا والله ما وطئت الجارية ولا سمعت لها غناء الا اليوم وأنا رجل موسع والله الحمد وإنما وردت بغداد لسماع الغناء وطلب أرزاقى من أمير المؤمنين وقد بلغت الأمرين مما أردت ولما علمت أنى أريد الرجوع إلى وطنى قلت أسمع من غناء بغداد شيئاً فاشتريت هذه الجارية لأصير بها عند مغنيات لى بالبصرة وإذا كنتما على هذه الحالة فوالله لأنالن المكربة والثواب فيكما وأشهد الله تبارك وتعالى على أن هذه الجارية إذا وصلت إلى البصرة أعتقتها وأزوجك إياها وأجرى عليكما ما يكفيكما وزيادة ولكن على شريطة أننى إذا أردت الاجتماع تضرب لها ستارة

وتغنى من خلفها ونحن مع بعضنا لا تبخل علينا بذلك وأنت من جملة إخوانى وندمانى
ففرحت بذلك ثم أدخل رأسه إلى الجارية وقال يرضيك ذلك فأخذت تدعو له وتشكره ثم
استدعى غلامه فقال خذ بيد الغلام ومد به بثياب وبخره وقدمه إلينا بعد أن يأكل شيئاً وفعل
لى الغلام ما أمر به وعدت إليه فحط بين يدى مثل ما بين أيديهما من الشراب والنقل ثم
اندفعت الجارية تغنى بانبساط وهو:

عيرونى بأن سفحت دموعى	حين هم الحبيب بالتوديع
زعموا أننى تهتكت فى الحب	ب ما أريد غير مطيع
لم يذوقوا طعم الفراق ولا ما	أحرق لوعة الأسى من ضلوع
كيف لا أسفح الدموع على رسم	عفا بعد ساكن وجموع
هب إن كتمت حالى لا تخفى	زفرات المتيم المصدوع
إنما يعرف الغرام لمن لا	ح عليه الغرام بين الربوع

فطرب القوم من ذلك طرباً شديداً وزاد فرح الفتى بذلك فلما رأيته على ما هو عليه من
الفرح أخذت العود من الجارية وأصلحته وضربت به فى أحسن صنعة وغناء واندفعت
أقول:

اسأل العرف إن سألت كريما	لم يزل يعرف الغنى واليسارا
فسؤال الكريم يورث عزا	وسؤال اللثيم يورث عارا
وإذا لم يكن من الذل بد	فالق بالذل إن لقيت الكبارا
ليس اجلالك الكريم بذل	إنما الذل أن تجل الصغارا

ففرح القوم بى وزاد فرحهم وأنسوا بى غاية الإناس ولم نزل على مسرة وسرور وغبطة
وحبور وأنا أغنى ساعة وهى تغنى ساعة كذلك إلى أن جئنا إلى بعض الشطوط فارسى الزلال
وصعد من الزلال كل من فيه وقضوا حوائجهم وضعدت أنا أيضا وكنت سكرانا فقعدت
أبول فأخذتنى عيني فنست وطلع القوم وانحدر الزلال ولم يعلموا بى وهم سكارى وكنت
دفعت النفقة التى معى إلى الجارية ولم يبق معى حبة واحدة وأن القوم انحدروا ووصلوا
إلى البصرة ولم أنتبه أنا إلا من حر الشمس فجئت إلى الشط فلم أر حسا وقد كنت أجللت
الرجل أن أسأله بمن يعرف وأين داره من البصرة فبقيت على شاطئ نهر معتلا كأول يوم
بدأت فى المحبة وكان ما كنت فيه مناما واجتازت بى سمارية فحملت فيها ودخلت إلى
البصرة وما كنت دخلتها قط فنزلت خاناً وبقيت متحيرة لا أدرى ما أعمل ولم يتجه لى

معاش إلى أن اجتاز بى يوما إنسان كنت أعرفه ببغداد فتبعته لاكشف له حالى وأسترده ثم أنفت من ذلك ودخل منزله فعرفته وجئت إلى بقال على باب الخان الذى نزلته فأعطيته دانقا وأخذت منه دواة وورقة وجلست أكتب إليه رقعة فاستحسن خطى البقال ورأى ثوبى دنسا فسألنى عن أمرى فأخبرته أنى رجل غريب فقير قد تعذر على التصرف وما بقى معى شىء فقال تعمل معى كل يوم بنصف درهم وطعامك وكسوتك وتضبط لى حساب دكانى فقلت له نعم قال لى اصعد فصعدت وخرقت الرقعة وجلست معه ودبرت أمره وضبطت دخله وخرجه فلما كان بعد شهر رأى الرجل دخله زائدا وخرجه ناقصا فحمدنى وبقيت معه كذلك شهورا ثم جعل لى كل يوم درهما ولم يزل حالى يقوى معه إلى أن حال الحول فناله منى الصلاح فدعانى إلى أن تزوجت بابتته وشاركنى فى الدكان ففعلت ودخلت بزوجتى ولزمت الدكان والحال يقوى إلا أنى فى خلال ذلك مكسور النفس ميت النشاط ظاهر الحزن وكان البقال يشرب فرىما جذبنى إلى مساعدته فأمتنع وأظهر ذلك حزنا منى واستمرت بى الحال على هذا ستين وأكثر فلما كان فى بعض الايام اذا قوم يجتازون بطعام وشراب وكل أحد على ذلك فسألت الشيخ عن القصة فقال لى هذا اليوم عيد الشعانين يخرج أهل الطرب واللعب والشراب والقينات إلى نهر الابله فيرون النصارى ويشربون ويتفرجون فدعتنى نفسى إلى هذا وقلت لعلى أقف لأصحابى على خبر فقلت للبقال كنت اريد النظر إلى هؤلاء قال لى شأنك وأصلح لى طعاما وشرابا وسلم إلى غلاما وسفينة فخرجت فأكلت وبدأت بالشراب حتى وصلت إلى الابله وابتدأ الناس ينصرفون وعزمت على الانصراف وإذا أنا بالزلزال بعينه فى وسط الناس سائرا فى نهر الابله فتأملت وإذا بأصحابى على سطحه ومعهم عدة مغنيات فحين رأيتهم لم أتمالك فرحا وصحت بهم فلما رأونى عرفونى وأخذونى إليهم وقالوا لى أنت حى وعانقونى وفرحوا بى وسألونى عن قصتى فأخبرتهم بها على أتم شرح وقالوا إنا لما فقدناك فى الحال وقع لنا أنك قد سكرت ووقعت فى الماء وغرقت فخرجت الجارية من ثيابها وكسرت عودها وقطعت شعرها ولطمت وجهها وأقبلت على البكاء والنحيب ولم نقدر نمنعها من ذلك ووردنا البصرة فقلت لها ما تحبين أن يعمل بك فقد كنا وعدنا مولاك بوعد تمنعنا المروءة من استخدامك بعده وسماع غناك قالت يا مولاى تملكنى من القوت اليسير ولباس ثياب الشعر السواد وأن أعمل قبرا فى جنب من الدار وأجلس عنده واتوب عن الغناء فملكناهما من ذلك وهى جالسة عنده إلى الآن فأخذونى معهم ومضوا بى فلما دخلت إلى الدار ورأيتها على تلك الصورة واهى شهمت

شهقة عظيمة ما ظننت أنها تعيش فاعتنقنا عناقا طويلا ثم افترقنا ثم قال مولاهم تأخذها قلت نعم أعتقها كما وعدت وزوجني بها ففعل ذلك ودفع إلينا ثيابا كثيرة وفرشا وقماشاً وآلة وحمل إلى خمسمائة دينار وقال هذا مقدار ما أردت أجريه عليك في كل شهر منذ أول دخول البصرة وقد اجتمع طول هذه المدة نخذه والجارية متسابقة في كل شهر وشيء آخر لكسوتك وكسوة الجارية والشرط في المنادمة وسماع الجارية من وراء السترة وقد وهبت لك الدار الفلانية قال فحملت إلى الدار فإذا قد غمرت بالفرش والقماش وجميع ما أصحابه وحملت إليها الجارية وجئت إلى البقال فحدثته الحديث وسألته أن يجعلني في حل من طلاقه لابتته بغير ذنب ودفعت إليه مهرها وما يلزمني من أمرها وأقمت مع الهاشمي على ذلك الحال سنين وصرت رب ضيعة ونعمة وعادت حالتى إلى قريب ما كنت فيه أنا والجارية وفرج الله الكريم عنا وسهل لنا الأمور بالإحسان وهذا ما كان من حديثهم والحمد لله حمدا كثيرا.

الليلة الثانية: حدث أبو العباس بن يزيد النحوى المعروف بالمبرد قال حدثنا محمد بن عامر الحنفى وكان من سادات بكر بن وائل وأدركته شيخا كبير القامة مملقا وكان إذا فاض على املاقه شيئا جاد به وقد كان ولى قديما شرطة البصرة فحدثنى هذا الحديث الذى نذكره ووقع لى من غير ناحيته ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان إلا أن معانى الحديث مجموعة فيما أذكر لك:

ذكر أن فتيانا كانوا مجتمعين فى نظام واحد كلهم أبناء نعمة وكلهم شرد عن أهله وقنع بأصحابه فذكر ذاكر منهم قال كنا قد اكترينا دارا مشرفة على الطريق ببغداد المعمورة بالناس فكنا نفلس أحيانا ونوسر أحيانا على مقدار ما يملق الواحد من أهله وكنا لا نستنكر أن تقع مؤننا على واحد منا إذا أمكنه ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول وكنا إذا أيسرنا أكلنا ودعونا الملهين والملهيات وكنا فى أسفل الدار فإذا عدنا الطرب فمجلسنا غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس وكنا لا نخلو من نبيذ فى عسر ولا يسرفنا كذلك يوما إذا بفتى يستأذن علينا فقلنا له اصعد فإذا رجل نظيف حلو الوجه سرى الهممة يظهر عليه أنه من أبناء النعم فأقبل علينا وقال إنى سمعت باجتماعكم والفتكم وحسن منادمتكم حتى كأنكم أدخلتم جميعاً فى قالب واحد فأحببت أن أكون واحدا منكم فلا تحتشمونى قال فصاذف ذلك منا اقتارا من القوت وكثرة من النبيذ وقد كان قال لغلامه أول ما يأذنوا لى أن أكون كأحدهم هات ما عندك فغاب عنا غير كثير ثم إذا هو أتى بسلة خيزران وفيها طعام مطبوخ من جدى وفراخ ورقاق وأشنان ومحلب داخله فأصبنا من ذلك

ثم أفضينا فى شربنا وانبسط الرجل وإذا هو أحيى خلق الله إذا حدث وأحسنهم استماعا إذا حدث وأمسكهم عن الملاحات إذا خولف تم أفضينا فى شربنا وانبسط الرجل فإذا هو أحسن الناس خلقا وخلقا وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذى نعلم أنه يكرهه فيظهر لنا ألا نريد غيره ونرى ذاك فى اشراق وجهه ونسبه فلم يمكن منا غير معرفة الكنية فإننا سألناه عنها فقال أبو الفضل فقال لنا يوما بعد اتصال الأنس ألا أخبركم كيف عرفتم قلنا إنا لنحب ذاك قال أحببت فى جواركم جارية وكان سيدها ذا عزائم وكنت أجلس لها فى الطريق التمس اجتيازها فأراها حتى أخلفتى الجلوس على الطريق ورأيت غرفتكم هذه فسألت عن خبرها فخبرت عن ائتلافكم ومساعدة بعضكم بعضا فكان الدخول فيما أنتم فيه أثر عندى من الجارية فسألناه عنها فخبرنا، قلنا ما نريد عنها لك حتى نظفرك بها فقال يا اخوتى إني والله على ما ترون منى من شدة المحبة والكلف بها ما قدرت فيها حراما قط ولا تقديري الا مطاولتها ومصايرتها إلى أن يمن الله بثروة فاشتريها وأقام معنا شهرين ونحن على غاية الاغتباط بقربه والسرور بصحبته ثم اختلس منا فالتنا لفراقه كل ممض ولوعة مؤلمة ولم نعرف له منزلا نلتمسه منه فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به وقبح عندنا ما كان حسن بقربه وجعلنا لا نرى سرورا ولا غما إلا إذا ذكرنا اتصال الأنس والسرور بحضوره والغم بمفارقه فكنا كما قال القائل:

يذكرنيهم كل خير رأيته وشر فما أنفك منهم على ذكرى

فغاب عنا زهاء عشرين يوما ثم بينما نحن مجتازون من الرصافة إذا به قد طلع فى موكب نبيل وزى جليل فحيث بصرنا به انحط عن دابته وانحط غلماناه ثم قال يا اخوتى إني والله ما هنا لى عيش بعدكم ولست أملككم بخبرى حتى آتى المنزل ولكن ميلوا بنا إلى المسجد فملنا معه فقال أعرفكم أولا بنفسى أنا العباس بن الاحنف وكان من خبرى بعدكم أنى خرجت إلى منزلى من عندكم فإذا المسودة محيطة بى فمضى بى إلى دار أمير المؤمنين فصرت إلى يحيى بن خالد فقال لى ويحك يا عباس إنما أخبرتك من طرفاء الشعر لقرب مأخذك وحسن ماينك وأن الذى ندبتك له من شأنك وقد عرفت خطرات الخلفاء وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالية على أمير المؤمنين اليوم وأنه جرى بينهما عتاب فهى بدلالة المعشوق تأبى أن تعتذر وهو بعز الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك وقد رمت الامر من قبلهما فأعيانى وهو أخرى أن تسقره الصباة فقل شعرا يسهل عليه هذه السبيل ففضى كلامه ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه وأعطيت دواة وقرطاسا فاعترانى الزمع وأذهب عنى كل

قافية ثم انفتح لى شىء والرسل بين يدى فجاءتنى أربعة أبيات رضىتها وقعت صحيحة المعنى سهلة الألفاظ ملائمة لما طلب منى فقلت لأحد الرسل أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعة أبيات فإن كان فيها مقنع وجهت بها فرجع إلى الرسول بأن هاتها ففى أقل منها مقنع وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروى وكتبت الأربعة الأبيات فى صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فكتبت:

العاشقان كلاهما متعجب	وكلاهما متوجد متغضب
صدت مغاضبة وصد مغاضبا	فكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحببتك الذين هجرتهم	إن المتيم قل ما يتجنب
إن التجنب إن تطول منكما	دب السلولة فعز المطلب

وكتبت تحت ذلك:

لا بد للعشاق من وقفة	يكون بين الصمد والصرم
حتى إذا ما الهجر تمادى به	راجع من تهوى على رغم

ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد فرفعه يحيى إلى الرشيد فقال والله ما رأيت شعرا أشبه بما نحن فيه من هذا والله لكأنى قصدت به فقال له يحيى فأنت والله المقصود به هذا يقوله العباس بن الاحنف فى هذه القصة فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله راجع من تهوى على رغم استغرب ضاحكا حتى سمعت ضحكه ثم قال أى والله أراجع على رغم يا غلام هات النعل فنهض وأذهله السرور عن أن يأمر لى بشىء فدعانى يحيى فقال لى إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لى بشىء قلت لكن هذا الخبر ما وقع منى بموافقة ثم جاء فساره فنهض وثبت مكانى ثم نهضت بنهوضه فقال لى يا عباس أمسيت أملئ الناس أتدري ما سارنى به هذا الرسول قلت لا قال قد ذكرنى ماردة بلغت أمير المؤمنين لما علمت بمحبته فقالت يا أمير المؤمنين كيف هذا فأعطاها الشعر وقال هذا أتى به إليك قالت فمن يقوله قال العباس بن الاحنف قالت ما فعلت معه قال ما فعلت شيئا بعد قالت إذا والله لا أجلس حتى يكافئ قال فأمر المؤمنين قائم لقيامها وأنا قائم بقيام أمير المؤمنين وهما يتناظران فى صلتك فهذا كله لك قلت ما لى من هذا كله الا الصلة ثم قال هذا أحسن من شعرك فأمر أمير المؤمنين بمال كثير وأمرت ماردة بمال دونه وأمر الوزير بمال دون ما أمرت به وحملت على ما ترون من الظهر ثم قال الوزير من تمام اليد قبلك ألا ترجع من الدار حتى يؤتى لك بهذا المال ضياعا فاشترت لى ضياع بعشرين ألف دينار ودفع إلى بقية المال فهذا الخبر الذى عاقنى عنكم فهلما حتى أقاسمكم

الضياع وأفرق فيكم المال فقلنا له هناك الله بمالك وكلنا راجع إلى نعمة من الله فأقسم وأقسمنا قال فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشترها فمشينا إلى صاحبها وكانت جارية جميلة حلواء لا تبخس شيئاً أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل وكانت تساوى على وجهها مائة وخمسين ديناراً فلما رأى مولاهما أسامنى فيها خمسمائة دينار فأوحيناه بالعجب فحط مائة ثم حط مائة وقال العباس يا فتيان إنى والله أقسم أحتشم بعد ما قلتُم ولكنها حاجة فى نفسى بها يتم سرورى فإن ساعدتم فعلت قلنا له قل قال هذه الجارية أنا عايبتها منذ دهر وأريد إيثار نفسى بها يتم سرورى فإن ساعدتم فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ماكس فى ثمنها فأعطيه فيها خمسمائة دينار كما سأل قلنا فإنه قد حط مائتين قال وإن فعل فصادفنا من مولاهما رجلاً حراً فاخذ ثلاثمائة دينار وجهزها بالمائتين فما زال لنا محباً إلى أن فرق الموت بيننا.

الليلة الثالثة: حدث عبد الرحمن بن عمر الفهرى عن رجال سماهم قال أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة أناس من البصرة كانوا يرمون بالزندقة عنده فحملوا إليه فيينما أحد الطفيليين جائزاً إذ رآهم مجتمعين فقال ما اجتمع هؤلاء الا لوليمة فأنزل معهم ودخل فى جملتهم ومضى بهم المتوكلون إلى البحر فأطلععوهم فى زورق قد أعد لهم فقال الطفيلى كأنها نزهة فأصعد معهم فى الزورق فلم يكن بأسرع من أن قيد القوم فقيدوا الطفيلى معهم فعلم أنه قد وقع ورام الخلاص فلم يقدر ثم دفع الملاح وساروا إلى أن وصلوا بغداد وحملوا على دخول المأمون فأمر بضرب أعناقهم فاستدعوا بأسمائهم رجلاً رجلاً وهو يقتل حتى لم يبق الا الطفيلى وفرغت العدة فقال المأمون للمتوكلين بهم ما هذا قالوا يا أمير المؤمنين ما ندرى غير أنا وجدناه مع القوم فجئنا به فقال له المأمون ما قصتك ويلك فقال يا أمير المؤمنين امرأته طالق إن كان يعرف من أقوالهم شيئاً ولا يعرف غير لا إله إلا الله محمد رسول الله وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت أنهم يدعون إلى مآذبة أو دعوة فالتحقت بهم قال فضحك المأمون ثم قال بلغ من شؤم التطفيل إلى أن أدخل صاحبه هذا المدخل لقد سلم هذا الجاهل من الموت ولكن يؤدب حتى يتوب.

قال وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً يومئذ فقال يا أمير المؤمنين هبه لى واحديثك بحديث عن نفسى فى التطفيل عجيب، قال قد وهبته لك، هات حديثك، قال:

يا أمير المؤمنين خرجت يوماً متنكراً أنظر إلى سكك بغداد فاستهوى بى التفرج وانتهى بى المشى إلى موضع شملت فيه روايح طعام وأبازير قد تآقت نفسى إليها ووقفت يا أمير

المؤمنين لا أقدر على المضى فرجعت بصرى فإذا شباك ومن خلفه كف ومعصم ما رأيت أحسن منه فوقفت حائرا ونسيت روايح الطعام بذلك الكف والمعصم فأخذت فى اعمال الحيلة فى الوصول فنظرت فإذا بخياط قريب من ذلك الموضع فقدمت إليه وسلمت عليه فرد على فقلت يا سيدى لمن هذه الدار قال يا سيدى لرجل من البزازين قلت فما اسمه قال فلان ابن فلان قلت هو ممن يشرب الخمر قال نعم وأظن اليوم عنده دعوة وليس ينادم الا تجارا مثله فبينما نحن فى الكلام إذ أقبل رجلان راكبان فقال هؤلاء ندماؤه فقلت ما أسمائهما وما كنههما فقال فلان وفلان فحركت دابتي فلحقتهما وقلت جعلت فداكما قد استبطأكما أبو فلان - أعزه الله - وسائرتهما حتى أتيا الباب فدخلت ودخلا فلما رآنى صاحب المنزل معهما لم يشك فى أنى منهما بسبيل فرحب بى وأجلسنى فى أفضل المواضع ثم جىء بالمائدة ونقل إليها الألوان فكان طعمها يا أمير المؤمنين أطيب من رائحتها فقلت فى نفسى هذه الألوان قد من الله على ببلوغ الغرض منها يبقى الكف والمعصم ثم جىء بالوضوء فغسلنا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة فإذا هو أشكل منزل وأظرفه فى سائر أموره وجعل صاحب المنزل يلطف ويقبل على فى الحديث لظنه أنى ضيف لاضيفه وهم على مثل ذلك يظنون أن إكرامه لى عن معرفة متقدمة وصداقة حتى شربنا أقداحا خرجت علينا جارية كأنها غصن بان فى غاية الظرف وحسن الهيئة فسلمت غير خجلة وأتيت لها وسادة فجلست وأتى بعود فأخذته وحبسته أحسن حبس واندفعت تغنى فغنت:

توهمها طرفى فأصبح خدها وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
وصافحها كفى فآلم كفها فمن لمس كفى فى أناملها عقر
فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالى وطربت لحسن شعرها وحذقها ثم اندفعت فغنت
أيضاً:

أشرت إليها هل عرفت مودتى فردت بطرف العين إننى على العهد
فحدثت عن الإظهار حفظاً لسرها وحادثت عن الإظهار حفظاً على عهد
فجاءنى من الطرب ما لم أملك معه نفسى وطرب القوم طرباً شديداً ثم غنت:
أليس عجيباً أن بيتنا يضمن وإياك لا تخلو ولا تتكلم
سوى أعين تبدى سرائر نفس ونقطيع أنفاس على النار تضرم
إشارة أفواه وغمر حواجب وتكسير أجفان وكف تسلم

فحسدتها على حذقها يا أمير المؤمنين واصابتها معنى الشعر لأنها لم تخرج من الفن الذى ابتدأت فيه فقلت قد بقى عليك يا جارية شىء فرمت بالعود وقالت متى كتتم

تحضرون فى مجالسكم البغضاء فندمت على ما كان منى ورأيت القوم كأنهم تنكروا بى
فقلت فى نفسى فاتنى جميع ما أملت أن لم أنلافى قضيتى فقلت أثم عود قالوا نعم فأتيت
بعود مليح الصنعة فأصلحت ما أردت ثم اندفعت فغنيت:

ما للمنازل لا تجيب حزينا أصم أم قدم الليل البلا فبلىنا
روح الفتية دوحة مذكورة إن مت متنا وإن حبيت حيننا

فما استमित يا أمير المؤمنين حتى وثبت الجارية على رجلى تقبلها وتقول معذرة اليك
والله ما علمت مكانك ولا سمعت مثل هذه الصنعة من أحد ثم زاد القوم فى اكرامى
وتجلى طربوا غاية الطرب وشربوا بالطاسات، فلما رأيت طربهم اندفعت فغنيت:

أبى الله أن تمسين لا تذكرينى وقد سمحت عيناي من ذكرك الدما
إلى الله أشكو بخلها وسماحتى لها غسل منى وتبدى علقما
فردى مصاب القلب أنت قتلتها فلا تركيه ذاهب العقل مغرما
إلى الله أشكو أنها أجنبية أكون لها ما عشت بالود محرما

فأريت من طرب القوم شيئاً خشيت أنهم فارقوا عقولهم فأمسكت عنهم ساعة ثم
راجعت أمرهم لما هدأت نفوسهم واندفعت وغنيت:

هذا محبك مطويا على كمدته صب مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راجية مماته ويد أخرى على كبده
يا من رأى كفا مستنهرها دققا كانت منيته فى طرفه ويده

فجعلت الجارية تصبح هذا والله الغناء لا ما نحن فيه وشرب القوم وسكروا وبقي فى
صاحب المنزل مسكة لجودة شربه فأمر غلمانهم بحفظهم الى منازلهم وانصرفوا وخلوت
معه وشرب أقداحا ثم قال يا سيدى ذهب ما مضى من عمرى هذرا اذ لم أكن أعرف مثلك
ولم أحاضر رئيسا يشبهك فبالله يا مولاي من أنت لأعرف نديمى فأخذت اروى عليه وهو
يقسم على إلى أن أعلمته من انا على الحقيقة فوثب قائما على قدميه وقال لقد عجبت أن
يكون هذا الفعل الا لمثلك ولقد أسدى الزمان الى يد الا أقوم بشكرها ومتى طمعت بأن
يزورنى ذو الخلافة فى منزلى وينادمنى ما هذا الا فى المنام فلا أتممت ليلتى الا قائما بين
يديك اذ كنت أحقر أن أجالس ذا الخلافة فأقسمت عليه الى أن أجلس ثم أخذ يسألنى ما
السبب فى حضورى عنده بالطف معنى فأخبرته يا أمير المؤمنين بالقصة من أولها الى آخرها
وما سترت منها شيئاً ثم قلت أما الطعام فنلت منه بغيتى وأما الكف والمعصم ان شاء الله ثم

قال يا فلانة قولى لفلانة جارية له تنزل وجعل يستدعى واحدة واحدة ويعرضها على وانا لا أدري صاحبتي الى أن قال والله مابقى غير أمى وأختى والله لينزلن فعجبت من كرمه وسعة صدره فقلت جعلت فداك ابدأ بالاخت فقال حبا وكرامة ثم نزلت أخته فأرانى يدها فاذا هى التى رأيتها فقلت حسبك هذه الجارية فأمر غلمانه لوقته واستدعى عشرة مشايخ سماهم لهم ثم قام فاخرج بدرتين عشرين الف درهم وحضرت المشايخ فقال لهم هذا سيدى ابراهيم بن المهدي يخطب منى أختى فلانة وأشهدكم أنى قد زوجتها له وأمهرتها له عشرة آلاف درهم فقلت له قبلت ورضيت النكاح فشهدوا علينا ثم دفع البدرة الواحدة الى أخته والأخرى فرقها على المشايخ ثم قال أعذروا فهذا ما حضر فشكروا ودعوا له وانصرفوا ثم قال يا سيدى أمهد لك بعض البيوت وتنام مع أهلك فاحتشمنى ما رأيت من كرمه واستحييت أن أخلو بها فى داره فقلت بل أحضر عمارية وأجهزها وأحملها الى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل الى من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا على سعتها فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين فعجب المأمون من كرم هذا الرجل فقال لله دره ما سمعت قط بمثله ثم أطلق الطفيلى بإجارة ابراهيم وأمر باحضار الرجل ليشاهده فأحضر بين يديه فاستنطقه فأعجبه وصار من جملة خواصه ومحاضرتيه.

الليلة الرابعة: حدث غير الهلالى قال كان من فتيان بنى هلال فتى يقال له بشر بن عبد الله وكان يعرف بالأشتر وكان من سادات بنى هلال أحسنهم وجها وأسخامهم كفا وكان مفرما بجارية من قومه تدعى جيذا وكانت بارعة الجمال والكمال ثم اشتهر أمره وأمرها وظهر خبرهما بين أهليهما الى أن كانت بين الفريقين ثم افترقوا وأبعدت منازلهم فقال غير فلما طال على الاشتر الفراق وتمادى البعد جاءنى فقال يا غير هل لك من خبر ثم ما عندى الا ما أجبته فقال تساعدنى على زيارة جيد فقد أذهب الشوق روى فقلت نعم بالحب والكرامة فانهض بنا اذا شئت وركبت وسرنا يومنا وليلتنا والغد حتى إذا كان العشاء انخنا راحلتنا فى شعب قريب من الفريق فقال يا غير اذهب فتأنس بالناس واذكر ان لقيت أحدا أنك صاحب ضالة ولا تعرض بذكرى بين شفة ولا لسان الى أن تلقى جارتها فلانة ترعى غنهم فأقرئها منى السلام وسلها عن الخبر وأعلمها بموضعى قال فخرجت لأعدو الى ما أمرنى به حتى لقيت الجارية وأبلغتها الرسالة وأعلمتها مكانه وسألتها عن الخبر وأعلمتها بموضعى فقالت هى والله مشدد عليها تحفظ بها ولكن مواعدكم أوائل الشجرات اللواتى عند أعقاب البيوت مع صلاة العشاء قال فانصرفت الى صاحبي فأعلمته الخبر ثم نهضت أنا

وهو نقود راحلتنا حتى أتينا الموضع فى الوقت المعهود فلم نلبث الا قليلا واذا جيد تمشى قريبا منا فوثب الاشر فصافحها وسلم عليها وقمت أنا موليا عنهما فقالا نقسم عليك بالله الا ما رجعت فوالله ما نحن فى مكروه ولا بيننا ما يستر عنك فرجعت اليهما وجلست معهما فقال الاشر ما فىك حيلة يا جيد تتعلل الليلة قالت لا والله وما لى الى ذلك سبيل الا أن يرجع الذى عرفت من البلاء والشر فقال لها لا بد من ذلك ولو كان ما عسى أن يكون قالت فهل فى صاحبك هذا من خير قلت قولى ما بدا لك فانى انتهى الى رأيك ولو كان فيه ذهاب روحى فخلعت ثيابها وقالت البسها وأعطى ثيابك ففعلت ثم قالت اذهب الى بيتى وادخل فى سرى فان زوجى سيأتيك بعد فراغه من الحلية والقدح مملوء فيقول هاك غبوقك فلا تأخذه منه حتى تظل ذلك عليه ثم خذه أو دعه حتى يضعه ويذهب فلست تراه حتى تصبح - ان شاء الله تعالى - قال فذهبت ففعلت ما أمرتنى به حتى اذا جاء بالقدح لم آخذه حتى نكد عليه ثم أهويت لاخذه منه وأهوى هو ليضعه فاختلفت أيدينا على الاناء فانكفا القدح وانهرق اللبن فقال ان هذا لطماح جدا وضرب بيده الى مقدم البيت واستخرج سوطا ملويا مثل الثعبان ثم دخل فهتك الستر على ومتع السوط منى تمام عشرين سوطا ثم جاءت امه واخته فانتزعا من يده لا والله ما فعلا ذلك حتى زال عقلى وهممت أن أجبه بالسكين وان كان فيها الموت فلما خرجوا شددت سترى وقعدت كما كنت فلم البث الا قليلا حتى دخلت أم جيد فكلمتنى وهى لا تشك انى بتتها واندفعت فى البكاء والنحيب وتغطيت بثوبى ووليتهما ظهري فقالت يا بنية اتقى الله فى نفسك ولا تعرضى بمكروه زوجك فذاك أولى بك واما الاشر فذاك آخر الدهر وخرجت من عندى وقالت سأرسل اليك أختك تؤنسك الليلة فما لبثت غير دقيقة واذا الجارية قد جاءت فجعلت تبكى وتدعو على من ضربنى وأنا لا أكلمها ثم انضجعت الى جنبى فلما استمكننت منها شددت يدى على فيها وقلت يا هذه تلك أختك مع الاشر وقد قطع ظهري الليلة بسببها وأنت أولى بالستر عليها فاخترى لنفسك ولها ولئن والله تكلمت بكلمة لاصيحن أنا بجهدى حتى تكون الفضيحة شاملتهم فلما سمعت ذلك دفعت يدى عن فيها واهتزت كما يهتز القضيب فلم أزل بها حتى انست بى فباتت والله معى أحسن رفيق رافقته ولم نزل نتحدث وتضحك منى وما نالنى وتمكنت منها تمكن من لو أراد زنية فعلها ولكن الله عصم فله الحمد ولم نزل كذلك حتى طلع الفجر واذا جيد قد دخلت علينا فلما رأنا ارتاعت وقالت ويحك من هذه فقلت أختك قالت وما الخبر قلت هى تخبرك فانها والله نعم الاخت وأخذت ثيابى ومضيت الى صاحبى فركبت أنا وهو وحدثه ما أصابنى وكشفت له عن ظهري فاذا فيه ضرب رمى الله ضاربه

بالنار كل ضربة يخرج منها الدم فلما رأى كذلك قال لقد عظم صنعك ووجب شكرك وطالت يدك فلا أحرمنى الله مكافأتك ولم يزل لى شاكرا معترفا.

الليلة الخامسة: قال الواقدي كان ابراهيم بن المهدي قد ادعى الخلافة لنفسه بالرى وأقام مالکها سنة واحد عشر شهرا واثني عشر يوما وله أخبار كثيرة أحسنها عندي ما حكاها لى قال:

لما دخل المأمون الرى وطلبنى أشد الطلب وجعل لمن أتاه بى مائة ألف درهم فخفت على نفسى وتحيرت فى أمرى فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فمررت على وجهى حتى وقعت فى زقاق لا ينفذ فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون ان عدت على أترى يرتاب بى فرأيت فى صدر الزقاق عبدا أسود وهو قائم على باب دار فتقدمت اليه فقلت له أعندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار فقال نعم وفتح الباب فدخلت الى دار نظيفة فيه حصيرة نظيفة ومخدة جلد الا انها نظيفة ثم أغلق الباب على ومضى لسبيله فتوهمته قد جعل الجعالة فىّ وانه خرج ليدل على فبقيت على مثل النار قلقا فيبينما انا كذلك اذ أقبل معه حمال عليه كل ما يحتاج اليه من خبز ولحم وقدر جديد وحررة نظيفة وكيزان جدد فحط عن الحمال والتفت الى وقال جعلنى الله فداك انا رجل حجام وانا أعلم انك تتقدر منى لما أتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يد وكان لى حاجة الى الطعام فطبخت. لنفسى قدرا ما أذكر أنى أكلت مثله فلما قضيت أرى من الطعام قال لى هل لك من شراب فانه يسلى الهم ويطيب العيش ويدفع عن النفس الغم قلت ما أكره ذلك رغبة فى أن أؤانسه فأتى بقطرمين جديد لم تمسه يد وجاءنى بذتين من شراب مطيبة وقال لى روق نفسك فروقت شرابا نهاية فى الجودة وأحضر لى قدحا جديدا وفاكهه ونقلًا مختلفة فى طسوت فخار جدد ثم قال لى بعد ذلك اتأذن لى جعلت فداك أن أقصد ناحية عنك وآتى بنبىذ لى فأشرب منه سرورا بك فقلت له افعل فشرب وشربت ثلاثا ثم دخل الى خزانته فأخرج عودا مصلحا ثم قال يا سيدى ليس من قدرى ان أسألك تغنى ولكن قد وجب على مروءتك وحرمتى فان أردت بأن تشرف عبدك بأن تغنى لنفسك فافعل فقلت ومن أين لك أنى أحسن الغناء فقال متعجبا سبحانه الله أشهر من ذلك أنت ابراهيم بن المهدي خليفتنا بالامس الذى جعل المأمون لمن دل عليك مائة ألف درهم فلما قال ذلك عظمت هيبتة ومروءته عندي وعلمت أن نخوته أجل من المال الذى بذله فى فتناولت العود فأصلحته وغنيت وقد مر بخاطرى فراق أهلى وولدى:

وعسى الذى أهدي ليوسف أهله وأعزه فى السجن وهو أسير

أن يستجيب لنا فيجمع شملنا والله رب العالمين قدیر
فقال يا سيدى اجعل الذى تغنيه ما يقتضيه حالك فقلت نعم فقال غن لى:
ان الذى عقد الذى انعقدت به عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فان الله يعقب راحة ولعلها ان تنجلي ولعلها
فغنيته ولم أكن أحسن لحنه ولكنى لحتته وتفاءلت به وحسن عندى ايراده فشرب
وشربت وقال غن لى يا سيدى فقلت :

فلا تجزع وان أعسرت يوما فقد أيسرت فى الزمن الطويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر لعل الله يغنى عن قليل
ولا تظن بربك غير خير فان الله أولى بالجميل
وكنت أعرفه فغنيت وشربت فقال لله درك على الله يد اذ آتسنى بمثلك وما كنت أحسب
أن الزمان يسمح لى بكونك فى منزلى فان رأيت أن تغنى لى فقلت:

واذا تنازعنى أقول لها اصبرى موت بريحك أو علو المنبر
ما قد قضى الرحمن فاصطبرى له ولك الازمان من الذى لم يقدر
فغنيته وحسن فى روحى اقتضاه وآتست به واستظرفته ثم قال لى يا سيدى أأذن لى أن
أغنى ما سنح وان كنت من غير اهل هذه الصناعة فقلت له زيادة فى أدبك ومروءتك فاخذ
العود وغنى:

شكونا الى أحببنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سريعا ولا يغشى النوم لنا أعينا
إذا ما بدا الليل المضر بذى الهوى جزعنا وهم يستبشرون اذا رنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا
فوالله لقد أحسنت بالبيت قد سرنى وذهب عنى كل ما كنت فيه من الهلع وسألته ان
يغنى فغنى :

تعييرنا انا قليل عدادنا فقلنا لها ان الكرام قليل
وما ضرنا انا قليل وجارنا عزيز وجار الاكثرين ذليل
وإنا لقوم لا نرى القتل سنة اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
فداخلى من الطرب ما لا مزيد عليه الى أن عاجلنى السكر فلم استيقظ الا بعد

المغرب فعاودنى فكرى فى نفاسة هذا الحجام وحسن أدبه وظرفه وكيف اقتضانى من الغناء ما أراد أن يسلينى به فقممت وغسلت وجهى وأيقظته وأخذت خريطة كانت صحبى فيها دنابر كثيرة لها قيمة فرميت بها اليه وقلت له استودعك الله فانى ماض من عندك وأسالك أن تصرف ما فى هذه الخريطة على بعض مهماتك ولك عندى المزيد ان أمنت من خوفى فأعادها الى متكررا وقال لى يا سيدى ان الصعلوك ما لا قدر له وليس عندكم من ذوى الرياسات ويظن به الظنون الرديئة عن الأخذ آخذ على ما وهبنيه الزمان من قدرك وحلولك عندى ثم اتى ألححت عليه فأومى الى موسى وقال والله لئن راجعتنى فيها لاقتلن نفسى فخشيت عليه وأخذت الخريطة فأعدتها الى كمى وقد اثقلنى حملها فلما انتهيت الى باب داره معولا الى المضى قال لى سيدى ان هذا الموضع أخفى لك وليس فى مؤنتك ثقلة فأقم عندى الى ان يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من الخريطة فلم يفعل وكان يفعل فى كل يوم مثل ما فعله فى يوم حلولى عنده فأقمت اياما فى ألد عيش فتبرمت من الإقامة فى منزله واحتشمت من التثقل فتركته وقد مضى يجدد لنا حالنا فقممت وتزينت بزى النساء بالخف والنقاب فخرجت فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف أمر شديد وجئت لاعبر الجسر فاذا أنا بالموضع قد رش وصار زلعا فأبصرنى جندى ممن كان يخدمنى فعرفنى وقال هذه حاجة المأمون فتعلق بى فمن حلاوة الروح دفعته هو وفرسه فرميتهما فى ذلك الزلق وتبادر الناس لينقذوه فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فوجدت باب دار وامرأة فى دهليزه فقلت يا سيدة النساء احقنى دمي فانى رجل خائف فقالت على الرحب وأطلعتنى الى غرفة وفرشت لى وقدمت طعاما وقالت هدى روعك فما يعلم بك مخلوق عندى ولو أقمت سنة وهى معى فى ذلك واذا بالباب يدق دقا عنيفا فخرجت فتحت الباب فاذا بصاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدود الرأس ودمه يجرى على ثيابه وليس معه فرس فقالت يا هذا ما بالك فقال لها ان حديثى عجيب ظفرت بالفتى وانفلت منى ولو كنت حملته الى المأمون لتعجلت لى مائة ألف درهم قالت وما هو قال ابراهيم ابن المهدي لقيته وتعلقت به فدفعنى والفرس فأصابنى ما ترين قال فأخرجت اليه خرقا فعملتها فى جرحه وعصبتة وأسقته شرابا ونام عيلا وطلعت الى فقالت أظنك صاحب القصة فقلت نعم فقالت لا بأس عليك ثم جددت الكرامة فأقمت عندها ثلاثا ثم قالت انى خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أترك فينم بك فانج بنفسك فسألته امهالى الى الليل ففعلت فلما دخل الليل لبست زى النساء وخرجت من

عندها فأتيت الى بيت مولاة كانت لى فلما رأتنى توجعت لى وبكت وحمدت الله على سلامتى وخرجت كأنها تريد السوق والاهتمام فى الضيافة وظننت خيرا فما شعرت الا بإسحاق بن ابراهيم الموصلى بنفسه فى خيله ورجله والمولاة معه فسلمتنى له فرأيت الموت عيانا وحملت الى المأمون فجلس مجلسا عاما وأدخلنى اليه فلمسا مثلت بين يديه سلمت عليه بالخلافة فقال لا سلم الله عليك ولا رعاك ولا حباك فقلت على رسلك يا أمير المؤمنين ان أولى الثار محكم فى البقصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناولته أيدي الاغترار بما أمد له من أسباب الرجا لم يأمن من غائلة الدهر وقد جعلك الله فوق كل ذى عفو كما جعل كل ذنب تحت عفوك فان تأخذ فبحقك وان تعف فبفضلك ثم أنشدت:

ذنبى اليك عظيم	وأنت أعظم منه
فأخذ بحققك أولا	فأصفح بحلمك عنه
ان لم اكن فى فعالى	من الكرام فكنه
فرفع رأسه الى فبدرته وقلت:	

أذنبت ذنباً عظيماً	وأنت للعفو أهل
فان عفوت فمن	وان جزيت فعدل

فرق لى المأمون واستروحت رواح الرحمة فى وجهه ثم أقبل على أخيه أبى إسحاق وابنه العباس وجميع من حضر فى خاصته وقال ما تقول يا أحمد فقال يا أمير المؤمنين ان قتلته وجدنا مثلك قتل مثله وان عفوت عنه لم نجد مثلك عفا عن مثله فنكس المأمون رأسه ينكت بأصبعه فى الارض ثم قال متمثلاً:

قومى هم قتلوا أميم أخى	فاذا رميت بصيبنى سهمى
فلئن عفوت لاعفون جدالا	ولئن سطوت لأوهين عظمى

فكشفت المقنعة عن رأسى وكبرت تكبيرة عظيمة فقلت عنا والله عفى أمير المؤمنين فقال لا بأس عليك يا عم فقلت يا أمير المؤمنين ذنبى عظيم أعظم من أن اتفوه معه بعذر وعفوك أعظم من أنطق معه بشكر ولكن أقول :

ان الذى خلق المكارم حازها	فى صلب آدم والإمام الشافعى
ملئت قلوب الناس منك مهابة	وتظل تكلوهم بقلب خاشع
فعفوت عمن لم يكن عن مثله	عفو ولم يشفع اليك بشافع
ورحمت أطفالا كأفراخ القطا	وحنين والدته بقلب جازع
رد الحياة على بعد ذهابها	كرم الملك العادل المتواضع

فقال لى المأمون لا تثريب عليك اليوم قد عفوت عنك ورددت عليك ضياعك فقلت
رددت مالى ولم تبخل على به وقبل ردك مالى قد رددت دى:

نأيت عنك وقد خولتني نعمما هما الحياتان من الموت ومن عدم
فلو بذلت دى أبغى رضاك به والمال حتى أسل النعل من قدم
ما كان ذاك سوى عارية رجعت اليك لو لم تعدها كنت لم تلم
وان جحدتك ما أوليت من نعم انى الى اللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون ان من الكلام كلاما كالدر وهذا منه وامر لبراهيم بمال وخلع عليه وقال
يا ابراهيم ان أبا إسحاق وأبا العباس اشارا بقتلك فقلت انهما نصحا لك يا أمير المؤمنين
ولكن أبيت إلا ما أنت أهله ودفعت عنى ما خفت بما رجوت فقال المأمون قد مات حقدى
عليك بحيات عذرك وعفوى عنك وأعظم من عفوى عنك انى لم أجرك مرار امتنان
النافعين ثم سجد المأمون طويلا ثم رفع رأسه وقال يا ابراهيم أتدرى لم سجدت فقلت
شكرا لله الذى أظفرك بعدوك وعدو دولتك فقال ما أردت هذا ولكن شكرا لله على ما
ألهمنى من العفو عن مثلك فحدثنى الآن حديثك فشرحت له صورة أمرى وما جرى لى مع
الحجام والجندى والمرأة والمولاة التى أسلمتنى فأمر المأمون باحضارها وهى فى دارها
تنتظر الجائزة فقال لها ما حملك على ما فعلت مع انعامه عليك فقالت رغبة فى المال فقال
لها هل لك من ولد أو زوج فقالت لا فأمر بضربها مائة سوط وخلدها فى السجن ثم قال
أحضروا الجندى وامراته والمزين فأحضروا فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما
فعل فقال الرغبة فى المال فقال المأمون أنت أولى أن تكون حجاما من أن تكون من أوليائنا
ووكل به من يلزمه الجلوس فى دكان الحجام ليتعلم الحجاماة واستخدم زوجته قهرمانة فى
قصره وقال هذه امرأة عاقلة أديبة تصح للمهمات ثم قال للحجام لقد ظهر من مروءتك ما
يجب معه المحافظة عليه وسلم اليه دار الجندى ودابته وخلع عليه وأثبت برزقه وزيادة ألف
دينار فى كل سنة ولم يزل بخير الى أن مات.

الليلة السادسة: قال الامير بدر الدين يوسف المهمندار ابن الامير سيف الدين ابى
المعالى ابن رماح المعروف بمهمندار العرب حكى لى الامير شجاع الدين محمد الشرزى
متولى القاهرة فى الايام الكاملية سنة ثلاثين وستمائة قال بينما انا عند رجل ببعض بلاد
الصعيد فضيفنا واکرمنا وكان الرجل أسمر شديد السمرة وهو شيخ كبير وحضر له اولاد
حسان فيهم صفاء لون فقلنا يا فلان هؤلاء اولاد بيض وأنت شديد السمرة فقال هؤلاء امهم

فرنجية اخذتها فى ايام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب نوبة حطين فقلنا وكيف اخذتها فقال لها حديث عجيب فقلت اتحنفنا به فقال:

زرعت كتانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته فانصرف عليه خمسمائة دينار فلم يجب أكثر من ذلك فأشير على بحمله الى الشام فحملته فلم يجب أكثر من ذلك فقبل لى بعه صبرا لعله يرجع لك حق الطريق فبعت بعضه صبرا الى ستة اشهر والبعض تركته عندى واكتريت حانوتا ابيع فيه على مهل الى حين انقضاء الستة اشهر فبينما انا ابيع وقد مرت بى امرأة فرنجية زوج بعض الخيالة ونساء الفرنج يمشون فى الاسواق بلا نقاب فأنت تشتري منى كتانا فرأيت من جمالها ما أبهرنى فبعتها وسامحتها ثم انصرفت وعادت الى بعد ايام فبعتها وسامحتها أكثر من الكرة الاولى فتكررت الى عندى وعلمت انى أحبها فقلت للعجوز التى معها اننى قد تعلقت بحبها فكيف تتحيلين لى فقلت لها ذلك فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو فقلت لها اذا اذهبت روحى باجتماعى بها ما هو كثير وحكت لى كلاما كثيرا جرى بينهما واتفق الحال على أن أدفع لها خمسين دينارا صورية وتجيء اليه قال فوزنت خمسين دينارا صورية وسلمتها للعجوز فقالت هينى لنا موضعك ونحن الليلة عندك قال فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلوى وكانت دارى مطلة على البحر وكان الصيف ففرشت لى على سطح الدار وجاءت الفرنجية فأكلنا وشربنا وجن الليل فنمنا تحت السماء والقمر يضىء علينا والنجوم تنظر فى البحر فقلت فى نفسى أما تستحى من الله وأنت غريب وتحت السماء وعلى البحر وتعصى الله مع نصرانية فتستوجب عذاب النار وعذاب الدنيا اللهم انى أشهدك انى قد عفت عن هذه النصرانية فى هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ثم نمت الى الصبح فقامت فى السحر وهى غضبية ومضت ومضيت الى حانوتى فجلست فيه واذا هى قد عبرت على هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر فهلكت وقلت فى نفسى من هو أنت حتى تترك هذه التجارية أنت الجنيد أو السرى السقطى ثم لحقت العجوز وقلت ارجعى فقلت وحق المسيح ما نرجع اليك الا بمائة دينار فقلت نعم ومضيت الى حانوتى ووزنتها وجاءت الى ثانى دفعة فلحقتنى تلك الفكرة الاولى وعففت عنها وتركتها لله تعالى ثم مضت ومضيت الى موضعى ثم عبرت على وكلمتنى وكانت مستغربة وقالت وحق المسيح ما بقيت تفرح بى عندك الا بخمسمائة دينار أو تموت كمدا فارعت لذلك وعزمت أبى أغرم ثمن الكتان جميعه وأدنى نفسى فبينما أنا كذلك والمنادى ينادى معاشر المسلمين ان الهدنة التى بيننا وبينكم قد انقضت وقد أمهلنا من هنا من المسلمين الى جمعة ليقضوا أمورهم وينصرفوا الى

بلادهم فانقطعت عني وأخذت أنا فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وأنا فى قلبى من الفرنجية ما فيه فوصلت الى دمشق وبعث البضاعة التى لى بأوفى ثمن لانقطاع وصولها بسبب فراغ الهدنة ومن الله سبحانه وتعالى على بكسب جيد وأخذت اتجر فى الجوارى عسى أن يذهب ما بقلبى من الفرنجية ولازمت التجارة فيهن فمضى على ثلاث سنين وجرى للسلطان الملك الناصر ما جرى من وقعة حطين واخذه جميع الملوك وفتح بلاد الساحل بإذن الله - تعالى - فطلب منى جارية للملك الناصر وكان عندى جارية حسنة فاشتريت له بمائة دينار فاوصلوا الى تسعين ديناراً وبقيت عشرة دنائير فلم يجدوها فى الخزانة ذلك اليوم لانه أنفق الاموال جميعها فشاوروه على ذلك فقال امضوا به الى الخزانة التى فيها السبى من نساء الفرنج فخيروه فى واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنائير التى له فأتيت الخزانة فنظرت اليها فعرفت الجارية الفرنجية غريمتى فقلت أعطونى هاتيك فأخذتها ومضيت الى خيمتى وقلت لها أتعرفيننى قالت لا فقلت أنا صاحبك التاجر فى المكان الذى جرى له معك ما جرى واخذت منى الذهب وقلت ما بقيت تبصرنى الا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشرة دنائير فقالت مد يدك أنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فأسلمت وحسن إسلامها فقلت والله لا وصلت اليها الا بأمر القاضى فرحت الى ابن شداد وحكىته له ما جرى فعجب وعقد لى عليها وباتت تلك الليلة فحملت ثم دخل العسكر فأتيانا الى دمشق فما كان الا شهور قلائل وأتى رسول الملك يطلب الاسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فرد من كان أسيراً من الرجال والنساء ولم يبق الا امرأة الفارس التى عندى فسألوا عنها وألحوا فى السؤال والكشف فوشى بها أنها عندى فطلبت منى وحضرت وأنا فى شدة وقد تغير لونى فقالت ما بدا لك وما الذى أصابك قلت جاء رسول الملك وأخذوا الاسارى جميعهم وطلبونى فقالت لا بأس عليك أحضرنى اليهم وأنا أعرف الذى أقول لهم قال فأخذتها وأحضرتها قدام السلطان الملك الناصر والرسول جالس عن يمينه فقلت هذه المرأة التى عندى فقال لها الملك والرسول تروحين الى بلادك أم الى زوجك فقد فك أسرك أنت وغيرك فقالت للسلطان أنا قد أسلمت وحبلت وها بطنى كما ترونه وما بقيت الفرنج تتفع بى فقال لها الرسول يخيرها أيما أحب اليك هذا المسلم أم زوجك الفارس فلان فقالت له كما قالت للسلطان فقال الرسول لمن معه من الفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول خذ امرأتك وامض فوليت بها وقد أرسل الى عاجلا وقال ان أمها أرسلت لها

معى وديعة وقالت ان ابنتى أسيرة وهى عريانة شعثى واشتهى أن ترسل لها هذا الجمدان وتسلمه لها قال فتسلمت الجمدان ومضينا الى الدار ففتحته فوجدت قماشها بعينه وقد صرته لها أمها ووجدت الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينار كما هما بربطتى لم يتغيرا وهؤلاء الاولاد منها وهى تعيش وهى التى عملت هذا الطعام.

الليلة السابعة: قصة أريب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشى وكان عبد

الله بن سلام هذا واليا لمعاوية على العراق وكانت أريب هذه من أجمل النساء وقتها وأحسنهن أدبا وأكثرهن مالا وكان يزيد بن معاوية قد سمع بجمالها وبما هى عليه من الأدب وحسن الخلق والخلق ففتن بها فلما عيل صبره استهاج فى ذلك مع أحد خصيان معاوية وكان ذلك الخصى خاصا بمعاوية اسمه رفيف فذكر ذلك رفيف لمعاوية وذكر شغفه بها وأنه ضاق ذرعه بأمرها فبعث معاوية الى يزيد فاستفسره عن أمره فبعث له شأنه فقال معاوية مهلا يا يزيد قال له علام تأمرنى بالمهل وقد انقطع منها الامل قال له معاوية فأين حباك ومروءتك فقال له يزيد قد عيل الحجا ونفذ الصبر ولو كان أحد يتفجع به من الهوى لكان أولى الناس بالصبر عليه داود حين ابتلى به قال له اكتم يا بنى أمرك فان البوح به غير نافعك والله بالغ أمره فيك ولا بد مما هو كائن وكانت أريب بنت إسحاق مثلا فى أهل زمانها لجمالها وتمايم كمالها وشرفها وكثرة مالها فأخذ معاوية فى الحيلة حتى يبلغ يزيد رضاه فيها فكتب معاوية الى عبد الله بن سلام وكان استعمله على العراق أن أقبل حين تنظر كتابى لأمر فيه حظك ان شاء الله تعالى ولا تتأخر عنه وأجد السير وكان عند معاوية يومئذ بالشام أبو هريرة وأبو الدرداء صاحبا رسول الله ﷺ فلما قدم عليه عبد الله بن سلام الشام أمر معاوية أن ينزل منزلا قد هياه وأعد فيه نزله ثم قال لابی هريرة وأبى الدرداء إن الله قد قسم بين عباده نعما أوجب عليهم شكرها وحتم عليهم حفظها فجبانى منها - عز وجل - بأتم الشرف وأفضل الذكر واوسع على رزقه وجعلنى راعى خلقه وأمينه على بلاده والحاكم فى أمر عباده ليلونى أشكر أم أكفر وأول ما ينبغى للمرء أن يتفقدّه وينظر فيه من استرعاه الله أمره ومن لا غناية عنه وقد بلغت لى ابنة أريد أناكحها وأنظر فى تبجيل من يياعلها لعل من يكون بعدى يقتدى بى فى هدىتى ويتبع فيه أثرى فانه قد يلى هذا الملك بعدى من يغلب عليه زهو الشيطان ويزينه الى تعطيل بناتهم ولا يرون لهن كفوا ولا نظيرا وقد رضيت لها عبد الله بن سلام القرشى لدينه وشرفه وفضله ومروءته وأدبه، فقال أبو هريرة وأبو الدرداء: إن أولى الناس برعاية نعم الله وشكرها وطلب مرضاته فيما خصه منها لأنت أنت صاحب

رسول الله وكتبه وصهره وقال معاوية فاذكروا ذلك عنى وقد كنت جعلت لها فى نفسها شورى غير أنى لأرجو ألا تخرج من رأى - ان شاء الله تعالى - فخرجنا من عنده متوجهين الى منزل عبد الله بن سلام بالذى قال لهما معاوية ثم دخل معاوية على ابنته فقال لها اذا دخل عليك أبو الدرداء وأبو هريرة فعرضا عليك أمر عبد الله بن سلام وانكاحى اياك منه فاحرصى على المسارعة الى هواى وقولى لهما عبد الله بن سلام كفؤ كريم وقريب حميم غير أن تحتة أريب بنت إسحاق وأنا خاتمة أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء فأنال منه ما يسخط الله فيه فيعذبنى عليه ولست بفاعلة حتى يفارقها فلما ذكر ذلك أبو هريرة وأبو الدرداء لعبد الله بن سلام وأعلماه بالذى أمرهما معاوية فردهما الى معاوية خاطبين منه فقال قد تعلمان رضاي به وحرصى عليه وقد كنت أعلمتكما الذى جعلت لها فى نفسى من الشورى فادخلا عليها واعرضا الذى رأيت لها عليها فدخلها عليها وأعلمها ذلك وأعلمها بالذى ارتضاه أبوها فقالت كالذى قال أبوها فأعلمنا عبد الله بن سلام بذلك فلما ظن انه لا يمنعها منه الا افتراق أريب أنشدتهما على طلاقها وبعث بهما اليها خاطبين وأعلمنا معاوية الذى كان من فراق عبد الله بن سلام امرأته طالبا رضاها فأظهر معاوية كراهيته لفعله وقال لهما ما استحسن له طلاق امرأته ولا أجبته فانصرفا فى عافية ثم عودا اليها فيها ونأخذ ان شاء الله رضاها وكتب الى يزيد ابنه يعلمه بما كان من طلاق عبد الله بن سلام لأريب بنت إسحاق فلما عاد أبو هريرة وأبو الدرداء الى معاوية أمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها تبريا من الامر ونظرا فى القدر ويقول لم يكن لى أن أكرهها وقد جعلت لها الشورى فى نفسها فدخلها وأعلمها بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسراها وذكرنا من فضله وتما مروهته وكريم محمده فقالت جف القلم بما هو كائن وانه فى قریش لرفيع القدر وقد تعرفان ان التزويج جده وهزله جد والانة فى الامور ممن لا يخاف فيها من المحذور فان الامور اذا جاءت خلاف الهوى بعد التانى فيها كان المرء فيها بحسن العذر خليقا وبالصبر عليها حقيقا وانى سائلة عنه حتى أعرف دخيلة خبره ويصح لى بالذى أريد علمه من أمره وان كنت أعلم أن الاختيار لاحد فيما هو كائن ومعلمتكما بالذى يرينه الله فى أمره ولا قوة الا بالله قالوا وفقك الله وخار لك ثم انصرفا عنها فلما أعلمها بقولها أنشأ يقول فان يك صدر هذا اليوم ولى فان غدا لناظره قريب وتحدث الناس بالذى جرى من طلاق عبد الله بن سلام امرأته وخطبته ابنة معاوية وقالوا لم يطلق حتى فرغ من طلبه له الذى كان من بغيته واستحث عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء فاتياها فقالا لها اصنعى ما أنت صانعتة

واستخيرى الله فانه يهدى من استهدها قالت أرجو والحمد لله أن يكون الله قد خار فانه لا يكل الى غيره من توكل عليه وقد اختبرت أمره وسألت عنه فوجدته غير ملائم ولا موافق لما أريد لنفسى مع اختلاف من استشرته فيه فمنهم الناهى عنه والأمر به واختلافهم أول ما كرهت فلما أبلغاه كلامها علم أنه مخدوع فان المرء وان كمل له حلمه واجتمع له عقله واستبد رأيه ليس يدافع عن نفسه قدراً برأى ولا كيد ولعل ما أسروا به واستحلوا به لا يدوم لهم سروره ولا يصرف عنهم محذوره قال وذاع أمره وفشا فى الناس وقالوا خدعه معاوية حتى طلق امرأته وأنما أرادها لابنته بشى ما صنع فلما بلغ ذلك معاوية قال لعمري ما خدعته فلما انقضت اقراؤها وجه معاوية أبو الدرداء الى العراق خاطبا لها على ابنه يزيد فسخر حتى قدمها وبها يومئذ الحسين بن على بن أبى طالب - عليه السلام - فقال أبو الدرداء اذ قدم العراق ما ينبغي لذى نهى أن يبدأ بشىء ويؤثره على مهم أموره قبل زيارة الحسين سيد شباب أهل الجنة فاذا دخلت موضعاً هو فيه وأديت حقه والسلام عليه انقلبت الى ما جئت اليه فقصد الحسين فلما رآه الحسين - عليه السلام - قام اليه وصافحه اجلالاً لصحبته من جده عليه السلام ولموضعه من الاسلام وقال له ما أتى بك يا أبا الدرداء قال وجهنى معاوية خاطبا على ابنه يزيد أريب بنت إسحاق فرأيت على حقا أن لا أبدأ بشىء قبل السلام عليك فشكر له الحسين ذلك وأثنى عليه وقال لقد كنت ذكرت نكاحها وأردت الارسال اليها اذا انقضت اقراؤها فلم يمنعنى من ذلك الا تخير مثلك فقد أتى الله بك فاخطب - رحمك الله - على وعليه ليجرى من اختاره الله لها وهى أمانة فى عنقك حتى تؤديها اليها وأعطاها من المهر مثل ما بذل لها معاوية عن ابنه فقال أفعّل - ان شاء الله - فلما دخل عليها قال أيتها المرأة ان الله خلق الامور بقدرته وكونها بعزته فجعل لكل أمر قدراً ولكل قدر سبباً فليس لاحد عن قدر الله مستخلص ولا للخروج عن علمه مستناص فكان ما سبق لك وقدر عليك من فراق عبد الله بن سلام اياك ولعل ذلك لا يعيرك ويجعل الله فيك خيراً كثيراً وقد خطبك أمير هذه الامة وابن ملكها وولى عهده والخليفة من بعده يزيد بن معاوية والحسين ابن بنت رسول الله عليه السلام وابن أول من أقربه من أمته وسيد شباب أهل الجنة يوم القيامة وقد بلغك سناهما وفضلهما جئتكم خاطبا عليهما فاختارى أيهما شئت فسكتت طويلاً ثم قالت يا أبا الدرداء لو كان هذا الامر جاءنى وأنت غائب لأشخصت فيه الرسل اليك وأتبعته فيه رأيك ولم اقتطعه دونك فاما اذا كنت أنت المرسل فيه فقد فوضت أمرى بعد الله اليك وجعلته فى يديك فاختر لى ارضاهما لربك والله شاهد عليك، فاقض فى قصدى بالتحرى ولا يصدنك عن

ذلك اتباع الهوى فليس أمرهما عليك خفيا ولا أنت عما طوكتك غيبا قال أبو الدرداء أيتها المرأة انما على اعلامك عليك الاختيار لنفسك فقالت عفا الله عنك انما أنا بنت أخيك ومن لا غنا لها عنك ولا يمنعك رهبة أحد من قول الحق فيما طوكتك فقد وجب عليك أداء الامانة فيما حملتك والله خير من روعى وحنف انه بنا خير لطيف فلما لم يجد بدا من القول والاستشارة قال يا بنية ابن بنت رسول الله ﷺ أحب الىّ لك وأرضى عندى والله أعلم بخيرهما لك وقد رأيت رسول الله ﷺ واضعا شفتيه على شفتى الحسين فضمى شفتيك حيث وضع رسول الله ﷺ شفتيه قالت قد اخترت ورضيت فتزوجها الحسين بن على - عليهما السلام - فساق لها مهرا عظيما وبلغ معاوية الذى كان من فعل أبى الدرداء فى ذلك نكاح الحسين إياها فتعاضمه جدا ولامه شديدا وقال من يرسل ذا بله وعمى يركب خلاف ما يهوى، وكان عبد الله بن سلام قد استودعها قبل فراقه إياها بديرات مملوءة ذهباً وكان ذلك أعظم ماله لديه وأحبه اليه وقد كان معاوية أطرحه وقطع عنه جميع رواتبه عنده لسوء قوله وتهمته انه خدعه فلم يزل يجفوه حتى عيل صبره وقل ما فى يده ولام نفسه على المقام لديه فرجع الى العراق وهو يذكر ماله الذى استودعه إياها ولا يدرى كيف يصنع فيه وابن يصل اليه وهو يتوقع جحودها لسوء فعله بها ولأنه طلقها على غير شيء أنكره عليها فلما قدم العراق لقي الحسين فسلم عليه ثم قال له قد عرفت ما كان من خبرى وخبر أربى وكنت قبل فراقى إياها قد استودعتها مالا عظيما وكان الذى كان ولم أقبضه والله ما انكرت منها فى طول صحبتها فتिला ولا أظن بها الا جميلا فذاكرها أمرى واحضضها على رد مالى على فان الله يحسن عليه ذكرك ويحرك به أجرك فسكت عنه فلما انصرف الحسين الى أهله قال لها قدم عبد الله بن سلام وهو يحسن الينا عليك ويحمل النشر عنك فى حسن صحبتك وما أنسه قديما من أمانتك فسررنى ذلك وأعجبني وذكر أنه كان استودعك مالا فأد اليه أمانته وردى عليه ماله فانه لم يقل الا صدقا ولم يطلب الا حقا قالت صدق استودعنى مالا لا أدري ما هو وإنه لمطبوع عليه بخاتمهم ما حول منه شيء الى يومه وما هو ذا فادفعه إليه بطابعه فأثنى عليها الحسين خيرا وقال الا أدخله عليك حتى تبرئى اليه منه كما دفعه اليك ثم لقي عبد الله فقال ما انكرت مالك وزعمت أنه كما دفعته اليها بطابعك فادخل يا هذا اليها وتوف مالك منها قال عبد الله أوتأمر من يدفعه الى قال لا حتى تقبضه منها كما دفعته اليها وتبرئها منه اذا أدته اليك فلما دخل عليها قال لها الحسين هذا عبد الله بن سلام قد جاء يطلب وديعته فأد اليه أمانته فاخرجت اليه البدر فوضعتها بين يديه وقالت هذا مالك فشكر

وأثنى وخرج الحسين عنهما وفض عبد الله خواتم بدره وحشى لها من ذلك وقال خذى فهذا قليل منى فاستعبرا جميعا حتى علت أصواتهما بالبكاء أسفا على ما ابتليا به فدخل الحسين عليهما وقد رق لهما للذى سمع منهما فقال اشهد انها طالق ثلاثا اللهم قد تعلم أنى لم استنكحها رغبة فى مالها ولا جمالها ولكنى أردت احلالها لبعليها فطلقها ولم يأخذ شيئا مما ساق لها فى مهرها فسألها عبد الله أن يصرف للحسين ما ساق لها فأجابته شكرا لما صنعه بهما فلم يقبله الحسين وقال الذى أرجوه من الثواب خير لى فلما انقضت اقراؤها تزوجها عبد الله بن سلام وبقيا زوجين متصافيين الى أن فرق بينهما الموت وحرمها الله يزيد بن معاوية. نقلتها من تاريخ ابن بدرون .

obeikandi.com

الباب الحادى والعشرون في الشعراء المجيدين

وهو مقدمة ونتيجة:

أقول: لا بد من مقدمة ينتفع بها الطالب لهذا العلم لئلا يخلو كتابنا من ذلك.
الشعر: قول موزون مقفى بالقصد يدل على معنى والمعنى للشعر بمنزلة المادة واللفظ بمنزلة الصورة وهو يشتمل على أربعة أشياء لفظ ومعنى ووزن وقافية وتهذيبه أن يكون اللفظ سمحا سهل المخارج حلوا عذبا وتهذيب الوزن أن يكون حسنا تقبله النفس والغريزة غير منكسر ولا متزحف وتهذيب القافية أن تكون سلسلة المخارج مألوفة فإن القوافي حوافز الشعر وأن يقصد الكلام الجزل دول الرذل ولا يعمل نظما ولا نثرا عند الملل فإن الكثير معه قليل والخواطر ينابيع وإذا رفق بها جمعت وإذا عنف عليها مرجت وليترنم بالشعر وقت عمله فإنه يعين عليه وقد يتخيل الشاعر الشعر الجيد فيمكنه مرة ولا يمكنه أخرى وإياك وتعقيد المعانى واجعل المعنى الشريف فى اللفظ اللطيف لئلا يتلف أحدهما الآخر ومتى عصى الشعر فاتركه ومتى طاعوك فعاوده وروح الخاطر إذا كلّ واعمل فى أحب المعانى إليك وفى كل ما يوافقه طبعك فالنفوس تعطى على الرغبة ولا تعطى على الإكراه واعمل الأبيات متفرقة على ما يجود به الخاطر ثم انظمها فى الآخر وحصل المبدأ والمقطع والخروج فهو أصعب ما فى القصيدة فإذا فعلته سهل عليك وأشعرها أولا وهذبها آخرها فقد قيل عن زهير إنه كان يعمل القصيدة فى شهرين ويهذبها فى حول ولذلك سمي شعره الحولى المنقح.

قال الخوارزمى من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وأهاجى الحطيئة وهاشميات الكميت وقلائص جرير وخمريات أبى نواس وتشبيهات ابن المعتز وزهريات أبى العتاهية ومرائى أبى تمام ومدايح البحرى وروضيات الصنوبرى ولطائف كشاجم ولم يخرج إلى الشعر فلا شب الله قرنه.

وإذا نثرت منظوما فغير قوافى شعره عن قرائن سجمه وإذا سرقت معنى فغير الوزن والقافية ليخفى ذلك وإذا أخذت شعرا فزد على معناه وانقص من لفظه واحترز مما يطعن به

عليك فحينئذ تكون أحق من قائله به وأن لا يكاتب العامة بكلام الخاصة ولا بالعكس وأكثر من حفظ النظم والثر فعلى قدر ما يحفظ منه يقوى فيه واعلم أن الشعر يسخر البخل ويشجع الجبان ويفرج الهموم ويرضى الغضبان وكذلك قالوا الشعر يعد من السحر وقال النبى ﷺ : «إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا» وقال الشافعى فى كتاب الام: والشعر كلام كالكلام فحسنة كحسنة وقبيحة كقبيحة وفضله على سائر الكلام أنه سائر فى الناس يبقى على الزمان فينظر فيه وإن كان حسنا كان كغيره من الكلام الحسن. انتهى.

وقال الشيخ برهان الدين القيراطى فى خطبة ديوانه ويكفى من تفضيله أن النبى ﷺ استشهد بعض الصحابة من شعر أمية فأنشده مائة قافية، وكانت الصديقة تحفظ للبيد ألف بيت وافية، وكان الشعبى يقول لو شئت أن املئ عليكم من انشادى شهرا لا أعيد بيتا لفعلت، وكان الاصمعى يحفظ اثنى عشر ألف ارجوزة، وما زال السلف يحفظون الشعر قديما ويتخذونه فى الخلوات نديما وينشدونه فى مواطن المؤانسة ويوردون دقائقه فى ساعات المجالسة، ولو اوردنا ما ورد فى فضله من الآثار المسندة والأخبار الممهدة لوقف الناظر منها على حجج قوية ومحجة ضوية، ولقد كان جماعة من العلماء الراسخين والأئمة الورعين لهم فى صناعة الشعر الغاية وانتهوا فى الإجادة فيه إلى النهاية يعرف ذلك من وقف على تراجمهم وأحصاها وطالع أخبارهم واستقصاها.

وحديث «احثوا فى وجوه المداحين التراب» فالمراد به الغلو والاطراء واستقباح المدح المفرط كلاما وشعرا ونظما ونثرا ولا يختص ذلك بالشعر وحده لما يخشى من افتتان سامعه عنده.

وقال أبو بكر الهذلى: قال لى الشعبى أتعب الشعر قلت نعم قال إنما تحبه فحول الرجال ويكرهه مؤنثوهم ثم إن الناظمين لارواح الالية أفراد والظافرين بفرائده ذوو انفراد والسالكين للمناهج الفاصلية أضمرتهم البلاد والمقتفين لمنار السراج والمتحليين بحلية الجمال قلت منهم الاعداد والمؤلفين لعقودها المتواتر مدحها أجادوا بما اذعانه اغماد وجهال ما لهم بالاشعار اشعار راموا الوصول إلى معانيه اللطيفة بطباع كثيفة وحاولوا أسبابه الخفيفة بنفوس ثقيلة وأسبابه الثقيلة بعقول خفيفة لا يظفر أحد منهم بأبيات أوتاده وإن كان فى عتوه ذو الاوتاد ولا يتجملون من ملابسه بما يسترهم وإن تعصبوا أو نقبوا فى البلاد ولا يجيئون من ألفاظهم اليابسة الا بما يقال لهم إذا قطعوه جابوا الصخر بالواد فيقال لمجيدهم إذا أتى بلفظ وزنه وأخلاه من المعانى الحسنة إذا كنت لا تدري سوى الوزن

وحده فقل أنا وزان وما أنا شاعر ثم إن منهم من يظفر بمعنى ولكن يقلبه تركيباً ويركبه مقلوباً ويأتي بجمل غير مفيدة وقد قلت في ذلك من قصيدة:

وشاعر بالمعاني لا شعور له مركب الجهل يبدى سوء تركيب
موكل بمعانيه يحرسها فما يركب معنى غير مقلوب

فما أولاه بأن يركب على نفسه مقلوباً ويضرب بأذنه على سوء الأدب تأدياً. انتهى كلام القاضي برهان الدين.

وقال الشيخ والامام العالم المفتن النحوى العروضى القاضى زين الدين عمر بن الوردى فى خطبة الكلام على مائة غلام ولعمري ما أنصفنى من ساى الظن أو قال عنى كيف رضى مع درجة العلم والفتوى بهذا الفن فالصحابة كانوا ينظمون وينشرون ونعوذ بالله من قوم لا يشعرون.

وقال أبو بكر الخوارزمي فى مدحهم ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم والكذب مذموم الا فيهم إذا ذموا أثبتوا وإذا مدحوا سلبوا وإذا رضوا رفعوا الوضع وإذا غضبوا وضعوا الرفيع وإذا افتروا على أنفسهم بالكبائر لم يلزمهم حد ولم تمتد اليهم يد غيهم لا يصادر وفقيرهم لا يحقر وشيخهم يوقر وشابهم لا يستصغر وسهامهم تنفذ فى الاعراض إذا بثت سهامهم عند الاعراض وشهادتهم مقبولة وإن لم ينطق بها سجل ولم يشهد عليها عدل سرقته مغمورة وإن جاوزت ربع دينار وبلغت ألف قنطار إن باعوا المغشوش لم يرد عليهم وإن صادروا الصديق لم يستوحش منهم بل ما ظنك بقوم اسمهم ناطق بالفضل واسم صناعته مشتق من العقل هم أمراء الكلام يقصرون طويله ويقصرون مديده ويخفقون ثقيله.

وقال الحسن بن سهل: لا تكسد صناعة الشعر إلا فى شر زمان وأخس سلطان.

ومن حيلهم اللطيفة ما ذكره أبو الفتح كشاجم فى كتابه المصائد والمطارد وهو ان بعض الملوك كان كثير الاشتغال بالصيد منهمكا فيه وكان بعض الشعراء قصده فتعذر ما أمله وحال بينه وبينه الحجاب لكثرة الفه بالصيد فعمد الشاعر إلى رقاع لطاف وكتب فيها ما قاله من الشعر فى مديحه وصاد عنده من الطب والارانب والشعالب وشد تلك الرقاع فى اذنان بعضها وأذان بعض وراعى خروجه إلى الصيد فلما خرج كمن له فى مظانه ثم أطلقها فلما ظفر بها ورأى تلك الرقاع استبشر وزاد فى استظراف الرجل واستلطفه وزاد فى رعى ذمامه وأمر بطلبه فأحضر ونال منه خيرا كثيرا.

وقريب منها: سأل رجل فخر الملك وزير بنى بويه حاجة وأمله فلم يعطه شيئاً فمضى الرجل إلى القاضى واستدعى على بن نبانة الشاعر فلما جاءه الرسول قال والله ما لأحد على دين ولا بينى وبين أحد معاملة ولا محاكمة فمن خصمى أحضره حتى أرضيه فلما جاء الرجل قال ما حقك حتى أوفيك قال له أنت قلت فى شعرك حيث مدحت فخر الملك بقولك:

لكل فتى قرين حين يسمو وفخر الملك ليس له قرين
أنخ بجانبه وانزل عليه على حكم الرجا وأنا الضمين

فأنت قد ضمت لى ونزلت عليه فلم يفعل والضمين غارم فما أعطانى شيئاً فقال أمهلنى حتى أصل إليه فلما دخل على فخر الملك أخبره بالقصة فقال له وكم أملت منه فقال مائة دينار فقال ادفعوها إليه ثم قال لابن نبانة إذا مدحتنى فلا تضمن عنى (توفى ابن نبانة المذكور سنة خمس وأربعمئة، ومولده سنة سبع وعشرين وثلاثمئة) وقال فخر الترك أضممر المجنوى يمدح السلطان الملك الصالح أيوب ابن السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل - تغمدهم الله برحمته - ويذكر بنيانه للجزيرة المسماة بالروضة وجلسه بالقياس وأولها:

الروض مقتبل الشبيبة مؤنق خضل يكاد عصاره يتدفق
وقد ذكرت أوائلها فى باب الروضات والبساتين ثم ذكرت منها الخمرىات إلى مبتدأ
هذه الأبيات:

إبه مديحى لانفصال قصيدة يوم الرهان ولا محولك ضيق
هذا مقام الملك حيث تقول ما تهوى وتطيب كيف شئت فتصدق
فى حيث لأشرف الصفات بمعوذ فيه ولا باب المدايح مغلق
ملك يلوذ الدين منه بمعقل أسس سطاه سورة والخندق
لو ان سر الملك فيه محنف قامت شمائله عليه تنطق
هدأت بسيرته الرعية واغتدى قلب الحسود من المهابة يخفق
فالدین بعد تفرق متجمع والكفر بعد تجمع متفرق
الصالح الملك الذى آياته عقد به جيد الزمان مطوق
عرق الرعية بمن دولته التى فيهم تأكد عهدا والموثق
جمعت كما اقترح الرجاء إلى الغنى امنا فقد رزقوا الذى لم يرزقوا

فالله نحمد ثم أيوب الذي
تظل بهم عذباته بسنائه
فبضمه ضم الحبيب قلوبها
آيات ملكك معجزات كلها
شيدت أبنية تركت حديثها
من كل شاهقة تطل تعجبا
ليس الرخبا ملونا فكأنه
واحتال في الذهب الصقيل شغوفه
يا حسنهما والنيل مكتنف بها
فكأنما طرف إليه ناظر
وافاه مصطفقا عليه موجه
وتجاذبت أيدي الرياح رداءه
وسرى النسيم وراهن برفقه
تلك المنازل لا حديث يفترى
لله يوم كان فضلك باهرا
يوم تحلى الدهر منه برونق
هو ثالث العبيدين إلا أنه
جمعت لمشهده خلائق غادرت
وعلا عباب البحر من سباحه
كادت تبين لهم على صفحاته
لم يمش مركوب بهم فنفوسهم
حفت جسومهم لفرط صباية
وفدوا إليك مموهين بأخذ ما
متجردين عن المخيط لأنهم
طافوا به سبعة على وجناتهم
والناس شاخصة إليك عيونهم
ظمئت نفوسهم إليك فلم يكن

أمن الغنى به واثري المملوك
عشقا وقد الرمح مما يعشق
يوم الوغى وهو العدو والازرق
ومدى اهتمامك غاية لا يلحق
مثلا يغرب ذكره ويشرق
من هول مطلعها الكواكب تسهق
روض يفوقه الربيع المغدق
فكأنه شفق الاصيل المشرق
كالسطر مشتمل عليه مهرق
وكأنه جفن عليه مطبق
فكأنما هو للسرور مصفق
عنه فظل رداؤه يتممق
فرقى الذي عذب الرياح يمزق
عما سمعت ولا العراق وجلق
فيه ومنك جماله والرونق
لما غدا المقياس وهو مخلق
لللهو ليس على العبادة يطلق
فيه رحيب البر وهو مضيق
أمم يغص بها الفضاء ويشرق
طرق ولكن يعيقون وترق
حشاوا النحا كما تحث الانيق
هزت اليك فما خشوا أن يغرقوا
تعطى وأكثر سؤلهم أن يرمقوا
حجاج بيتك غير أن لم يحلقوا
سعبا وأرخی ستره فتعلقوا
كل يحدد طرفه ويحدد
صدر يقربه فؤاد شقيق

متطلعين كما تطلع صائم
حتى إذا قضيت مناسك كعبة المقد
وشكرت ربك فى الزيادة طامعا
ومددت للتخليق أكرم راحة
أقبلت تنظرك العيون فتنتنى
تمشى الهوبنا قد علتك سكىنة
منتوجاً تاج الجلالة لابسا
وقد امتطى يمنى يديك مهندا
حتى انتهيت إلى مقر كرامة
فجلست حيث جلست منه بزيئة
كل يغض من المهابة طرفه
والنيل مضطرب الغوارب مزبد
لو يستطيع سعى فقيل راحة
فرأيت منك ومنه تجرى رحمة
أطعمتهم لما سقى فعليكما
لكن بينكما على ما فيكما
تحصى الأصابع جوده لحسابها
ويفيض ذا فى كل عام مرة
ويخص ذا قوما وجودك يستوى
ونسداك لا من يكدره وذا
لما غدا المقياس مقسم راحة
أكبرت أن تعلو الملابس عطفه
انسانه خلقا جديدا ما رأى
حرم الخلافة حله من ربه
ذو معنيين فللتمنع معقل
أخذ الوقار عن المشيب وره
إيوان كسرى حيث شئت رأيت
حصن تمرّد صنعه لا مارد

ليرى هلال العيد ليلة يرمق
يباس وهى لكم عوائد سبق
ولشاكر النعماء المزيد محقق
أضحى الخلوفا بطيبها يتخلق
حسرى وتلحظك القلوب فتطرق
كادت قلوب القوم منها تصفق
حلل الوقار وأنت فيها أليق
غصنا يروق النصر منه يبرق
بالنيسرات مزخسرف ومنمق
شرفا وطاف بك الملوك وأحدقوا
فتسراه وهو لغير فكر مطرق
صب إليك فؤاده متشوق
هو فى السماح بخلقها يتخلق
يتبارزان كلاهما يتدفق
رزق العباد كلاهما يسترزق
من نسبة فى الجود فرقا يفرق
لكن حساب يدك ليس يحقق
وبحار جودك كل حين يدفق
فيه الأنام مغرب ومشرق
يمنن فهو لأجل ذاك مريق
يحى الرعية فيضها المتدفق
فكسوته أنوار شمس تشرق
راء له شبيها ولا هو مخلق
ملك بمقلته الخلائق ترمق
صعب المرام وللتمتع حوشق
لكن عليه للشبيبة روتق
منه وأدنى ما هناك خورنق
وعلا فمعز مثاله لا الابلق

دغنت به هوج الرياح فما جرت في كرة الا بقلب يخفق
وكأنما هو النجوم ملجج وكأنما هو في النجوم محلج
هذا الذي أعييا الملوك وجوده من بعد ما حاموا عليه وحلقوا
أدرت بالتمكين ما لم يدركوا ورزقت بالتوفيق ما لم يرزقوا
فانقض وواترهم فالقضاء مسدد والسعد مكتنف وأنت موفق

وقال شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد بن أبي الوفا الموصلي الشهير بابن
الخلاوي (مولده سنة ثلاث وستمائة، ووفاته سنة ست وخمسين وستمائة) يهني الملك
الرحيم صاحب الموصل بدار بناها:

يا دار نال العلا والجند يأتيك حاشاك مما تمنيه أعاديك
عدنا إليك على رغم العداة فكم بتنا نحث الأغاني في معانيك
وكم جلونا عروس الراح مشرقة وكم خلونا بمن نختاره فيك
أصبحت بالعين للذات منزلة فكل عين لمن عداك تفديك

وقال الشيخ جمال الدين محمد بن نباتة يهني ببناء دار:

ودار علت قدرا على الدور مثلما علا ربها بالمكرمات على الوري
مطابقة الاوصاف أما نسيمها فصح وأما ماؤها فتكسرا
تكرر فيها النبات دهنا وروضة فالله ما أحلا نباتا مكررا
وشيد هارب الفضائل والندی فيا حبذا دار القراءة والقرا
تذكره دار النعيم بطينبها فيسمى لجنت النعيم كما ترى
لقد زادها في الحسن يوسف فاغدت تباع بمرآها القلوب وتشترا

والمليح في هذا المعنى قول أسجع السلمى:

قصر عليه تحية وسلام خلعت عليه جمالها الأيام
أجرى الإمام عليه نهرا منعا أعطى القياد وما عليه زمام
ومنها في المديح وأجاد:

وعلى عدوك يا بن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام
فاذا تنبه رعته وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

قلت: الشيء بالشئ يذكر وما أحسن ما ضمن هذه الابيات الشيخ برهان الدين
القيراطي رحمة الله عليه وقال:

ومشرف ان زاد تشريفنا فقد خلعت عليه جمالها الأيام

هو جامع للحسن الا انه
وعلى العدو من نقشه وطروسه
وقال على بن الجهم - رحمة الله عليه:
وفيه ملك كأن النجوى
تخر الملوك لها سجدا
وفسوة نارها فى السـ
ترد على المزن ما أنزلت
م يقضى إليها بأسرارها
إذا ما تجلت لأبصارها
سماء فليست تقصر عن نارها
على الارض من صور أمطارها

نقلت من كتاب رفع الحجب المنشورة على محاسن المقصورة من الجزء الأول
تأليف العلامة قاضى الجماعة بحظيرة غرناطة الشريف المرحوم والخطيب بها أبو القاسم
محمد ابن أحمد بن محمد الحسينى - رحمه الله تعالى - وهذا التأليف من العجائب
المختصرة ألفه شرحا لمقصورة الإمام الاوحد أبى الحسن حازم بن محمد بن حسين بن
حازم الانصارى العرطاحى تغمد الله بالرحمة.

قلت: ذكر العلامة لسان الدين محمد بن الخطيب فى تاريخه المسمى بالإحاطة أن
مولد الشريف الحسينى سنة سبع وتسعين وستمائة، ووفاته سنة ستين وسبعمائة.

قال الشارح ويتعلق بذكر الهالة ما ذكره أبو عبد الله بكر بن عباس كاتب المنصور وأبى
يوسف يعقوب قال كان لأبى بكر بن مجير عادة على المنصور فى كل سنة فصادف
المنصور فى إحدى وفادات فراغه من أحداث المقصورة التى كان أحداثها بجامعه
المتصل بقصره فى حضرة مراكش وكانت قد وضعت على حركات هندسية ترفع لخروجه
وتخفض لدخوله وكان جميع من بيباب المنصور يومئذ من الشعراء والادباء قد نظموا
أشعاراً أنشدوه إياها فى ذلك فلم يزدوا على شكره وتجربته على الخير فيما جدد من معالم
الدين وآثاره ولم يكن فيهم من تصدى إلى وصف الحال حتى قام أبو بكر بن مجير فأنشده
قصيدته التى أولها:

أعلمتنى القى عصا اليسا
ر فى بلدة ليست بدار قرار
واستمر فيها حتى ألم بذكر المقصورة فقال يصفها:

طوراً تكون بمن حوته محيطة
وتكون طوراً عنهم نجسية
وكانما علمت مقادير الورى
فإذا أحست بالإمام يزورها
وكانها سور من الأسوار
فكانها سر من الأسرار
فتصرفت لهم على مقدار
فى قومه قامت إلى الزوار

تبدو فتبدو ثم تخفى بعده كستكون الهالات بالأقمار

فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها.

ومن لطيف بداية الشعر بحضرة ملوكهم ما ذكره القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى

كتابه مسالك الأبصار فى ترجمة مجير الدين ابن تميم.

حكى أن الملك المنصور استدعاه فى ليلة غفل رقيها وحضر ربيها وسحبت من سود

الذوائب ظفائرها وسجنت من بيض الأيام ضرائرها إلى مجلس مزخرف وفواكه لم تخرق

وأمامه جدول قد خر مأوه فتكسر وان عليه كل بارق وتحسر والكثوس دائره والشموس فى

أيدى البدو سائرة فلما رأى الجدول وقد أصابته من العين نظرة فتعثر وسقط عقد لؤلؤه

وتشر نظر إليه وقال - رحمة الله عليه:

يا حسنه من جدول متدفق يلهى برونق حسنه من أبصرا

ما زلت أبذره عيونا حوله خوفا عليه أن يصاب فيعشرا

فأتى وزاد تماديا فى جريه حتى هوى من شامق فتسكرا

فسر المنصور بأبياته وأحب استطلاع خباياه وأمره بالجلوس إليه وجعله أرفع القوم

لديه ولم يستقر به المكان ولا قعد ولا استكان حتى تحرك المجلس لغلام ورد كأنما ييسم

عن برد فقال له المنصور بصوت يخفيه ما تقول فيه فقال:

بأبى أهيف تبلى وحى بابتسام عدمت منه اضطبارى

فأرأتى بوجهه وثنايا ه نجوما طلعت وسط النهار

فقال له سرا وقد أسفر وجهه وتسرا إلا أنه شديد النفار من المدام وله قرع بالملام فهل

تقدر على استلانتة وتسهيل بأسه واستهانته فما قطع المقال حتى التفت إليه ابن تميم وقال:

اتهجرها صرفا لأجل خمارها وذلك شئ لو جرى غير ضائر

فلا تخش من داء الخمارى وعاطها هنيئا مرياء غير داء مخامر

فكاد الغلام يسطو عليه كالعائب وقال له كالعابث ما هذه فقال:

صفراء لو لاحت لشمس الضحى من قبل أن تطلع لم تطلع

أحسن ما فى وصفها أنها لم تجتمع والهم فى موضع

فقال بل أشرب خيرا منها وأدع المنهى عنها، ثم إنه أتى بركة فعب من مائها وأرى

وجهه خيال قمره فى سمائها فقال:

أفدى الذى بفيه شاربى من بركة طابت وراقت مشرعا

أبدت لعينى وجهه وخياله فأرتنى القمر بن فى وقت معا

ثم لم يزل به حتى شرب ولذ معه ليلة وطرب فلما طلع ابن ذكا وأثار الصبح وأضاء
شكر له المنصور حل عقدة الغلام وقال مثلك من سحر بالكلام ثم أحسن له الجائزة وغدا
ابن تميم ويده لها جائزة.

وحكى عنه أنه استدعاه فى صبيحة يوم أبيض ونوبات ياسمينه على الأرض تنفض
والثلج قد نثر كافوره والجليد قد كسر بلوره والسحاب قد أصبحت ذبولها مجرورة والبرق
قد تلون طول ليلته حتى أخرجها من صورة إلى صورة وأوانى الزجاج قد شقت من وراء
مدامها والدنان قد فك عنها ختام قدامها ورجال الراح قد زادت فى أقدامها والساقى بعدار
كأنما كتب بالريحان أو نسج بالزمرد نبت الحان وتحت عذاره خيلان قد خبأت مسكها فزاد
تضوعا وكثر طيبه تنوعا قد تأرج نشرها وفاح وعلم بنقطها فى خده بأنه قديم وصف التفاح
فلما دخل عليه فى بكرة ذلك اليوم الاغر ورأى الدنيا ضاحكة تغتر أنشده:

يأيها الملك الذى بسطت له	بالجود كف دهرها لم تقبض
دنياك مذ وعدت بأنك لم تزل	فى نعمة وسعادة لا تنقضى
كأن الدليل على وفاها أنها	أضحت تقابلنا بوجه أبيض

فأجزل له الصلة ولم تكن عوائده بمنفصله.

ذكر ابن ظافر فى بدائع البداية أن المعتمد بن عباد كان جالسا فمر عليه بعض خطبائه
فى غلالة لا يكاد يفرق بينها وبين جسمها فسكب عليها اناء ماء ورد فعجب من حسننها
وجمالها فقال:

وهويت سالبة النفوس عزيرة	تخنتال بين أسنة وبواتر
واستجان النحلى وهو على الباب فقال:	

راقت محاسنها ورق أديمها	فتكاد تبصر باطنا من ظاهر
وتمايلت كالغصن فى ورق الندى	يلتف فى ورق الشباب الناضر
تبدى بماء الورد غير شعرها	كالطل يسقط من جناح الطائر
تزهى برونقها وحسن حديثها	زهو المؤيد بالثناء المعاطر

فلما قرأها استحسناها وقال له أو كنت معنا جالسا.

وقال محاسن الشورى:

وحولك من كماء الأرض شوش	غلاتلها الجواشن والدروع
قد اعتقلوا ذوائب كالافاعي	إذا اضطربت عواملها تروع
تلوك اللجم تحتهم جياد	سلاهب ما بها عطش وجوع

تهدم ركن جمعهم المنيع
بأيديهم فعلقها النجيع

فرءوسهم عوض النثار نثار
الا بحيث تطلق الأعمار

لاورقت عنده سمر القنا الذليل
لم تفرق العين بين السهل والجبل
نفض العقاب جناحيها من البلل

والعلامة ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب (مولده سنة ثلاثة عشر وسبع مائة

صدمت بهم فريق الترك حتى
فكروا والصوارم تستضاء
وقال الصليعي الداعي - رحمه الله:

أنكحت بيض الهند سمر رماحهم
وكذا العلا لا يستباح نكاحها
وقال ابن رشيق الأزدي:

لو أورقت من دم الابطال سمرقنا
إذا توجه في أولى كتابته
فالجيش ينفض حويله استنه

وتوفي تقريبا سنة خمس وسبعين وسبع مائة):

وثبابه مثل به يتمثل
والسمر تنقط والصوارم تشكل
وعوامل الاسل المثقف تعمل
اذ ثوب الداعي المهيب واقبلوا
حجبوا برايات الجهاد وظللوا

لله موقوفك الذي وثباته
والخيال خط والمجال صحيفة
والبيض قد كسرت حروف جفونها
لله قومك عند مستجر القنا
قوم إذا لفح الهجير وجوههم

وقال السيد الفاضل شمس الدين محمد بن صاحب موفق الدين الآمدي:

يراه فوق الطروس من الجفا
كما أسال من النجيع القرقفا
والبيض فوقهم حباب قد طفا
ولكل رمح أصبعا قد طرفا

وإذا سرى يلقي السناكب ضعف ما
مزاج كأس الراح من ماء الطبا
كأس العجاج ترى الكماة شخوصها
خضب النجيع لكل سيف معصما

وقال عبد العزيز بن نباتة:

وتقدمها أعناقهم والمناكب
عيونا لها وقع السيوف حواجب

ولولا عليها يقدمون رماحنا
كتبنا بأطراف القنا لظهورهم

وقال الشهاب محمد يمدح الاشرف خليل بن قلاون:

صوارمه انهاره والقنا الزمر
وحد المذاكي سفن جودك الدر
أهله والنيل أنجمه الزهر

فصبحتها بالجيش كالروض بهجة
وأبدعت بل كالبحر والبيض موجه
وأغربت بل كالليل عوج سيوفه

وأخطأت لابل كالنهار فشمسه
وقال الاسعد بن مماتى يمدح الظاهر غازى:

أسكران نديم العدو غاز
كأن السمر ريشها طوال
إذا اكتحلت عيون من عداة
وأطمع نفس أسمره وأضحى
كأنك خلتها سترت كميناً
سل البيت المقدس عنه يخ
محا الناقوس والصلبان عنه
وقال التهامى - رحمة الله عليه:

ودحوا فويق الارض أرضاً من دم
قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها
وترى سيوف الدارعين كأنها
حنوا الجياد من المطى وراوحوا
وكأنما ملثوا عباب دروعهم

وقال سبط بن الجوزى لما صالح الكامل الفرنج على دمياط وعايئوا الهلاك أرسلوا إليه يطلبون الصلح والرهان ويسلمون دمياط فمن حرص الكامل على خلاص دمياط منهم أجابهم ولو أقاموا يومين أخذوهم برقابهم فبعث إليهم الكامل ابنه الصالح أيوب وابن أخيه شمس الملوك وجاءت ملوكهم إلى الكامل فالتقاهم وأنعم عليهم وغرب لهم الخيام ووصل المعظم والاشراف فى تلك الحال إلى المنصورة وذلك فى ثالث رجب سنة ثمان عشرة وستمائة فجلس الكامل فى خيمة عظيمة كبيرة عالية ومد سماطاً وأحضر ملوك الافرنج والخيالة ووقف فى خدمته اخوته المعظم والاشراف وغيرهما وقام شرف الدين راجح الحللى وأنشد:

هنيئاً فإن السعد راح مخلداً
حبانا له الخلق فتحاً بدا لنا
تهلل وجه الارض بعد قطوبه
ولما طغى البحر الخضم بأهله
أقام لهذا الدين من سل عزمه
وقد انجز الرحمن بالنصر موعداً
مبيناً وانعاماً وعزاً مؤبداً
وأصبح وجه الشوك بالظلم أسوداً
الطفاة وأضحى بالمراكب من بدا
صقيلاً كما سل الحسام مجرداً

فلم ينج الا كل سلو مسجندل
ونادى لسان الكفر فى الارض رافعا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا يخدمون محمدا
ثوى منهم أو من تراه مقيدا
عقيرته فى الخافقين ومنشدا

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة بلغنى أنه وقت الانشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم وعند قوله موسى إلى الاشراف وعند قوله محمد إلى الكامل وهذا من أحسن الاتفاق.

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى شرح لامية العجم أنشدنى من لفظه الشيخ الامام الحافظ العلامة أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف قال أنشدنى من لفظه لنفسه بدر الدين أبو المحاسن محمد بن يوسف المهمندار فى السلطان الملك الظاهر لما خاض القرات:

لو عاينت عيناك يوم نزالنا
وسنا الاسنة والضياء من الظبا
وقد اطرخم الامر واحتدم الوغى
لرأيت سدا من حديد مائد
ظفرت وقد منع القوارس ردها
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الربا
لما سبقنا أسهما طاشت لنا
لم يفتحوا للرعى منهم أعينا
فتسابقوا هربا ولكن ردهم
ما كان أجرى خيلنا فى أثرهم
كم قد فلقنا صخرة من صرخة
ملاؤا الفضاء فعن قليل لم ندع
سدت علينا طرقنا قتلاهم
من كل أشهب خاض فى بحر الدما
وجرت دماؤهم على وجه الثرى
والظاهر السلطان فى آثارهم
ذهب العجاج مع النجيع بصقله
والخيل تطفح فى العجاج الاكدر
كشفنا لأعيننا قتام العشير
ووهى الجبان وساء ظن المجتر
فوق القرات وفوقه نار ترى
تجرى ولولا خيلنا لم تشكرى
ومن القوارس أبجرا فى أبجر
منهم الينا بالخيول الضمر
حتى كحلن بكل لدن أسمر
دون الهزيمة رمح كل غضنفر
لولا إنها برء وسهم لم تعثر
ولكم ملأنا محجرا من محجر
فوق البسيطة منهم من مخبر
حتى جنحنا للمكان الاوعر
حتى بدا لعيوننا كالا شقر
حتى جرت منها مجارى الانهر
يدوى الرءوس بكل غضب أبتى
فكأنه فى غمده لم يشهر

وقال الأديب الفاضل الكامل الترحال جواب الآفاق برهان الدين إبراهيم الساحلى الشهير بالطويخى المغربى ذكره العلامة لسان الدين ابن الخطيب فى الإحاطة وأثنى عليه الثناء البالغ وذكر ان وفاته سنة سبعمائة وتسعة وثلاثين من قصيدة مطولة مدح بها أحد ملوك اليمن وأولها:

خطرت كمباد القنا المتناظر
تسجى على الخد النقاب وإنما
فتخال فوق الروض ظل أراكمة
وبلمع الصدغين مطرز وجنة
من أمره زحفوا بعسكر تبع
السائمين الرمح من خلل الظبا
والمطعمين الاسد من أمثالها
والخالعين على الزمان ملابسا
سلوا أسته الضحى يوم الوغى
وجياده بالعباديات ويضمه
قابل برعبك جيش صدك تنثنى
فرءوس من عاديت أغماد الظبا
جرع عدوك فضل كأس قد سقى
أعمد ذؤابته التى لم تستتر
أرسل عليه عقاب عزم صادق
مزق ثياب العز عنه وخل فى
هذى قواعد ملكه مدت إلى
ضاقت يدها بها وقل نصيره
خذها اليك محاجة من شاعر
مرضى العيون كليلة أجفانها
وقف ابن أوس دونها وتخضبت
واسحب ذبول العز فى أرض الندى
واضرب رواق العرقى أرض العلى

ورمت بالحاظ الغزال الاعفر
ترخى الغمام على الصباح المسفر
وعلى ثرى الكافور صلة عنبر
زحفت عليه كتائب ابن المنذر
وتقلدوا بعزائم الاسكندر
والنجم من طرف السنان الازور
أسلا كل مجندل ومعفر
نظمت مفاخرهم كنظم الجواهر
فيعيدها بالليل أين العشير
بالقارعات وكفه بالكوثر
واضرب بعزمك قبل سيفك تنصر
ودماء من ناويت زى السمهرى
منها أبوه فان أبى فليجبر
وحمام مزنته التى لم تمطر
يستاق روح لعامه المستبشر
عطفه حاشية الرداء الأحمر
عليك جيد اللأذ المستنصر
فيها فطلقها طلاق المعسر
غاصت اليك بأبحر لم تسجر
إن لم تنر انسانها لم تبصر
فى نسج حلتها أكف البحرى
واركب ظهور الشهب يوم المفخر
وارفع سماك الفخر فوق المشتري

وقال القاضى الفاضل تغمده الله برحمته:

أهذه سير فى المجد أم سور
وأتمل أم بحار والسيوف لها
وأنت فى الأرض أم فوق السماء ففى
يقبل البدر تربا أنت واطشه
نأى به الملك حتى قيل ذا ملك
فى كل يوم لنا من مجده عجب
نظرت فى نجمه فالسعد طالعه
أبو الفوارس والأبطال مشفقة
يلقى عروس المنايا وهى حاسرة
والضرب بالبيض من آثاره عكن
ورب ليلة خطب قد سرى بها
سمت الغويص بعزم ما له ضجر
وأنت فى جيش رأى لا غبار له
هى الحروب التى لا السيف مثلم
فى كعبة للندى لو حلها ملك
وسائل لى ما العليا فقلت له
ما أنصفت مجده نظام سيرته
نال السما بأطراف القنا فبدت
لا يحدث النصر فى أعطافهم مرحا
أجروا دماء العدا بين الرماح فما
ترى غرائب من أفعال مجدهم
خلاتق فى سموات العلا زهر
الناس أضيافكم والأرض داركم
ما أنصف الشكر لولا أن تسامحنا

وهذه أنجم فى السعد أم غرر
موج وافرندها فى لجها درر
يمينك البحر أم فى وجهك القمر
فلترباب عليه ذلك الأثر
دنا به الجود حتى قيل ذا بشر
وكل يوم لنا من ذكره سمر
لا ينقضى وعلى أمواله سفر
وهم بنوك فما تبقى ولا تذر
وخدا فيه من فيض الدما حفر
والطعن بالسمر من آثاره سعر
وما سرى كوكب فيها ولا قمر
ولبعيد يباع ما به قصر
ترمى العداة بقوس ما لها وتر
فيها ولا الذابل اللحظى بمنتظر
هب النطق حتى قيل ذا حجر
فى فعله الخير أو فى قوله الخبر
إن الذى ستروا فوق الذى سطورا
من النصول عليها أنجم زهر
حتى كأنهم بالنصر ما شعروا
يقال ما عندهم ماء ولا شجر
يردها الفكر لو لم يشهد النظر
منها تنير وفى روض الشنا زهر
فهو المقام فلم قالوا هو السفر
فأنت تطنب جوداً وهو يختصر

الباب الثانى والعشرون

فى الحذاق المطربين

قال افلاطون من حزن فليسمع الاصوات الطيبة فإن النفس إذا حزنت خمد نورها وإذا سمعت ما يطر بها ويسرها اشتعل منها ما خمد، وكان حكماء الهند يسمعون الغناء للمريض ويزعمون أنه يخفف العلة ويقوى الطبيعة والغناء غذاء الأرواح كما أن الأطعمة غذاء الأشباح.

وقال معاوية وقد سمع عنده مغن فحرك رأسه وصفق بيده ودخلته أريحته ثم لما تاب رأيه إليه اعتذر منه أن الكريم طروب ولا خير فيمن لا يطر.

وقال أبو الحسن بن مقلة يعجبني من يقول الشعر تأدياً لا تكسباً ويغنى تطرباً لا تطلباً.

الشيء بالشيء يذكر ما ألطف قول الشيخ برهان الدين القيراطى من قصيدة:

بابى غنى ملاحاة أشكو له فقرى فيصيح بالغنا ينطرب

وكان مروان بن أبى حفصة إذا تغذى عند الموصلى يقول له الغناء غذاء الأرواح كما أن الشراب غذاء الأشباح.

يقال السماع كالروح والخمر كالجسد والسرور ولدهما.

اعلم أن بين الخمر والغناء مناسبة فى أكثر الأحوال ومضاربة فيما يجمعانه من محمود الخصال لأن فيه ما يصير الجبان إذا سمعه شجاعاً ومنه ما يكون للهيم دفاعاً ونغمه يبعث الشحيج على السخاء ومقابلة سؤال السائل بالعتاء وفيه ما ليس فى الخمر من الخصائص العجيبة الأمر وذلك أن الرجل الواحد يغنى له فى طريقه فيلين خلفه ويغنى له فى غيرها فتظهر شراسته وترفه وإذا سمع ضرباً منه استغفره وإذا غنى بصوت آخر لم يمكن العواصف أن تهزه وفيه ما يبكى سامعه ولممازجة الأصوات الحسنة للأرواح واهدائها إلى القلوب ظرائف الأفراس كانت البهائم إذا سمعتها تحن إليها والطيور يشغف بها ويطر عليها والإبل يكسبها الحذاء مثل ما يكسب الإنسان الغناء والخيول والبغال والحمير تلذ بشرب الماء إذا تواصل من ساقيتها الصفير والحمامة المطوقة والشحارير والبلابل والزراير والهزاردستانات وغيرها من الطيور المستحسنة الأصوات تسمع أصواتها فيبين

منها الطرب وذاك داعيها إلى تكريرها ولأجل ذلك يتخذها الملوك فى قصورهم ويجعل أمثال الناس كثيرا منها فى دورهم وإن كانت أصواتها لا تدل على معنى رائق يعلم ولا تتضمن ما يعرب عنه الكلام الذى يفهم فما ظنك بالالفاظ التى يسمعها السامع فيعيها ويفهم ما يفيده إياه من معانيها إذا أدركها ملحنة ممن خصوا بصفاء الخلق والنفحات المستحسنة ولهذه العلة صار من يسمع غناء المحسن يشرب من النبيذ عليه أزيد مما يحتمله حاله إذا لم يصغ إليه ويستمرئ الكثير منه مع سماعه وإن كان يشغل عليه قلبه إذا خلا من استماعه وقد علم أن الصبى الطفل إذا انزعر خلقه واتصل بكأوه لوجع يناله أو ضجر يجده وصوت له دأته بكلام تلحنه وتراجعه سكن قلقة أو سمع من منومته مثل ذلك زال أرقه.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى: عيش الدنيا بعد الصحة والشباب فى الطلاء والغناء والنساء والآلات التى اتخذت للغناء بها واستعملت على ترتيب أمكن معه أن يظهر منها ما يظهر من الحيوان الذى يرجع صوته بالحنان فإن الحكمة فيها مطلوبة والمنافع المكتسبة منها جميلة جسمية والعود أجملها خطرا وأحسنها فى القلوب أثرا وقد كان داود - عليه السلام - أحذق الناس بصوغ الألحان فى تسبيحه ويعرف الفاسد من ذلك من صحيحه وبه كان يضرب المثل فى حسن إيقاعه فى عوده وارتياح القلوب لصوته وتغريده وكان قبل إفضاء الملك إليه واجتماع بنى اسرائيل عليه يحضره ملكهم طالوت إذا غلب عليه خلط ردىء كان يعتريه فيأمره أن يوقع له بالعود ويسمعه من أصواته ما يستلذه فيفعل فيسكن ما هاج به ولما صار الملك إليه نصب من أعظم الحذاق بتلحين المزامير والتسبيح بها على الميدان والطنابير وغيرها من الدفوف والطبول والصلصل وما يجرى مجراها جماعة وكانت العدة التى تحضر من هذه الطائفة عنده أربعة آلاف فى كل ليلة ذكر ذلك جميعه الثعالبي فى موائد الافراح وحدود الغناء أربعة لا يستغنى عن واحد منها وبها يتم وعليها ينشأ أقلها النغم ثم تأليفه ثم قسمته ثم إيقاعه فما اشتمل من الشعر على هذه الحدود فهو غناء وإن نقص منه فليس بغناء.

وذكر اليونانيون أن الأوتار الأربعة شبهت بالطبائع الأربع وإن البم مشاكل للأرض والسوداء والمثلث بالماء والمبلغم والمثنى بالهواء والدم والزثر بالنار وإن النار لما كانت فى الطرف الأعلى فى العالم والأرض فى الجهة السفلى منه جعل ما بين البم والزثر كذلك وزعمت الأعاجم أنه مشتق من صرير باب الجنة وما قدم أحد من الأمم على العود من

الملاهى الا لما جمع من الفضائل التى استبد بها وقصر سواه عن اللحاق نبيها والحذاق فى الغناء مقدم على كل حاذق.

وذكر أن عبد الملك أتى بعود قد أخذ مع شارب بالليل فقال وعنده قوم ما هذا ولاى شىء يصلح هذا وأى شىء يعمل به فسكت -جلساؤه فقال عبد الله بن مسعدة القرارى هذا عود يؤخذ خشبه فيشقق ويرقق ويلصق ثم يعلق عليه هذه الاوتار وتحركها الجارية الحسناء فينطق بأحسن من وقع القطر فى البلد القفر وامراتى طالق إن لم يكن كل من فى هذا المجلس يعلم منه مثل ما علمت وأولهم أنت يا أمير المؤمنين قال فضحك عبد الملك.

فصل: وينبغى أن يكون المغنى جميل الخلق صافى الخلق له حلاوة وعليه طلاوة مستعذب العبارة نظيف الشارب يحفظ كثيرا من الملح والاختبار والنوادر والاشعار وشينا صالحا من علم الإعراب ما يختلط معه بدوى الآداب غير نمام ولا مغتاب ولا فضولى ولا عتاب كامل الظرف بعيدا من الظن متوقيا للهجن كتوما للاسرار مرتكبا طريق الاسرار ذو روايح ذكية وبشرة نقية وجوارح سالمة من العيوب وشمائيل يخفق بها على القلوب صناعته معجبة وأغانيه مطربة فمن اجتمعت فيه هذه الصفات والمناقب وسلم مما تقدم ذكره من المعائب والمثالب كان حقيقا من الملوك بالاخص بالاختصاص وخليقا منهم بأن يشرفوه بالاصطناع والاختصاص ومنهم من يكون حاذقا فى صناعته فيبلغ فى أحكامه غاية استطاعته واجتمعت فيه الخلال الحميدة وعرف بالأخلاق السديدة غير أنه يرزق صوتا يستعده ويحسن ممن يغنى له موقعه فتصطفيه الملوك لتعليم الغناء ممن يؤهلونه لذلك من الطرائف والإماء وتختلف أحوال الباقيين فى أخلاقهم وخلقهم والمذهب من كل ذى علم وصناعة قليل وتعبيد ما يوجد من أخلاق يطول.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى شر الغناء والشعر الوسط لأن الاعلى منهما يطرب والردل يضحك من صاحبه ويلهى به والوسط لا يطرب ولا يضحك.

وذكر الشيخ جمال الدين بن نباتة فى شرح العيون ما صورته ويقال إن أول من اتخذ العود الملك المتوشلخ على مثال فخذ ابنه الميت وهو قول ضعيف، وقيل بطليموس، وقيل بعض حكماء الفرس وسماء البريط وتفسيره باب النجاة ومعناه أنه مأخوذ من صرير باب الجنة وقد جعلت أوتاره أربعة كما تقدم ذكره.

وذكر أن أول من غنى على العود بالحن الفرس النضر بن الحارث بن كلدة وفد على كسرى بالحيرة فتعلم ضرب العود والغناء وقدم مكة فعلم أهلها وأول من غنى فى الإسلام بالحن الفرس سعيد بن مسحج وقيل طوليس وذلك أن عبد الله بن الزبير لما وهى بناء

الكعبة رفعها وجد بناءها وكانت فيها صناع من الفرس يغنون بألحانهم فوقع عليها ابن مسح الغناء العربى ثم دخل إلى الشام فأخذ عن ألحان الروم ثم رحل إلى فارس فأخذ الغناء وضرب العود وابتعه من بعده وبدأ هذا العلم ببطليموس وختم بإسحاق بن إبراهيم الموصلى.

وذكر القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه العجائب والظرف أنه وجد للأسعد المرتضى أحمد بن عبد الواحد لما قبض عليه المستنصر فى سنة تسع وخمسين وأربعمائة ما يجوز حد الحصر لكثرتة وجلالته وعلو همته وفيما وجد له عدلان كبيران أوتارا برسم عيدان الغناء وعدلا مخزوما مضارب العيدان وثلاثمائة طبل شبرى وغير ذلك من سائر أصناف الملاحى ووجد له هاون فضة وزنه سبعون رطلا.

فصل: فيما ورد للفضلاء فى مدحهم قال الشيخ برهان الدين القيراطى:

أقول إذ حبس عود مطرب حسن يريك يوسف فى أنغام داود
من حسن وجهك تضحى الأرض مشرقة من بنائك يجرى الماء فى العود
وقال:

أطربنا العود إلى أن غدا مقاصنا يرقص مع صحبه
فشمعه قام على ساقه وكأسه دار على كعبه

الشيء بالشيء يذكر: أنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى فسح الله فى أجله من قصيدة حربية:

إن حبس عود الضرب مال سامعه والخيل يرقصها إن حرك الوترا
وقال الشيخ برهان الدين القيراطى:

وشذا فى أصفها ن بالآغوانى المطربات
مسمع غنا فأغنا بصصفات الحسن ذات
قلت إذ حرك عودا عارفا بالنغمات
أنت مفتاح سرو رى يا سعيد الحركات

وقال المرحوم فتح الدين بن الشهيد وقد أحضر له بدر الدين طائرا ينعى العواد بسفارة الحاجب توكل:

نهـارى ليس كله بمنادم على عودة تعرو الحشبا لتفرك
وكنـت أراه طائرا عز مطلبـا ولكنتى حصلتـه بتوكل

وأنشدنى من لفظه لنفسه إجازة سيدنا ومولانا أفضى القضاة بدر الدين محمد المالكى
المخزومى الشهير بالدماينى أسبغ الله ظلاله:

يا عزولى فى مـغن مطرب حرك الاوتار لما سـفـرا
لم تهـز العطف منه طـربا عندمـا يـسمع منه وتـرا
وقال علاء الدين الوداعى فى مـغن يدعى الفـصيح:

وليلة ما لها نظير فى الطيب لو ساءفت بطول
كم نوبة للفصيح فيها أطرب من نوبة الخليل
وممن برع فى الالحن وعلمها أبو عامر محمد بن الجمارة الغرناطى اشتهر عنه أنه
كان يعمد إلى الشعر فيقطع العود بيده ثم يصنع منه عود الغناء وينظم الشعر ويلحنه ويغنى
به، ومن شعره قوله:

إذا ظن وكـرى مقلتى طائر الكرى رأى هـدبها فارتاع خوف الحبائل
ذكر هذا الاديب نور الدين على بن سعيد فى كتابه المعرب فى حلى المغرب.
وقال سيف الدين المشد:

ومطرب قد رأينا فى أنامله سبابة لسرور النفس أهلها
كأنه عاشق واف حبيبته فضمها يديه ثم قبلها
وقال محبى الدين بن قرناص:

مشبب بجفاه راح يقتلنا فإن تداركنا بالنفخ أحيانا
هويت تشبيها من قبل رؤيته والاذن تعشق قبل العين أحيانا
وقال محبى الدين بن عبد الظاهر:

وناطقة بالروح عن أمر ربها تعبر عما عندنا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت فنحن سكوت والهوى يتكلم
وقال الشيخ بدر الدين ابن الصاحب:

أطربنا مشبب من غير جعل سألـه بأحسن موصول له لم يفتقر إلى صله
وظرف فى قوله أيضا وإن لم يكن فى المعنى:

يا مهدي الاقصاب من سكر صفرا حكى سمر القنا طولها
اياك أن تقطعها ساعة فأطيب الاقصاب موصولها
ومن ذلك قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

اصغ لما قال أحور فهنا وخل قبل اليوم ما قـيلا

يا سمع مقاطيعا لنا أطربت
وقال إبراهيم المعمار:

ومششبيب أبدى لنا
متعماتم فكأنه

وقال زين الدين بن عبد الله مضمنا:

ونائحة صفراء تنطق عن هوى
براهها الهوى والوجد حتى أعادها
وقال صلاح الدين الصفدى:

لى مطرب كملت جميع صفاته
فإذا دعاه لمجلس حرفاؤه
وقال فتح الدين بن الشهيد:

غنى على القانون حتى غدا
فحنت الأرواح من شدوه
داوى قلوبا من غليل الاسى
فصاحت الجلاس عجا به

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى أنشدنى القاضى جمال الدين عبد القاهر التبريزى
لنفسه ملغزا فى الشبابة:

وناطقة بأفواه ثمان
لكل فم لسان مستعان
يخطبنا بلفظ لا يعيبه
فصيحة عاشق ونديم راع

وقال الشيخ علاء الدين على بن أيك من لفظه لنفسه فى مغن معذر (توفى المذكور
سنة إحدى وثمان مائة):

منم العارض غنى لسا
كأنما فى فيه قمرية
أشياء بالسمع حلا ذوقها
تشدو ومن عارضه طوقها

نادوة: شهد على امرأة أربعة بالزنا وكان فيهم مغن فقال له الوالى بم تشهد قال أشهد
أنى رأيت قد رفع رجلها مثل البنجك وبحر حتى كأنه يغنى وجعل مضرا به على التم
وجعلت استه ترقص ولا أدرى أتم الصوت أم لا.

فصل: فيما ورد فى ذم الغناء كتب البديع الهمذانى الى تلميذ له توفى أبوه وخلف له مالا يا مولاي ذلك المسموع من العود يسميه الجاهل نقرا ويسميه العاقل فقرا وذلك الخارج من الناي هو فى الآذان زمر وغدا فى الابواب سمر والعمر مع هذه الآلات ساعة والقنطار فى هذا العمل بضاعة.

وطلب بعض المغنيين جائزة من بعض المحصلين فقال له المملوك اعلم أن المال روح والغناء ريح ولست اشترى الريح بالروح.

ومما ورد من النظم فى ذم المتحلفين من أهلها:

حكى بعضهم أن بعض الفلاسفة خرج مع تلميذه فسمع صوت عود فقال لتلميذه امض بنا إلى هذا المغنى لعله يفيدنا صورة شريفة فلما قربا منه سمعا صوتا ردينا وتاليفا غير متقن فقال لتلميذه تزعم أهل الكهانة والرجز أن صوت البومة يدل على موت الانسان فان كان ذلك حقا فصوت هذا يدل على موت البومة.

ولبعضهم يهجو مغنيا:

كنت فى مجلس فقال مغن الد
فشبرت البساط منى إليه
ولبعضهم يذم صوت مغن:

انك لو أصغيت يوما إلى
لخلت فى الحلق أمراء جالسا
ولآخر فى المعنى قال:

انك لو تسمع الحانة
لخلت من داخل حلقومه
ولآخر:

ومغن ان تغنى
أحسن الفتيان حالا
وقال المصيصى الخياط:

واذا تربيع لا تربيع بعسدها
فكأنه جردان المدينة كلها
وقال آخر وأجاد:

قلت اذ غنى عراقا

ليتنا فى اصفهسانى

وقال آخر :

غنى أبو الفضل فقلنا له سبحان مخليه من الفضل
غناؤه حسد على شربه فاشرب فأنت اليوم فى حل

وقال آخر وأجاد :

ومغنى يتغنى اذهب اللذات عنا
فسلنا سكوته فسأبى ذاك وغنى
فشتمناه فتغنى فاشتفى القواد منا

وقال آخر فى مغن بالرباب :

لا تبعثوا بسوى المهذب جعفر فالشيخ فى كل الأمور مهذب
طورا يغنى بالرباب وتارة يأتى على يده الرباب وزينب
وقال سيف الدين المشد يهجو عوادا :

عواد قد طمست عينه فصار بالتصحيف عوادا
ما عاد الا لقيادته لا لاجل ذا أصبح عوادا

قلت: وان كان حصل له عمى فأحسن.

وأنشدنى المرحوم فخر الدين بن مكائس قال أنشدنى من لفظه لنفسه صاحبنا شمس الدين محمد الواسطى يهجو عوادا وزامرا :

شبهت ذا العواد والزامر اذ ضاقت علينا بهم المناهج
يعقوب يضرب وهو ساكت وأرقم ينفخ وهو خارج

ولا بأس من إيراد نبذة من حكايات الحذاق فى الغناء :

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى بعث الى المأمون يوما وبين يديه ثمانى عشرة مغنية تسع عن اليمين وتسع عن شماله وعنده إبراهيم بن المهدي فقال كيف تسمع يا إسحاق فقلت اسمع يا أمير المؤمنين خطأ فقال لإبراهيم ما تقول يا عم فيما قال؟ قال باطل ما ههنا خطأ ولكنه يريد أن يتزيد عندك فقلت له أتأذن لى أن أقفه على الخطأ وأناظره فيه قال نعم قلت على انه سيدى وأنا عبده أو على الانصاف قال بل على الانصاف قلت يؤمرون الجوارى أن يغنين الصوت الذى غنينه أولا فغنين ثم قلت له أفهمت الخطأ قال لا قلت فانى ألقى عنك النصف والخطأ فى التسع البواقى اللواتى عن الجانب الأيسر قال فتفهم وقال ما أسمع خطأ قلت فانى أخفف عنك ايضا هؤلاء الأربع الأواخر فاجتهد فى التفهم وقال ما

ههنا خطأ قلت فانه فى آخر الجوارى كلهن فتفهم فلم يقف عليه فقلت للجارية اضربى وحدك وامسكن البواقى وغنت فقلت ما ترى فقال بل الخطأ ههنا فقال المأمون احسنت فيهم الخطأ بين اثنين وسبعين وترا ولم تفهمه أنت الا من أربعة.

وقال أحمد بن المرزبان حدثنى بعض كتاب السلطان ان الرشيد هب ليلة من نومه فدعا بحمار كان يركبه فى القصر أسود فركبه وخرج فى دراعة مثلثا بعمامة متلفحا بازار وشى وبين يديه أربعمائة خادم سود سوى الفراشين وكان مسرور العوغانى جريشا عليه لمكانة كانت له عنده فلما خرج من باب القصر قال له ابن تريد يا أمير المؤمنين فى هذه الساعة قال أردت منزل إبراهيم الموصلى قال مسرور فمضيت معه حتى انتهى الى منزل الموصلى فخرج فتلقيه وقبل حافر حماره وقال له يا أمير المؤمنين افى مثل هذه الساعة تظهر قال نعم شوق طرفك بى ثم نزل فى طرف الايوان وأجلس إبراهيم فقال إبراهيم ياسيدى أنبسط لشيء تأكله قال نعم (حاميرطى) فأتى به كأنما كان عنده معدا له فأصاب منه شيئا يسيرا ثم دعا بشراب حمل معه فقال الموصلى يا سيدى أغنيك أم تغنيك اماؤك فقال بل الجوارى فخرجن جوارى إبراهيم فأخذن صدر الايوان وجانيه فقالن أضربن كلهن أم واحدة واحدة فقال بل يضربن اثنتان اثنتان وتغنى واحدة واحدة ففعل ذلك حتى مر صدر الايوان وأخذ جانيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشيء من غنائهن الى أن غتته صبية من حاشية الصفة:

يا مورى الزند قد أعيت قوادحه اقبس اذا شئت من قلبى بمقباسى
ما أقبح الناس فى عينى وأسمجهم اذا نظرت فلم أبصرك فى الناس

قال فطرب لغنائها واستعاد الصوت مرارا وشرب أرطالا وسأل الجارية عن صائغه فأمسكت فاستدناها فتعاسست فأمر بها فأقيمت بين يديه فأخبرته بشيء أسرته اليه فدعى بحماره فركبه وانصرف ثم التفت إلى إبراهيم وقال له ما ضرك الا ان تكون خليفة فكادت نفسه تخرج حتى عاد بعد ذلك وأدناه قال وكان الذى أخبرته ان الصنعة فى الصوت لاخته عليه وكانت الجارية لها فوجهتها الى إبراهيم بطارحها عنها لمكانته عندها قال قال لى الرشيد يا إبراهيم بكر حتى نصطبج فقلت أنا والصبح فرسى رهان نستبق الى حضرتك فبكرت فاذا أنا به خال وبين يديه جارية كأنها خوط بان أو جذل عنان حلوة المنظر فغنت فى شعر لايى نواس:

توهمه طرفى فأصبح خده وفيه مكان الوهم من نظرى أثر
ومر بفكرى خاطر فخرجته ولم أر جسما قط يعجره الفكر

وصافحه كفى فآلم كفه فمن غمز كفى أنامله عقر
قال إبراهيم فذهبت والله بعقلي حتى كدت أفتضح فقلت من هذه يا أمير المؤمنين قال
هذه الذي يقول فيها الشاعر:

لها قلبي الغداة وقلبها لي فنحن كذاك في جسدين روح
ثم قال لها غنى فغنت:

تقول غداة البين إحدى نسائهم لي الكبد الحر فسر ولك الصبر
وقد خنقتها عبرة فدموعها على خدنها يبض وفي نحرها صفر
قال: فشرب وسقاها وقال غن يا إبراهيم فغنت حسب ما في قلبي غير متحفظ من
شيء:

تشرب قلبي حبها ومشى به نمشى حمى الكأس في جسم شارب
ودب هواها في عظامي فشقهها كما دب في الملسوع سم العقارب
قال ففطن لتعريضى فكانت جهلة منى فأمرنى بالانصراف ولم يدع بى شهرا ولا
حضرت مجلسه فلما أن مضى شهر دس الى خادما معه رقعة مكتوب فيها:

قد تخوفت ان أموت من الوجد بد ولم يدرك من هويت بما بى
يا كتابى أقرى السلام على من لا يسمي وقل له يا كتابى
كف صب اليكم كتبتنى فارحموا كاتبى وردوا جوابى
ان كففا اليكم كتبتنى كففا صب فؤاده في العذاب
فأتانى الخادم بالرقعة فقلت ما هذه فقال رقعة فلانة الجارية التى غنتك بين يدي أمير
المؤمنين فأحسست بالقصة فشتمت الخادم ووئبت عليه وضربت به شفت به نفسه
وغبضى وركبت الى الرشيد من فوري فأخبرته بالقصة وأعطيته الرقعة فضحك حتى كاد
يستلقى ثم قال على عمد فعلت ذلك بك لامتحن مذهبك وطريقتك ثم دعا بالخادم فلما
رأنى قال لى قطع الله يديك ورجليك وملك قتلتنى فقلت القتل والله كان بعض حقد ولكنى
رحمتك وأخبرت أمير المؤمنين حتى يأتى فى عقوبتك بما تستحقه فأمر لى بصلة سنية والله
يعلم أنى ما فعلت ذلك عفافا لكن خوفا.

قلت: وقريب من هذه الحكاية ما نقلته من خط الشيخ بدر الدين البشتكى - سلمه الله
تعالى - وهو ان الوزير ابا عامر أحمد بن مروان بن عبد الملك بن عمر بن عيسى بن محمد
ابن شهيد كان أهدي له غلاما من النصارى لا تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال أنى

لك هذا قال هو من عند الله فقال تحفونا بالنجوم وتساثرون بالقمر فاستعذر واحتفل فى هدية بعثها له مع الغلام وقال يا بنى كن من جملة ما بعثت به ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسى وكتب معه:

أمولاي هذا البدر صار لافقكم وللأفق أولى بالبدور من الأرض
أرضيكم بالنفس وهى نفيسة ولم أرى قبلى من بمهجته يرض

فحسن ذلك عند الملك وأتحفه بمال جزيل وتمكنت عنده مكانته ثم انه بعد ذلك أهديت اليه جارية من أجمل نساء الدنيا فخاف ان ينمى ذلك الى الناصر فيطلبها فتكون قضية الغلام فاحتفل فى هدية أعظم من الاولى وبعثها معها اليه وكتب له:

أمولاي هذى الشمس والبدر أولا تقدم كيما يلتقى القمران
قران لعمري بالسعادة ناطق فدم منهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث ولا لك فى ملك البرية ثان

فتضاعفت مكانته عليه ثم ان أحد الوشاة رفع للملك انه بقى فى نفسه من الغلام حرارة وانه لا يزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول فقال للواشى بذلك لا تحرك به لسانك والا طار رأسك وأعمل الملك الحيلة فى ان كتب على لسان الغلام رقعة منها يا مولاي تعلم انك كنت لى على انفراد ولم أزل معك فى نعيم وأنا وان كنت عند الخليفة مشارك فى المنزلة مجاوز ما يدوم من سطوة الملك فتحيل فى استدعائى منه وبعثها له مع الغلام صغير السن وأوصاه ان يقول له هى من عند فلان وان الملك لم يكلمه قط ان سألته عن ذلك فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم فى سؤاله ما كان فى نفسه من الغلام وما تكلم به فى مجالس المدام وكتب على ظهر الرقعة ولم يزد حرفا:

أمن بعد احكام التجارب ينبغى لدى سقوط العير فى غابة الاسد
وما أنا ممن يغلب الحب عقله ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فان كنت روحى قد وهبتك طائعا وكيف ترد الروح ان فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد الى استماع واش به ودخل عليه بعد ذلك فقال له كيف خلصت من الشرك قال لأن عقلى بالهوى غير مشترك.

عن إسحاق عن أبيه قال استأذنت الرشيد ان يهب لى يوما من أيام الجمعة لانبعث فيه بجوارى واخوانى فأذن لى فى يوم السبت وقال يوم أسثقله فأث فيه بما شئت آال فأقامت

يوم السبت بمنزلى وتقدمت فى اصلاح طعامى وشرابى بما احتجت اليه وأمرت بوابى باغلاق الابواب وتقدمت اليه فى ألا يأذن لاحد على فبينما أنا فى مجلس والحرم قد حقفن بى يترددن بين يدى اذا أنا بشيخ ذى هيبه وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة لاطية ويده عكازة مقمعة بفضة وروايح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق فدخلنى لدخوله على مع ما تقدمت به غيظ عظيم وهممت بطرد بوابى ومن يحجبني لاجله فسلم على أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ بى فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب وظننت أن غلمانى تحروا مسرتى بادخال مثله على لادبه وظرفه فقلت له هل لك فى الطعام فقال لا حاجة لى فيه فقلت هل لك فى الشراب قال ذلك اليك فشربت رطلا فسقيته مثله فقال يا أبا إسحاق هل لك ان تغنى لنا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام فغاظنى قوله ثم سهلت الامر على نفسى وأخذت العود فحبسته ثم ضربت وغنيت فقال أحسنت يا إبراهيم فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير اذن واقتراحه على أغنيه حتى سمانى ولم يجمل مخاطبتى ثم قال هل لك ان تزيدنا فندمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت وقمت بما غنيت قياما تاما لقوله لى اكافئك فطرب وقال أحسنت يا سيدى وأوثق عددى ثم قال أتأذن لعبدك فى الغناء فقلت شأنك واستضعفت عقله فى أن يغنى بحضرتى بعدما سمعه منى فأخذ العود وحبسه فوالله لقد خلت انه ينطق بلسان عربى واندفع يغنى:

ولى كبد مقروحة من ييعنى بها كبدا ليست بذات قروح
أراها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذى فى جوانحي أنين غصيص بالشراب جريح

قال إبراهيم فوالله لقد ظننت الحيطان والابواب وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن غنائه حتى خلت والله أنى اسمع أعضائى وثيابى تجاويه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى ثم غنى:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فانى الى أصواتكن حزين
فعدن فلما عدن كدن يمتنى وكدت بأسرار لهن أبين
دعون بترداد الهدير كأنما شرين حميا أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حمائما بكين ولم تدمع لهن عيون

فكاد عقلى أن يذهب طربا، ثم غنى شعرا ليزيد بن الطثرية:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادنى مسراك وجدا على وجد

أئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى على غصن غض النبات من البرد
بكيت كما يبكى الحزين صباية وذبت من الحزن المبرح والجهد
وقد زعموا ان المحب اذا نأى يمل وان النائي يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على ان قرب الدار خير من البعد

ثم قال يا إبراهيم هذا الغناء المأخوڑى خذہ وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك
فقلت أعده على فقال لست تحتاج قد أخذته وفرغت منه ثم غاب من بين عيني فارتعت
وقمت الى السيف فجردته ثم غدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة فقلت للجوارى
أى شىء سمعتن عندى فقلن سمعنا أحسن غناء ما سمع بمثله قط فخرجت متحيرة الى باب
الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ فقال أى شيخ والله ما دخل اليوم اليك أحد
فرجعت لأتأمل أمرى فاذا هو قد هتف من بعض جوانب البيت وقال لا بأس عليك يا أبا
إسحاق أنا ابليس وأنا كنت نديمك اليوم فلا ترع فركبت الى الرشيد وأظرفته بالحديث
فقال لى ويحك اعتبر الاصوات التى أخذتها فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى
فطرب الرشيد عليها وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشرب وأمر لى بصلة جزيلة قال
وكان الشيخ أعلم بما قال انك قد أخذتها وفرغت منها فليتة أمتعنا بنفسه يوما واحدا كما
أمتعك.

قال أبو الفرج الاصفهاني هكذا حدثنا ابن أبى الازهر لهذا الخبر وما أدري ما أقول فيه.
عن المدائنى قال قال إبراهيم الموصلى قال لى الرشيد يوما يا إبراهيم انى قد جعلت
غدا للحرم وليلته للشرب مع الرجال واقتصرت من المغنين عليك فلا تشتغل غدا بشىء
ولا تشرب نبیذا وكن بحضرتى فى وقت العشاء الآخرة فقلت السمع والطاعة لأمير
المؤمنين فقال وحق أبى لئن تأخرت أو اعتللت بشىء لاضررين عنقك قلت نعم يا أمير
المؤمنين وخرجت فما جاءنى من أحد الا احتجبت عنه ولا قرأت رقعة لاحد حتى اذا
صليت المغرب ركبت قاصدا اليه فلما قربت من داره مررت بفناء قصر واذا زنبيل كبير
مستوثق منه بحبال وأربع عرى ادم قد دلى من القصر وجارية قائمة تنتظر انسانا قد وعد
ليجلس فيه فنازعتنى نفسى الى الجلوس فيه ثم قلت هذا خطأ فلعله ان يجرى سبب يعوقنى
عن الخليفة فيكون الهلاك فلم أزل أنازع نفسى حتى غلبتنى فجلست فى الزنبيل فرفع حتى
صار فى أعلا القصر ثم خرجت فنزلت فاذا جوار كأنهن أقمار جلوس فضحك وطربن
وقلن قد جاء والله فلما رأينى من قريب تبادرن الى الحجاب وقلن يا عدو الله ما أدخلك الينا

فقلت يا عدوات الله الذى أردتن ادخاله خير منى ولم كان أولى منى ولم يزل ذلك دائرا وهن يضحكن وأضحك معهن فقالت احداهن أما من أردتن فقد فات وما هذا الا ظريف فهل من نعاشره معاشرة جميلة فأخرج الى طعام ولم يكن فى فضل الا أنى كرهت أن أنسب الى سوء العشرة فأصابت منه ثم جىء بالنبيذ وجعلت أشرب وأخرجت ثلاث جوار لهن فغنين غناء حسنا فغنت احداهن صوتا لمعبد فقالت إحدى الثلاث من وراء الستر أحسن إبراهيم هذا له فقلت كذبت هذا لمعبد فقالت يا فاسق وما يدريك الغناء ما هو ثم غنت الاخرى صوتا للغريض فقالت تلك أحسن إبراهيم هذا له أيضا فقلت كذبت يا خبيثة هذا للغريض فقالت اللهم اخزه ويلك ما يدريك ثم غنت الجارية صوتا لى فقالت تلك هذا لشريح وأحسن فقلت كذبت هذا لإبراهيم وأنت تنسبين غناء الناس إليه وغناؤه إليهم فقالت وما يدريك فقلت أنا إبراهيم فتباشرن بذلك وظهرن كلهن لى وقلن كتمتنا نفسك وقد سررتنا سرورا عظيما فقلت أنا الآن أستودعكن الله فقلن وما السبب فأخبرتهن بقصتى مع الرشيد فضحك وقلن الآن والله طاب حبسك علينا ان خرجت أسبوعا فقلت هو والله القتل فقلن الى لعنة الله فأقمت والله عندهن أسبوعا لا أزول فلما كان بعد أسبوع ودعنتى وقلن ان سلمك الله فأنت بعد ثلاث أيام عندنا قلت نعم فأجلستنى فى الزنبيل وسرحت فمضيت لوجهى حتى أتيت دار الرشيد فاذا النداء قد أشيع بيغداد فى طلبى وأن من أحضرنى فقد سوغ مالى وملكى فاستأذنت فبادر الخدم حتى أدخلونى على الرشيد فلما رآنى شتمنى وقال السيف والنطع انك يا إبراهيم تشاغلتن عنى وجلست مع السفهاء أشباهك حتى أفسدت على لذاتى فقلت يا أمير المؤمنين أنا بين يديك وما أمرت به غير فائت ولى حديث عجيب ما سمع بمثله وهو الذى قطعنى عنك ضرورة لا اختيارا فاسمعه فان كان عذرا فاقبله فقال هاته فحدثته فوجم ساعة ثم قال ان هذا لعجيب أفتحضرنى معك قلت نعم وأجلسك معهن ان شئت قبلى حتى تحصل عندهن وان شئت فعلى موعد فقال بلى على موعد قلت أفعل قال انظر قلت ذاك حاصل فلما أصبحت أمرنى بالانصراف وان أجيبه من عندهن فمضيت اليهن وقت الوعد فوجدت الزنبيل على حاله فجلست فيه ومدت الجوارى وصعدت فلما رايننى تباشرن بى وحمدن الله على سلامتى وأقمت ليلتى فلما أردت الانصراف قلت ان لى أخا هو عندى عدل نفسى وقد أحب معاشرتكن ووعدته بذلك فقلن ان كنت ترضاه فمرحبا بذلك فوعدتهن ليلة غد وانصرفت وأتيت الرشيد فأخبرته فلما كان الوقت خرج معى متخفيا وقد كان الله وفقنى أن قلت لهن اذا جاء صديقى فاستترن عنى وعنه ولم يسمع لكن لفظة وليكن ما تخترنه من الغناء أو تقلنه من قول مراسلة فلم يتعدين ذلك وأقمن على أتم

ستر وخفر وشربنا شربا كثيرا وقد كان أمرنى الا أخاطبه بأمر المؤمنين فلما أخذ النبيذ منى قلت سهوا يا أمير المؤمنين فتواثبن من وراء الستارة حتى غابت عنا حركاتهن فقال لى يا إبراهيم قد أفلتت من أمر عظيم والله لو برزت لك واحدة منهن لضربت عنقك قم بنا فانصرفنا فاذا هن له وقد كان غضب عليهن فحبسهن فى ذلك القصر ثم وجه من غد بخدم فردوهن الى قصره ووهب له مائة ألف درهم وكانت الهدايا والالطاف تأتىنى بعد ذلك منهن.

حكاية: تناظرت المغنون يوما عند الواثق فذكروا الضراب وحذاقهم فقدم إسحاق ابن إبراهيم الموصلى رربا على ملاحظ ولملاحظ فى ذلك الرياسة عليهم كلهم فقال الواثق هذا حيف وتعد منك فقال إسحاق يا أمير المؤمنين اجمع بينهما وامتحانهما فان الامر سينكشف لك فيهما فأمر بهما فأحضرا فقال له إسحاق ان للضراب أصواتا معروفة فامتحانهما بشيء منها قال افعل فسمى ثلاثة أصوات كان أولها:

علق طيبة السكب جهلا	فقد أغرى بتعذيبى
نمت عليها حين مرت بنا	محاسن ينفحن بالطيب
تصدها عنا عجوز لها	منكرة ذات أعاجيب

الشعر والغناء لإسحاق فضربا عليه فتقدم ررب وقصر ملاحظ فعجب الواثق من كشفه عما ادعاه فى مجلس واحد فقال ملاحظ فما باله يا أمير المؤمنين يحيلك على الناس ولا يضرب هو فقال يا أمير المؤمنين انه لم يكن فى زمانى أضرب منى ولكنكم أعفيتمنى من الضرب فثقلت على ومع ذلك ان معى بقية لا يتعلق بها أحد من هذه الطبقة ثم قال يا ملاحظ شوش عودك وهاته ففعل ملاحظ ذلك فقال إسحاق يا أمير المؤمنين هذا خلط الاوتار خلط متعنت وهو لا يآلو افسادها ثم أخذ العود فحبسه ساعة حتى عرف واقعه ثم قال يا مخارق غن أى صوت شئت فغنى مخارق صوتا وضرب عليه إسحاق بذلك العود الفاسد التسوية فلم يخرججه من لحنه فى موضع واحد حتى استوفاه عن نقرة واحدة ويده تصعد وتنحدر على الدساتين فقال له الواثق والله ما رأيت مثلك قط ولا سمعت به اطراحه على الجوارى فقال هيهات يا أمير المؤمنين هذا شيء لا يفى به الجوارى ولا يصلح لهن البتة وانما بلغنى ان الفليهد ضرب يوما بين يدي كسرى أثر وتر فأحسن فحسده رجل من حذاق أهل صناعته فرقبه حتى قام لبعض شأنه فخالقه الى عوده فشوش بعض أوتاره فرجع وضرب وهو لا يدري والملوك لا تصلح فى مجالسها العيدان فلم يزل يضرب بذلك العود

حتى فرغ ثم قام على رجله وأخبر الملك بالقصة فامتحن العود فعرف ما فيه فقال له زه وزه ورهان زه ووصله بالصلة التى كان يصل بها من يخاطبه بهذه المخاطبه فلما تواطأت الروايات بهذا أخذت نفسى به وروتها عليه وقلت لا ينبغي أن يكون الفلهد أقوى على هذا منى فما زلت أستنبطه بضع عشرة سنة حتى لم يبق فى الاوتار موضع على طبقة من الطبقات الا وأنا أعرف نغمته كيف هى والمواضع التى تخرج النغم كلها من أعاليها الى أسافلها وكل شىء منها يجانس شيئاً غيره كما أعرف ذلك فى مواضع الدساتين. وهذا شىء لا يفى به الجوارى فقال له الواثق لعمرى لقد صدقت ولئن مت لتموتن هذه الصناعة معك وأمر له بثلاثين ألف درهم.

الباب الثالث والعشرون

فى الغلمان

كان يقال العبد من لا عييد له وقال دغفل السابة فى المماليك هم غير مستفاد وغيظ فى الاكباد وقال سعيد بن مسلم لا بد للعميد من عبيد وقال جعفر بن سليمان العبيد ان أكلوا من مالك زاد فى جمالك وقال غيره العيش فى سعة الدار والعز فى كثرة العبيد وقال آخر عز الملوك فى كثرة المماليك وقال آخر رب عبد خير من الولد لان الولد فى أكثر الاحوال يرى صلاحه فى موت والده والعبد يرى صلاحه بقاء مولاه.

كان يحيى بن أكرم يقول قد أكرم الله تعالى أهل جتته بأن أطاف عليهم الغلمان فى وقت رضاه عنهم وافضاله عليهم وبره بهم لفضلهم فى الخدمة على الجوارى وما الذى يمنعى عاجلا فى طلب هذه المزية المخصوص بها أهل القرية عند الله تعالى والزلفة لديه.

وقال مطيع بن إياس لو لم يكن للمرد فضيلة لما كان الله جعل ملائكته مردا وأهل الجنة مردا وهذا فيه كفاية وانما عنى الحديث أهل الجنة جرد مرد مكحولون، وكان والية ابن الحباب يقول الغلام هو الرفيق فى السفر والصديق فى الحضر والمعين على الشغل والنديم عند الشرب وهو سبب الانس.

وقيل لمسلم الاصفرى لم فضلت الغلام على الجارية فقال لانه فى السفر صاحب ومع الاخوان نديم وفى الخلوة أهل.

ومن رسالة الشيخ جمال الدين بن نباتة وكان فى فرجة يحدث مرآها الحسن أحاديث جنان امامه عشرة مماليك من الترك ليس الخبر فى محاسنهم المبدعة كالعيان جلبهم الى مصر تاجر لحظته السعادة فاستنزلت له البدور من آفاقها وأصحبته الشمس بشرفها واشراقها فصار الى مصر بيوسف وبمن سجد له فى المنام وأتى بلاد القبلة بجماعة ما منهم الا من هو فى الحسن امام وما فيهم الا من يقول له المتأمل بلسان الاعتراف يا بشرى هذا سيد وبلسان العرف يا بشرى هذا غلام قد وشحوا بالدقة خصورهم وحموا بأسيايف الجفون كما تحمى الثغور ثغورهم من كل لدن القوام مهفهفة ساجى الطرف أوظفه حلو الجناية والمجانى طيف العين لا ينجود على العانى منسوب الى أرض القان أصله فيا حزنا من خده

القانى قد أفضح البدور في الدياجى ورمى القلوب من حبه ولها بين هاجره وهاجى وعلا
بعنق يجلب من أرض الفرات فعطل عنق الغزال بأرض حاجى ونضى من جفن عينيه
حساما وقسم من لحظاتها على القلوب سهاماً وطال قده عن قصر الاغصان ودنا عن الرماح
فكان بين ذلك قواما فسبحت حين رأيت الأثمار واقفة على الأرض وتفاءلت بوجوه حب
التأول بمثلها كاد يكون من الفرض وقلت:

فجئت من الاتراك سرجا آذر يعلم زهاد الورى كيف تعشق
لهم منظر فى الحسن يفتح خاطرا ولكن سهم اللحظ فى القلب مفلق
دخلت بقلبي فى مجال عيونهم فأودى به ذاك المجال الضيق
وكم قمر فى القوس عاينت منهم فما لك يا طرفى المسافر تعلق
واستقبلنا دمشق على هذا الفأل الجليل وفاصلنا السفرة - بحمد الله - على وجه جميل .

فصل: فى المنظوم من ذلك قول لسان الدين ابن الخطيب فى غلام ساقى قال:

كيف أمتما على الشرب ساق لحظه فى القلوب غير أمين
راح يسقى فصب فى الكأس نذرا ثقة منه بالذى فى العيون
وقال الشيخ شمس الدين الرئيس فيه:

مدير الكأس حدثنا ودعنا بعيشك من كتوسك والحديث
حديثك عن قديم الراح يغنى ولا يسقى الانام سوى الحديث
وقال صلاح الدين الصفدى فى غلامه يشوى أوزا:

قلت لما شوى الحبيب أوزا واكتسى باللهب ثوب سناء
لو يعيش الجزار مات معنى فى معانى محاسن الشوائى
وله أيضا فيه:

شوى الاوز فأضحت فى خمرة الخد بسطه
فقلت تشوى أوزا أم كنت تشوى بطه

قال الشيخ برهان الدين القيراطى فى غلام يلعب بالعود:

غنى على العود شاد سهم ناظره أضحى به قلبى المضنى على خطر
دنا الى وحسبت كفه وترا فراحت الروح بين السهم والوتر
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى ساقى معذر:

مبقل الخد أدار الطلا فقال لى فى حبها عاتى
عن أحمر المشروب ما تنهى قلت ولا عن أخضر الشارب

وقال فى غلام تركى أهيف:

علقتنه من بنى الاتراك مقتنرنا
حمالة الحللى والديياج قامته
من خاطرى وهو منى غير مقترب
تبت غصون الربا حمالة الحطب
وقال الشيخ صفى الدين الحللى فى راقص:

جاء وفى قلده اعتدال
قد خففت عطفه شمال
مهنهف ماله عدل
وثقلت جفنه شمول
ثم انثنى راقصا بقـ
يجول ما بيننا بوجه
ورنح الرقص منه عطفـ
فمطفه داخل خفيف
وقال آخر فى راقص:

وراقص أبصرته مرة
لو قليل شعر بين كسره
فلم أزل بالرقص مفتونا
أخرجه بالرقص موزونا
وقال ابن خروف النحوى الاندلسى فيه:

ومنوع الحركات يلعب بالنهى
متأودا كالغصن بين رياضه
لبس المجاسن عند خلع لباسه
متلاعبا كالظلى عند كناسه
كالدهر يلعب كيف شاء بناسه
وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة فى غلام يرمى بالقوس:

فديتك أيها الرامى بقوس
لقوسك نحو حاجبك انجذاب
ولحظ يا ضنا جسدى عليه
وشبه الشئ منجذب اليه
وقال محى الدين بن قناص فى غلام يرمى فى الاماج:

أتى الاماج مائسا والردف قد أقلقه
يرشق ثم يثنى بالله ما أرشقه
وقال بدر الدين حسن العربى فى غلام يرمى فى الايك:

أهواه فى الأيك يرمى دائماً
أطلقت لحظى نحوه فأصابنى
وسواد قلب الصب من اعراضه
سهم وما عاينت كشف بياضه
قلت: ما أحسن قول الشيخ الموصلى من قصيدة:

أصاب فؤادى المستهام بعينه
فكلمه سهم له غير ناطق

ولبعضهم فى غلام يقوم سهما:

وافى وفى يده سهم يقومه يومى اليه بعينيه ويرمقه
وذاك ابداع سر من لوحظه فيه ليزداد فعلا حين يرشقه

نكتة حسنة: عزم الملك المعظم على الصيد فقال له بعض الجماعة يا مولانا القمر فى العقرب والسفر فيه مذموم والمصلحة الصبر الى أن ينزل القمر القوس فعزم على الصبر فبينما هو مفكر اذ دخل مملوك له من أحسن خلق الله وجهها يقال له آى دغدى فوقف قدامه وقد توشح بقوس فقال له بعض الحاضرين يا مولانا بالله اركب الساعة فهذا القمر فى القوس حقيقة فقام لوقته وركب استبشارا وتفاؤلا بالقول فلم ير أطيب من تلك السفارة ولا أكثر من صيدها.

وقال بدر الدين حسن بن حبيب الحلبي فى غلام تركى يطلب وردا شعرا:

رام ظبى النـرك وردا قلت أقصر خاب ضحك
عندك الورد المـربى قال فأنى قلت خـدك

وقال الشيخ زين الدين العجمي ونقلتها من خطه فى غلام نثر وردا من أكمامه:

وافى وفى كمييه ورد أحمر حى به مذ بست تحت لثامه
فرشفت صرف الراح من خرطومه وجئت غض الورد من أكمامه

وقال برهان الدين القيراطى فى غلام مطاوع:

أباح لى من نرجس أحداقه فى مجلس ما فيه ما نكره
فقلت ورد الخد جد لى به أيضا فقال الكل فى الحضره
وقال شمس الدين بن الصائغ فى غلام ذى خال:

بروحى أفدى خاله فوق خده ومن أنا فى الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده وأسكن كل الحسن فى ذلك الخال

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة فى غلام يدعى مقبل:

يا من تحجب عن محب صادق ما زال عنده كل يوم يسأل
من لى بيوم فيه يسمح باللقا . ويقال لى هذا حبيبك مقبل

وقال برهان الدين القيراطى فى غلام ييكى شعرا:

لم ييك حـمين بكيت من هجرانه متحسرا

وقد ذكرنهما فى باب البركة والشاذروان والفؤارة وأنشدنى من لفظه لنفسه الشيخ

شمس الدين الرئيس فى غلام مليح وله لآلاء مضمنا:

ومليح لآلائه قـد حكاه فهو كالبدرد فى الدجى يتلالا
 قلت قصدى من الانام مليح هكذا هكذا والا فـلالا
 وأنشدنى من لفظه لنفسه سيدى وأخى المولى الكامل شمس الدين محمد الشهير بابن
 الكفتى - أبقاه الله تعالى - لاجباه حسبما اقترحت فى غلام يعتز على من يهواه:
 وارحمناه لقلبى كان يمنحنى حى وصالا وكان الحب مستترا
 وحين باحت بسرى أدمع هملت درى بعشقى له فاعتز واقتدرا
 وقال الشيخ المحدث الفصيح الترحال صلاح الدين خليل الاقفهسى قال أنشدنى
 الشيخ العارف الناسك المحقق الصوفى إبراهيم بن الشيخ أحمد العربى الشهير بابن رقاعة
 أعاد الله من بركته من لفظه لنفسه فى غلام معذر:

رسم العذار بعارضيه بنفسجا فوق الخدود فصار كالمرقوم
 قبلت مرسوم العذار تأديا ومن التأذب قبلة المرسوم
 وكتب الى القاهرة المحروسة من بعض متجدداته سيدى الجناب المجدى بن مكاس
 أبقاه الله تعالى فى غلام أبيض:

دعنى وحالى فى هوى أبيض كالبدرد أو أحسن من ذلك
 وعش مغنى فى هوى أسمر أو مت اذا ما شئت فى حالك
 وقال شمس الدين محمد بن العفيف فى غلام جرحت كفه السكين:
 لم تجرح السكين كف معذى الا لمعنى فى الهوى يتحقق
 هى مثلما قد قبل جارحة غدت ولكل جارحة إليه تشوق

وكتب الى القاهرة من بعض متجدداته سيدى القاضى شهاب الدين أحمد ابن حجر
 - سلمه الله تعالى - فى غلام مر بروضة مزهزة:

ولم آنس اذ مر الحبيب بروضة فغارت من المحبوب أعينها المرضى
 ولاحت بخد الورد فى الروض حمرة جاء وسمت أطراف نرجسه غضبى

وقال محبى الدين بن قرناص فى غلام شد بوسطه بندا أحمر:
 من لقلبى من جور ظبى هواه لى شغل عن حاجر وعتيق
 خصر تحت أحمر البند يحكى خنصرا فيه خاتم من عقيق

وقال صلاح الدين الصفدى أنشدنى من لفظه لنفسه المولى شهاب الدين أحمد بن
 مهاجر بحلب المحروسة فى غلام لابس لامة حرب:
 ما لاح فى درع يصول بسيفه والوجه منه يضىء تحت المففر

الا حسبت البحر مد بجدول والشمس تحت سحاب من عنبر
وقال جمال الدين بن نباتة فى غلام يدعى خليل مضمنا:

يغيب خليل الحسن عنى ليلة فأسأم من ليل طويل أراقبه
وكيف بطيب الليل عندى والكرى وليس الى جنبى خليل ألاعبه
وأشندنى الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه فيه:

قال حبيب خليلى غيرت ودى وتركت الفؤاد منى عليلا
بعد عشق الملاح صرت تقيا ما تراعى من الانام خليللا
وأشندنى سيدنا ومولانا القاضى صدر الدين بن الأدمى حسبما ورد اقتراحه من السادة
المخاديم فضلاء الديار المصرية لنفسه:

يا متهمى بالقسم كن منجدى ولا تطل رفضى فانى عليل
أنت خليلى فبحق الهوى كن لشجونى راحما يا خليل
وقال سيدنا القاضى بدر الدين الدمامينى فى غلام يسقى الماء:

بروحى ساق همت اذ طاف بيننا باكبواه اللاتى سقين أناما
ورمت ارتشاف الريق منه فلم يجد ولكن كسا جسمى ضنا وسقاما
ولنختم هذا الباب بحكاية لطيفة ونكتة غريبة ذكرها أبو الفرج المعروف بالبيغاء قال:

تأخرت بدمشق عن سيف الدولة بن حمدان مكرها وقد سار عنها فى بعض وقائمه
وكان الخطر شديدا على من أراد اللحاق به من أصحابه حتى ان ذلك كان مؤديا الى النهب
وطول الاعتقال فاضطرت الى اعمال الحيلة فى التخلص والسلامة بخدمة من بها من
الرؤساء والاخشيديّة وكان سنى فى ذلك الوقت عشرين سنة وكان انقطاعى منهم الى أبى
بكر على بن صالح الروزبَادى لتقدمه فى الرياسة ومكانته من الفضل والصناعة فأحسن
مقيلى وبالع فى الإحسان الى وفضلت تحت الضرورة فى المقام فتوقت على قصد البقاع
الحسنة والمنتزهات المطروقة تسليا وتعللا فلما كان فى بعض الأيام عملت على قصد دير
مران وهذا الدير مشهور الموضع فى الجلالة وحسن المنظر فاستصحب من كنت آنس به
وأمرت بحمل ما يصلح وتوجهنا نحوه فلما نزلنا أخذنا فى شأننا وقد كنت اخترت من
رهبانه لعشرتنا من توسمت فيه رقة الطبع وسماحة النفس والخلق حسبما جرى به الرسم
فى غشيان العمار وطروق الديرة من الطرق بعشرة أهلها والأنسة بسكانها ولم نزل الأقداح
دائرة بين مطرب الغناء وزاهر المذاكرة الى أن فض اللهو ختامه ولوح السكر لصحبي
أعلامه وحالت منى نظرة الى بعض الرهبان فوجدته الى خطايبى متوثبا ولنظرى اليه مترقبا

فلما أخذته عينى أكب على يزعجنى بخفى الغمز ووحى الإيماء فاستوحشت من ذلك وأنكرته ونهضت عجلا واستحضرتة فأخرج الى رقعة مختومة وقال لى قد ألزمتك فرض الامانة فيما تتضمنه هذه الرقعة دونى وسقط زمام كتابها فى استرها نك عنى ففضضتها فاذا فيها بأحسن خط وأملحه وأقواه وأوضحه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لم أزل فيما تؤديه هذه المخاطبة يا مولاي بين حشم يحث على الانقباض عنك وحسن ظن يحض على السانح بنفيس الحظ منك الى أن استنزلتنى الرغبة فيك على حكم الثقة بك من غير خبره ورفعت بينى وبينك سحب الحشمة فأطعت بالانبساط أوامر الموانسة وانتهزت فى التوصل الى مودتك فأبت الفرصة والمستماح منك جعلنى الله فذاك زورة ارتجع بها ما اغتصبتنيه الايام من المسرة مهنة بالانفراد الامن غلامك الذى هو مادة مسرتك وأنشد:

وما ذاك عن خلق يضيق بطارق ولكن لأخذ باحتياط على حالى
فان صادف ما خطبته منك أيدك الله قبولا ولديك نفاقا فمنية غفل الدهر عنها وان فارق
مذهبه فيما أهدها الى منها جرى على رسمى فى المضايقة فيما أوتره وأهواه وأترقه من
قربك وأتمناه فزمام المروءة يلزمك رد هذه الرقعة وسترها وتناسيها واطراح ذكرها واذا أنا
بأبيات تلو الخطاب:

يا عامر العمر بالفتوة والقصف	وحت الكئوس والطرب
هل لك من صاحب يناسب فى الفر	بة أخلاقه وبالأدب
أوحشه الدهر فاستراح الى	قربك متنصرا على النوب
فإن تقبلت ما أتاك به فلم	يشب الظن فيه بالكذب
وان أبى الزهد دون رغبتنا	نكن كمن لم يقل ولم يجب

قال أبو الفرج ورد على ما حيرنى واسترد منى ما كان الشراب حاره من تمييزى وحصل لى فى الجملة أن أغلب الاوصاف على صاحبها الكتابة خطا وترسلا ونظما فشاهدته بالفراصة فى ألفاظه وحمدت أخلاقه قبل الاختبار من رقعة وقلت للراهب من هذا ويحك وكيف السبيل اليه فقال أما ذكره فاليه اذا اجتمعنا وأما السبيل الى لقائه فسهل ان شئت قلت دلنى قال فكيف تعمل بالغلمان قلت لا أدري قال تظهر فتورا وتنصب عذرا تفارق به أصحابك مصرفا فاذا حصلت بباب الدير عدلت بك الى باب تدخل منه فرددت الرقعة اليه وقلت أدفعها اليه ليتأكد أنسه وسكونه الى وعرفه ان التوفر على اعمال الحيلة فى المبادرة

الى حضرته على ما أوتره من التفرد أولى من التشاغل باصدار جواب وقطع وقت بمكاتبة ومضى الراهب وعدت أصحابى بغير النشاط الذى ذهبت به فأنكروا ذلك فاعتذرت اليهم بشيء عرض لى واستدعيت ما أركبه وتقدمت الى من كان معى من الخدم بالتوفر على خدمتهم وقد كنا عملنا على المبيت فأجمعوا تعجل السكر والانصراف وخرجت من باب الدبر ومعى غلام صبي كنت أنس به وبخدمته وتقدمت الى الشاكى برد الدابة وستر خبرى ومباكرتى فتلقانى الراهب وعدل بى الى طريق مضيق وأدخلنى الى الدبر من باب غامض وصار بى الى باب قلالية متميز عما جاوره من الابواب نظافة وحسنا فقرعه بحركات مختلفة كالعلامة فابتدنا منه غلام كأن البدر ركب على أزراره مهفهم الكشح مخطفه معتدل القوام أميفه نخال الشمس برقعت غرته والليل ناسب أصداغه وطرته فى غلالة تنم على ما يستره وتجفو مع رقتها عما يظهره وعلى رأسه مجلسيته بصمت فبهر عقلى حسنا فاستوقف نظرى ثم جفل كالطبي المذعور فتلوت والراهب الى صحن القلالية فاذا أنا ببيت فضى الحيطان رخامى الأركان مفروش بحصير قد اتعب صانعه منقوش كأنه روضة مزخرفة بالنور أضحكها سقوط الندى فوثب الينا منه فتى مقبل الشباب حسن الصورة والإهاب ظاهر النبل والهيئة فلقينى حافيا يعثر فى سراويله واعتقنى ثم قال انما استخدمت هذا الغلام الى تلقيك يا سيدى لاجعل ما لعلك استحسنته من وجهى مصانعا عما يرد عليك من مشاهدتى فاستحسنتم اختصاره الطريق الى بسطى وارتجاله النادرة على نفسه حرصا فى تأنسى وأفاض فى شكرى على المسارعة أمره وأنا أوصل فى خلال سكتاته المبالغة فى الاعتدال به ثم قال يا سيدى أنت مكدود بمن كان معك والاستمتاع بمحادثتك لا يتم الا بالتوصل الى راحتك وقد كان الامر على ما ذكر فاستلقت يسيرا ثم نهضت فخدمت فى حالتى النوم واليقظة الخدمة التى ألفيتها فى دور أكابر الملوك وأجلة الرؤساء وأحضر لنا خادما له لم أر أحسن وجهها منه يحمل طبقا يضم ما يتخذ للعشاء مما خف ولطف وقال الا كل منى يا سيدى للحاجة ومن لك للمالحة والمساعدة فاكلنا شيئا وأقبل الليل وطلع القمر ودخل من مناظر ذلك البيت الى فضاء ادى الينا محاسن الغوطة وحيانا بذخائر رياضها من المنظر الجانى والنسيم العطرى وجاءنا الراهب من الاشربة بما وقع عليه اتفاقنا على المختار منه ثم غالب اللذة وجرينا فى ميدان المفاوضة فلم نزل نتناهى نواذر الاخبار وملح الاشعار ونمزج ذلك من المزج بأظرفه ومن التودد بالطفه الى أن توسطنا الشراب فالتفت

الى غلامه وقال يا مترف ان مولاك ليس مما يدخر عنا السرور بحضوره وما يجب ان ندخر
ممكنا فى مسرته فانتقع وجه الغلام حياء وخفرا فأقسم عليه بحياتى وأنا لا أعلم ما يريد
فمضى وعاد يحمل طنбора وجلس وقال لى يا سيدى أتأذن لى فى خدمتك فهيمت بتقبيل
يده لما تداخلى من السرور بذلك فأصلح الطنبور وضرب وغنى هذه الابيات:

يا مـالـكى وهو ملكى وسـالـبى ثواب نسكى
نزه يقين الهوى في لك عن تعرض الشك
لولا مـا كنت أبكى الى الصـباح وأبكى

فنظر الى الغلام وتبسم فعلمت ان الشعر له فكدت والله أطيّر فرحا بملاحة خلقه
وحسن خلقه وقوة حذقه وجودة ضربه وعذوبة ألفاظه وتكامل حسنه فاستدعيت كثيرا
فأحضر الخادم عدة قطع من فاخر البلور وجيد المحكم فشربت سرورا بوجهه وشرب
بمثل ما شربت ثم قال لى أنا والله يا سيدى أحب ترفيهاك ولا أقطعك عما أنت متوفر عليه
ولكن اذا عرفت الاسم والنسب والصناعة واللقب فلا بد ان نشى ليلتنا بشيء يكون لها
طرازا ولذاكرها معلما فجذبت الدواة وكتبت ارتجالا وقد أخذ الشراب منى هذه الأبيات:

وليلة اوسـعـتـنى حسنا ولهوا وأنسا
ما زلت الشم بدرا بها وأشرب شمسا
اذ أطلع الدبر سـعـدا لم يبك مذ كان نحسا
فصار للروح روحا وصار للنفس نفسا

فطرب على قولى أأشم بدرا وأشرب شمسا وجذب غلامه فقبله وقال ما جهلت ما
يجب لك من التوقير وانما اعتمدت تصديقك فيما ذكرته فبحياتى الا ما فعلت ذلك
بغلامك فاتبعته ايثاره خوفا من احتشامه وأخذ الابيات وجعل يرددها ثم أخذ الدواة وكتب
اجازتها:

ولم أكن لغرمى والله أبذل فلسا لو ارضى لى غرمى بدير مران حبسا

فقلت اذا والله ما كان يؤدى أحد حقا ولا باطلا وداعبته فى هذا المعنى بما حضر
وعرفت فى الجملة انه متستر من دين وقال لى قد خرج اليك أكثر الحديث فان عذرت والا
ذكرت لك الحال لتعرفها على صورتها فبينت ما يؤثره من كتمان أمره فقلت له يا سيدى كل
من لا يتعرف بك نكرة وقد اغنت المشاهدة عن الاعتذار وبانت الخبرة عن الاستخبار
وجعل يشرب وينتحب من غير استكراه ولا حث ولا استبطاء الى أن رأيت الشرب قد دب

فيه وأكب على مجاذبة غلامه والفتنة تشنيه فى الوقت بعد الوقت فأظهرت السكر وحاولت النوم وجاء الغلام بفرش حسن وفرش لى بازاء فرشه فنهض اليه وقام يتفقد أمرى بنفسه فقلت له ان لى مذهبا فى تقريب غلامى منى واعتمدت بذلك تسهيل ما يختاره من هذا الحال فى أمر غلامه فتبسم وقال لى بسكره جمع الله لك شمل المسرة كما جمع جمعه لى بك وأظهرت النوم وعاد الى محادثة غلامه وعاتبه بأعذب لفظ وأحلى معاتبة ويمزج ذلك بمواعيد تدل على سعة وانبساط يد وغلامه تارة يقبل يده وتارة فمه وغلبتنى عينائى الى ان أيقظنى هواء السحر وانتبهت وهما متعانقان بما كان عليهما من اللباس فأردت توديعه فخفت انتباهه وازعاجه فخرجت فلقينى الخادم يريد ايقاظه وتعريفه بانصرافى فأقسمت عليه ألا يفعل ووجدت غلامى قد بكر بما أركبه كما كنت أمرته فركبت منصرفا وعاملا على العودة اليه والتوفر على مواصلته وأخذ الحظ منه فى معاشرته ومتوهما ان الذى كنت فيه مناما لطيبه وقرب أوله من آخره واعترضتنى أسباب أدت الى اللحاق بسيف الدولة فسرت على أتم حسرة لما فاتنى من معاودة لقاءه وقلت فى ذلك هذه الايات:

فصار يسمى بيننا هبة الدهر	ويوم كان الدهر سامحنى به
الى دير مران المعظم ذى القدر	جرت فيه افراس الصبا بارتياحنا
ومن نهر بالفيض يجرى الى نهر	فمن روضة بالحسن توقد روضه
وصحى حلالا بعد توفية المهر	وفى الهيكل المعمور منه اقترعها
فما زلت منها أشرب التبر بالتبر	ونزهت عن غير الدنانير قدرها
وهل يحظر المحظور فى بلد الكفر	وحل لنا ما كان منها محرما
دعتنى فى ستر فلبيت فى ستر	فأهديت لى الايام فيه مودة
فخاطبنى من معدن النظم والشر	أتى من شريف الطبع أصدق رغبة
ومن ذا الذى لا يستجيب الى اليسر	وكان جوابى طاعة لا مقالة
محلى السجايا بالطلاقة والبشر	فلاقيت من العينين نبلا وهمة
يريد اختداعى عن حياتى ولا أدرى	وأحشمنى بالبر حتى حسبته
وكنت وياه كقلبين فى صدر	ونزه عن غير الصفاء اجتماعنا
فلا طفنا بالبدر أو بأخى البدر	وشاء السرور ان يلينا بثالث
ومضت القلوب بالتحيى وبالهجر	يمعط العيون ما أسهمت من جماله
وزهر الربا من روض خديه والشفر	جنينا جنى الورد فى غير حينه

وقابلنا من وجهه وشرابه
وغنى فصار السمع كالطرف أجدا
وأتبعنا فى وجتيه بمثل ما
سرور سكرنا منه لا صحوا اذا دعا
كان الليالى نمن عنه فبعدهما
مضى وكأنما كنت فيه مناما
وهل يحصل الانسان من كل ما به
تسامحه الايام الا على الذكر

ولم أزل على أتم قلق وأعظم حسرة وأشد تأسف على ما سلبت من عظيم النعمة بفراق
الفتى لا سيما ولم أحصل منه على حقيقة ولا يقين برؤيائى الى الطوع فى لقائه الى أن عاد
سيف الدولة الى دمشق وأنا فى جملة ما بدأت بشيء قبل المصير الى الراهب وقد كنت
حفظت اسمه فخرج الى مرعوبيا ولا يعرف السبب فلما رآنى استطار فرحا وأقسم لا
يخاطبنى الا بعد النزول والمقام عنده يومى ذلك ففعلت فلما جلسنا للمحادثة قال ما لى
أراك لا تسألنى عن صديقك قلت والله ما لى فكر منصرف عنه ولا أسف يتجاوز ما حرمة
منه ولا سررت بعودى الى البلد الا من أجله ولذلك بدأت بقصدك فاذا لى خبره فقال أما
الآن فنعم هذا فتى من أولاد عظماء مصر جليل القدر عظيم النعمة كان قد ضمن من
سلطانة بمصر ضياعا بمال كثير فخاسر به ضمانه لعقود السعر وأشرف على الخروج من
نعمته فاستتر ولما اشتد البحث عنه خرج متخفيا الى أن ورد دمشق بزيء تاجر وكان استاره
عند بعض اخوانه ممن له عادة بخدمته فأتيت عنده يوما اذ ظهر لى وقال لصديقه أريد
الانتقال الى هذا الراهب ان كان مأمونا فذكر له صديقى مذهبى وأظهرت السرور بما رغب
فيه من الأنس بى وأنا لا أعرفه غير ان صديقى قد أمرنى بخدمته وحصل فى قلايتى وواصل
الصوم فلما كان بعد أيام جاءنا الرسول من عند صديقنا هو والغلام والخادم قد لحقا به
ومعهما سفائح وعليهما ثياب رثة فلما نظرت الى الغلام قال يا راهب قد حل الفطر وجاء
العيد ووثب اليه واعتنقه وجعل يقبل عينيه ويكى ووقف على السفائح وأنقذها مع درج
رقعة منه الى صديقه فلما كان بعد يومين حمل اليه ألفى دينار وقال له ابتع لنا ما نستعمله فى
هذه الضيقة فابتاع آلة وفرشا ولم يزل مكبا على ما رأيت الى أن ورد عليه كتاب أهله بتدبير
حاله مع سلطانه وأخذ خط السلطان بحطية المال وطيب قلبه وتحقق رضى السلطان فلما
عزم على المسير قال لغلامه سلم جميع ما بقى معك من نفقتنا الى الراهب ليصرفه فى

مـصـالـح الـديـر و سـار و مـالـه حـسـرة غـيـرك و لا أـسـف الـا عـلـيـك يـقـطـع جـمـيـع الـا و قـا ت بـذـكـرك و لا
يـشـرب الـا عـلـى مـا يـغـنـيـه الـغـلام مـن شـعـرك و هو الـآن بـمـصـر عـلـى أـحـسـن الـا حـو الـ و أـجـلـها مـا
بـخـل بـتـفـقـدى و خـف بـعـض مـا عـنـدى مـن الحـزـازة بـمـا عـرـفـت مـن حـقـيـقـه خـبـره و أـتـمـمـت يـومـى
عـنـد الـرا هـب و كان آخـر العـهـد مـنـه و مـن الـغـلام و السـلام.

الباب الرابع والعشرون

في الجوارى ذوات الألحان

قال الشعالي في تحفة الأرواح وموائد السرور والأفراح إن غناء الجوارى ذوات الحسن والدلال له موقع في القلب أحسن من موقع غناء الرجال وإن كان أجود منه وذلك مع الرويه وقال افلاطون: غناء الملاح تحرك فيه الشهوة والطرب وغناء القبايح يحرك فيه الطرب لا الشهوة وقد قيل أحسن الناس غناء من تشبه بالنساء من الرجال ومن تشبه بالرجال من النساء وما أحسن قول القائل:

جاءت بوجهه كأنه قمر على قوم كأنه غصن
غنت فلم تبق في جارحة الا تمنيت أنه أذن

وقال يزيد بن الوليد: إياكم والغناء فإنه يسقط المروءة وينقص الحياء ويبدى العورة ويزيد في الشهوة وإنه لينوب عن الخمر ويصنع بالعقل ما يصنع به السكر وإن كان ولا بد فجنبوه النساء فإن الغناء داعية الزنا، وقال بعض أهل الأدب لا يكون الملك ملكا حتى يلبس من طرازه وينكح من بلاده ويركب من نتاجه ويسمع الغناء من جاريته وغلამه وقال بعضهم في جارية عواده:

وكانه في حجرها ولد لها تحنو عليه عند كل أوان
أبدا تدغدغ بطنه فاذا هفا عركت له أذنا من الأذان
وقال ابن تميم فيها أيضا:

ومها قد راضت العود حتى عاد بعد الجماع وهو ذلول
خاف من عرك أذنه اذ عصاها فلهذا كما تقول يقول
وقال آخر فيها وأجاد:

أشارت بأطراف لطاف كأنها أنابيب در قمعت بعقيق
ودارت على الأوتار حسا كأنها بنان طيب في محبس عروق
وقال ابن حجاج فيها وأجاد:

هذا ومحسنة بالعود عاشقها بذلك الطيب في الأحيان مسرور
إذا تثنت وغنت خلت قسامتها غصنا عليه قبيل الصبح شحور

وقال صلاح الدين الصفدى فيها:

حبست مثانى عودها بأنامل
وشدت فلو شاءت عذوبة لفظها
وعجبت من ربح الصبا إذ لم يقف
أبصرت يا عيناي ما لم تبصرى

وقال جمال الدين بن نباتة فيها:

بروحى هيفاء المعاطف حلوة
لقد عذبت ألفاظها وصفاتها
تجاسر عود اللهو يشبه صوتها
وأجرى دموع العاشقين بلعبها

وقال النور الاسعدى فى جارية جنكية:

لبت شعبان جنك حين تنطقه
لا غرو أن صاد ألباب الرجال بها

وقال الصلاح الازلى فى الجنك:

الجنك مركب عقل فى تشكله
يجرى بريح اشتياق فى بحار هوى

وقال سيدى شهاب الدين أحمد بن حجر فى جارية تلعب بالكمنجاء:

ما بالها هجرت وكم قد مر لى
وقضيت معها اذ شذت بكمنجة

وقال سيدنا القاضى بدر الدين الدمامينى فى جارية تدق بالكف:

لقد دقت بكفيتها فتاة
فأفديها مغنية رأينا

وقال شمس الدين بن دانيال فى جارية تضرب بالدف وأجاد:

ذات القوام الذى يهتز غصن نقا
تبدى على الدف كالخمار معصمها
لو مر يوما عليه طائر صدحا
غناؤها برقيق الغنج تمزجه
أناملاً ينان تشبه البلحا
فما ينقط الاكل من رشحا

وقال شمس الدين الكوفى الواعظ فى جارية مشببة كذا ذكره الصفدى فى تضيخ

التضمين:

لقد حصلت لى ليلة لا تقوم	وعندى من أهوى بها وأتعم
وفى كفها شبابة تجمع المنا	فنحن سكوت والهوى يتكلم
وينفخ فيها الروح روح بأمرها	وما هو جبريل وما هى مريم
وما الدهر إلا صورة دمها الطلا	فحرم اذ شرب الدماء محرم
وما زلت شيعيا إلى أن أتوا بها	عتيقا فنادت العتيق المقدم

وهذا التضمين أغار عليه القاضى محى الدين بن عبد الظاهر وقد ذكرته فى الحذاق المطربين.

وقال كمال الدين جعفر الادنوى فى تاريخه البدر السافر عن أنس المسافر فى ترجمة القاضى تقى الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف ينعت بابن البيت الاعز الشافعى ومن شعره ملفزا فى شبابة:

ومحبوبة مهما خلت مع حبيبها
يقبلها لثما وينظرها شزرا
منقبة عريانة وهى فتنة
لمن أصبحوا من شرب كأس الهوى سكرى
وتصحيفها فى كف من شاء منهم
ومن شاء فى اليمنى ومن شاء فى اليسرى
وكتب إلى شرف الدين بن الحلوى ملفزا فيها مضمنا:

وناطقة خرساء باد شجوها	تكنفها عشر وعنهن تخبر
يلد إلى الاسماع رجع حديثها	اذ سد منها منخر حاش منخر
فأجاب بهذا البيت وأجاد	
نهانى النهى والعلم عن وصل مثلها	فكم مثلها فارقتها وهى تصفر
قلت: تكرير لفظة مثلها غير طائل.	

والم بهذا التضمين مجير الدين بن تميم فقال:

وشبابة قد كنت أهوى سماعها	وقد صرت منها عندما بت أنفر
وها أنا قد فارقتها غير نادم	وكم مثلها فارقتها وهى تصفر

قلت: كان المذكور لهجا با لتضمين أكثر منه حتى قال فى نفسه وظرف:

أطالع كل ديوان أراه ولم أزر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعري نصفه من شعر غيرى
وقال إبراهيم بن المعمار فى جارية مغنية:

وجارية مغنية بلطف على الإيقاع بالكمبين دقت
فغنت ثم رقت لى بوصل فقامت قطعنها من حيث رقت
وقال بدر الدين بن الصاحب فيها:

غنت فأغنت عن كئوس الطلا بالسكر من لذات تلك اللحون
فقلت اذ هيمنى صوتها فى مثل ذا الحلق تروح الذقون
وقال صفى الدين الحلى فى جارية ترقص بالشراب:

والراقصات وقد شدت ما آزرها على خصور كأوساط الدنانير
كان فى الشبر بمنائها وقد رقصت صبحا تقلقل فيه قلب ديجور
ترعى الضروب بكفيها وأرجلها وتحفظ الاصل من نقص وتغير
وتعرب الرقص من لحن فيلحقه ما يلحق النحو من حذف وتقدير

وقال جمال الدين حسن بن على بن داود الفارقى:
لله راقصة تميس كأنها ظل القضيب إذا تمايل مزهرا
تزهو وترجع كالخيال فلا ترى حركاتها إلا كطارقة الكرى
لانت معاطفها فكيف تلفت ونفنت لا يسنطاع بأن ترى

وقال أبو الحسن على بن أبى اليسر فيها:
هيفاء إن رقصت فى مجلس رقصت قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطرتها فى جفن ذى رمد لم يعرف الوصبا

وقال الشيخ عز الدين الموصلى لنفسه فيها:
هيفاء راقصة للزهر قد كشفت فى الكون ما مثلها نجم على الكرة
كالغصن أن خطرت يا ليتها عطف مذ أمرضتنى وعادت باللمى شفتى

وقال الوجيه المناوى فى جارية تلعب بخيال الظل:
وجارية معشوقة اللهو أقبلت بحسن كزهر الروض تحت كمام
إذا ما تغنت قلت شكوى صبا وان رقصت قلنا حباب مدام
أرتنا خيال الظل والستر دونها فأبدت خيال الشمس خلف غمام

تلعب بأشخاص من خاف سترها كما لعبت أفعالها بأنامى
فصل: فيما يتعلق بكتابة المتظرفات منهن على آلاتهن:
 كتبت مزنة على مضرابها:

* من نظر إلى سوانا لم يصدق فى هوانا *
 وكتبت ظبية مغنية ابن يزداد على ملهاتها:

* احفظ سرك عن غيرك *

وكتبت ظوافر على ملاويها:

وافق من ترافق * وقارب من تصاحب *
 وكتبت ضوء الصباح على عودها بالذهب:

* من خالفنا فليس منا *

وكتبت تحفة:

* ومن أرادنا لا يصبر عنا *

وكتبت قينة جارية الملك الظاهرية على بابها:

* صل من قطعك وأعط من حرمك *

وكتبت نزهة جارية الجصاص على إحدى جانبي مضرابها:

* من ورد عودها غير حياء به صدر ندائه *

وعلى الجانب الآخر:

* السعيد من وعظ بغيره *

حاشية: قال على بن الجهم اشتريت جارية فقلت لها ما أظنك بكرا فقالت كثرت الفتوحات فى زمن المعتصم وقلت لها كم بيننا وبين الصبح فقالت عناق مشتاق ونظرت إلى الشمس كاسفة فقالت احتشمت محاسنى فتنقبت وقلت لها نجعل مجلسنا فى القمر فقالت ما أولعك بالجمع بين الضرائر وكانت تكره الحلوى وتقول يستر المحاسن كما يغطى القبايح.

فصل: فى المولدات من الجوارى وغيرهن:

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى جارية تدعى وردة:

بابى دميمة مولدة الـ	حسن دعوها بوردة البستان
فى التصاوير مثلها ليس يلتقى	فيقولون وردة كالدهان

وقال شهاب الدين بن أبى حجلة فى جارية تدعى حكم الهوى:

حكم الهوى صدت فبت لاجل ذا ولهان من فرط الصبابة والجوى
يا عاذلى لا تلمنى فى حبها نفذ القضاء وهكذا حكم الهوى

وقال بدر الدين بن الصاحب فى جارية تدعى صباح:

وقينة تدعى صباحا قد غدت فى حسنها تياهة فى مراح
تصد والطرف لها ساهر تقول ليلى ماله من صباح

وقال الشيخ نجم الدين الفخفارى فى جارية تدعى قلوب:

عائبنى فى حبكم عاذل يزعم نصحى وهو فيه كذوب
وقال ما فى قلبك اذكره لى فقلت فى قلب المعنى قلوب

وقال القاضى شهاب الدين بن فضل الله العمرى فى جارية تدعى حدق:

سكرت فى حب من أهوى معاطفه تطوع الضلوع على التبريح والحرق
قالوا فجبد بدموع العين قلت لهم لا تسألوا ما جرى منها على حدق

وقال أبو حفص جعفر الشطرنجى فى جارية سوداء:

أشبهك المسك وأشبهته قائمة فى حسنها قاعده
لا شك إذ لونكما واحد انكما من طينة واحده

وقال ابن قلاقس فيها وابدع:

رب سوداء وهى بيضاء معنى ناس المسك عندها الكافور
مثل حب العيون تحسبه الن ناس سوادا وإنما هو نور

وقال أبو تمام الحجام الطيطلى وأجاد:

يا كعبة بذوى الألباب لاعبة فى أصل حسنك معنا غير متفق
خلقت بيضاء كالكاפור ناصعة فصرت سوداء من مثواك فى

وقال شهاب الدين بن فضل الله فى جارية سوداء مغنية:

يا رب سوداء لأجفانها كما لببيض الهند تأئير
يطربنى ترجيع ألحانها وكيف لا يطرب شحرور

ولا بأس بإيراد نبذة سيرة من ذمهم:

قال جماز لعلى الرازى وقد أراد شراء حبشية تمتعها الدهر مزمناً وبطها متن
وجسدها لا يقبل الطيب وإذا شربت احمرت عيناها واخضرت وجتها وإذا كسيت فنخاعة
على جسد اسود.

وقال الماهانى لصديق له لما أولعت بالسودان فقال لانهن أسخن فقال الماهانى أسخن للغير.

نادوة: تزوج مدنى سوداء فعوتب فقال عتق ما يملك إن لم يكن ضراطها فى الليلة الشتائية أنفع من عدل فحم.

وقال الصنوبرى يهجو زامرة سوداء:

كأنما المزمارة فى أشداقها غرمول عبر فى حيا أتان
وترى أناملها على مزمارها كخنافس دبت على ثعبان
وقال السراج المختار الحلبي فيها:

ولرب زامرة تهيج بزمرها ربح البطون فليتنها لم تزمز
شبهت أنملها على ضرباتها وقبيح مبسمها الشنيع الابخر
بخنافس قصدت كنيفا واغدت تسعى إليه على خيار الشنبر
ولنختم هذا الفصل بلطائف من حكايات الجوارى الحسان وما خصوا به من فصاحة
اللسان:

قال بعض الرواة الأخبار ومن يوثق به فى الأخبار: رأيت بالبقاء ثلاث جوار كأنهن
أقمار أو كأنما أفرغن فى قالب الحسن أو ملكن أنفسهن فتصورن كما اشتھين قلت
يا ضرائر الشمس أخوات أنتن قلن لا ولكننا الاف مودات وعقائل حبيبات نجتمع فى هذا
المكان لسبب ما تشتمل عليه القلوب من دفائن العيون ونحن نصف لك حالنا فاقض علينا
بما تسمع من أشعارنا قلت قلن فقالت الأولى:

يقولون طعم الحب مر وإننى أظن بأن الهجر مر من الحب
فقلت المريض أعلم بدائه فقالت سبحان من ستر خلقه بثوب عفوه ولم يعلم غيره
ضمائرهم بثاقب علمه.
وقالت الثانية:

أظن بأن الحب يقتل أهله إذا لم يكن فى الحب قرب ولا وصل
فقلت من جرب أمرا عرفه فأظفر حياءها تورده خديها.
فقالت الثالثة:

أخال الهوى داء يعز دواؤه إذا غاب من يهوى وعانده الدهر
فقلت من خاف شيئا حذر منه وإلا وقع فيه فتنفست الصعداء وقالت أعوذ بالله من
الشیطان الرجيم وقمن فما رأيت أغصانا تحملن أقمارا أسافلها كنبان إلا هن.

وحكى سيار بن المعتمر قال زرت مخارقا وكنت أهوى جاريته معين وكانت أدبية
مسمعة فأخرجها وجعلت تغنى وطرفها يضحك فوهمتنى سرورها بمحبتى إليها فبقيت فى
لذة من غنائها تتجاوز الوصف فلما قرب وقت الانصراف دخلت ثم خرجت وعليها عصابة
فيها مكتوب:

تبسم طرفى فاستنهام فؤاده إلى ضحك عين صيرته له سحرا
إلا أن حسن الطرف ما كان ضاحكا فلا يوهمنك الضحك فى مقلتي أمرا
فاختلط عقلى وتمرر على ما كان حلا من تمتعى معها فلما رأت ما قد نزل بى قلبت
العصابة فإذا عليها مكتوب:

مزحت فلا تجعل مزاحى علة لصرف الهوى عنى فتجعله هجرا
منحك من قلبى مكانا وقربة عليك فلا تأسى لما حكيت شعرا
وقرات فى كتاب منازل الأحباب ومنازل الألباب تأليف العلامة شهاب الدين محمود
الحلبى - رحمه الله تعالى - حكى أبو الفرج الاصبهاني عن بعض بنى حمدان قال كنت مع
المتوكل لما شخص إلى الشام فلما وصلنا إلى حمص قال أريد أن أطوف هذه الكنائس
والمواضع التى تعرف بالفراديس فإننى كنت أسمع بطيب هذا المكان فقلت الراى ما راى
أمير المؤمنين فلما استراح من الركوب دعانى وأخذ ييدى ولم يزل يستقرئ تلك الكنائس
والأديرة وما فيها من الصور واحداث الرهبان وبنات القسيسين فرأينا وجوها كأنها الاقمار
على غصون تنثنى على تلك الاروقة والحصون وكلما مر بنا شىء من ذلك قال أتدرى ما
نحن فيه وخلقونا براهب من قوام الكنيسة فجعل المتوكل يسأله عن اسم كل من مر به ونسبه
فبينما نحن كذلك اذ مرت بنا جارية ما رأيت لها شبيها فى يدها مبخرة تبخر بها فقال لها
المتوكل تعالى يا جارية فأقبلت بحسن أدب وكمال حسن فقال للقس من هذه قال ابنتى قال
وما اسمها قال شعانين فقال لها المتوكل يا شعانين اسقنى ماء فقالت ماؤنا ههنا من الغدران
ولست استنظف لك آنية الرهبان ولو كانت روحى ترويك لجدت لك بها ثم جاءت بكوز
من فضة فيه ماء فأومت إلى أن أشربه فشربته فازداد عجبها وقال لها يا شعانين إن أنا
هويتك تساعدنى فتنفست الصعداء وقالت يا مولاى أما الآن فأنا أمتك وأما كونى عرفت
صدق محبتك وتمكنها من قلبك فلا فما أخوفنى من حدوث الطغيان عند تملك السلطان
أما سمعت قول الشاعر:

كنت لى فى أوائل الامر عبدا ثم لما ملكت صرت عدوا
أين ذاك السرور عند التلاقي صار منى تجنبا ونبوا

فطرب المتوكل حتى كاد يشق ثوبه وقال لها هبى لى نفسك أشرب أنا وأنت اليوم
فقلت على الرحب والسعة ثم أصعدتنا إلى عليّة مشرفة على تلك الكنائس فرأينا منظرا
عجيبا ثم جاءت بأدب حسن ورقاق وكان المتوكل عاف ما جاءت به واستأذنها فى احضار
طعام فأذنت فأتى بخرفان مشوية وأشياء غريبة الأنواع فاستظرفت ما جىء به واستهلكت
الآلة وفطنت لأمر المتوكل وقامت بين يديه وهمت بالسجود له فمنعها ثم جاء القس من
بيت الرهبان بشراب ذكر المتوكل أنه لم يشرب مثله قط فشرب وشربت معه ثم استعفيت
من أجل حمى لحقتنى فأعفانى وشربها بحديثها فلما أخذ منه الشراب قالت يا سيدى أغنيك
عن ضعف الصنعة فقال إن فعلت كمل والله ظرفك فأنت بشيء يشبه العود فاندفعت تغنى
بهذه الأبيات:

يا خاطبا من المودة مرحبا	نفسى فداؤك لا عدمتك خاطبا
أنا عبدة لهواك فاشرب واسقنى	واعدل بكأسك عن جليتك إن أبى
قد والذى رفع السماء ملكتنى	وتركت قلبى فى هواك معذبا

فصاح المتوكل وقال أميت أنت وذلك لأنى كنت أخطأت فى ترك مساعدته فأخذت
رطلا وشربته حتى لحقته ومضى لنا من الايام الافراد ثم أرغبها المتوكل واستسلمها
وتزوجها ولم تزل عنده حظية إلى أن قتل فى داره.

كتب بعض المجان إلى صاحب له يستهديه جارية حفظك الله وحفظ النعمة عليك أن
بين كل أمر يطلبه الرجل وبين المطلوب منه ذريعة يتوسل بها إلى معروفه ولى بالرجاء فيك
درجة توجب قضاء الحقوق وحاجتى أبقاك الله طريقة من الجوارى لم تتداولها أيدى التجار
ولم تمتننا خدمة الموالى ولى فيها شريطة أعرضها عليك وأذكرها لديك لترى رأيك فيها
أنه كان يقال إذا اتخذت جارية فاستحد شعرها فإن الشعر أحد الوجهين وتكون رابعة
البياض تامة القوام فإنه يقال إن البياض والطول نصف الحسن كله وتكون مليحة المضحك
فإنه أول ما يستجلب من المرأة به المودة ومتقاربة الخطوة وتكون جيداء العنق غيداء اللب
كحلاء العين لها طرف أدعج وحاجب أزج موردة الخدين سهلتهما واضحة الجبين قنوب
الانف حمراء الشفتين مفلجة الثنايا نقية الثغر مشرقة النحر ولست أكره الانكسار فى الثدين
لأنه لا لذة للنهود عندى الا لذة النظر وهى أيضا تحول بين المعانق وبين ارادته وإن قال
الشاعر:

حال الوشاح على قضيب زانه رمان صدر ليس يعطف ناهد

واكره العجيزة الضخماء ولا أحب الرشحاء أريدها وسطا لأن خير الامور أوساطها
 وتكون سبطة البنان فتلى الساعد ممثلة الذراع فخمة العضد قباء البطن نحيفة الخصر
 يطويها الضجيع طى الحمامة عبله الفخذين بردية الساقين لطيفة القدمين ولولا افراط الغيرة
 لذكرت ما أحبه مما هو مستور إلا عند الحاجة إليه وأريدها رخيمة الصوت شهية النعمة
 عذبة الألفاظ بها غنة الحدائة وبيحة الاحتلام أشجى خلقا من السفريض وأنعم كلاما فى
 الآذان من مخارق وأثبت حجة من أبى الهذيل العلاف وأبين معنى من النظام ظريفة
 المجون حسنة الوقار إن أردتها دنت وإن كرهتها نأت أطوع من الرداء وأذل من الحداء
 وقدرك أيدك الله يحمل اقتراحى عليك وشكرى لك يستوجب ما سألتك منك وأنا بالاسعاف
 جدير وأنت بالافضال قمير، فأجابه سألت أعزك الله عن هذه الصفة وطلبت هذا النعت
 فأعينى فى الدنيا وما أرانى أجدها إلا فى الآخرة وقد بعثت لك بالفسد دينار لتلتمسها أنت
 وتسأل اخوانك معاونتك على ذلك فمتى وجدتها أو وجدها لك أحد دفعت إليه الدنانير
 رهين الدلالة وعرفنى بمقدار الثمن لانفذه إليك - إن شاء الله تعالى.

الباب الخامس والعشرون

فى الباءة

قال الشيخ الإمام علاء الدين أبو الحسين على بن أبى الحزم القرشى المتطبب المعروف بابن النفيس - تغمده الله بالرحمة - فى كتابه المعروف بالموجز فى الجملة الثانية من الكتاب المذكور فى قواعد الجزء العملى من الطب فى تدبير الجماع.

قال رحمه الله وسامحه: الجماع أفضل ما وقع بعد الهضم وعند اعتدال البدن فى حره وبرده ويوسسته ورطوبته وخلائه وامتلأته فإن وقع خطأ فضرره عند امتلاء البدن وحرارته ورطوبته أسهل من خلائه وبرده ويوسسته. وإنما ينبغى أن يجامع إذا قويت الشهوة وحصل الانتشار التام الذى ليس عن تكلف ولا فكرة فى مستحسن ولا نظر إليه وإنما حاجته كثرة المنى وشدة الشبق وإن تحصل عقيبه الخفة والنوم والجماع المعتدل ينعش الحرارة الغريزية ويهين البدن للاغتذاء ويفرح ويحطم الغضب ويزيل الفكر الردىء والوسواس السوداء وينفع أكثر الأمراض السوداء والبلغمية وربما وقع تارك الجماع فى أمراض مثل الذوار وظلمة البصر وثقل البدن وورم الخصية أو الحالب فإذا عاد إليه برئ بسرعة.

والافراط فى الجماع يسقط القوة ويضر العصب ويوقع فى الرعشة والفالج والتشنج ويضعف البصر جدا وجماع الغلمان أقل استفراغا للمنى فيكون اضعافه وضرره أقل لكن يحوج إلى حركات متعبة لكونه استفراغا غير طبيعى وليجتنب جماع العجوزة والصغيرة جدا والحائض والتي لم تجامع من مدة طويلة والمريضة وقبيحة المنظر والبكر فكل ذلك يضعف بالخاصية وجماع المحبوب يسر ويقل اضعافه مع كثرة استفراغه المنى.

وأردأ أشكال الجماع أن تعلق المرأة الرجل مستلقيا لتعسر خروج المنى وربما بقى فى الذكر بقية فيتعفن بل ربما سال من الفرج رطوبات إلى الذكر وأفضل أشكاله أن يعلق الرجل المرأة رافعا فخذيها بعد الملاعبة التامة ودغدغة الشدى والحالب ثم حك الفرج بالذكر فإذا تغيرت هيئة عينيها وعظم نفسها وطلبت التزام الرجل أولج الذكر وصب المنى ليتعاضد المنيان وذلك هو الحبل.

ومما يعين على الجماع رؤية المجامعة والنظر إلى تسافد الحيوانات وقراءة الكتب المصنفة فى الباءة وحكايات الاقوية من المجامعين واستماع الرقيق من أصوات النساء

وحلق العانة يهيج الشهوة واطالة العهد بترك الباءة ينسيه النفس والاستمنااء باليد يوجب الغم ويسقط الشهوة والانتشار. انتهى كلام ابن النفيس.

وسئل ابقراط كم ينبغى للإنسان أن يجامع فقال فى كل سنة مرة قيل فإن لم يقدر قال فى كل شهر قيل فإن لم يقدر قال فى كل أسبوع قيل فإن لم يقدر قال هى راحة متى شاء أخرجها.

فصل: ولما كان جمال المرأة وحسن تناسب أعضائها هو داعى الرجل إلى وطئها وأجلب لشهوته عند النظر إليه والمد لحواسه فى حال مصاحبتها فلا بأس بإيراد نبذة من ذلك:

أجمع أهل المعرفة أن الذى يحمد فى المرأة من السواد أربعة أشياء: الشعر والحاجبان والحدقة والأهداب.

ومن البياض أربعة أشياء: بياض لونها وبياض بياض عينيها وبياض أسنانها وبياض فرقها.

ومن الحمرة أربعة أشياء: حمرة اللسان وحمرة الوجنات وحمرة الشفتين وحمرة اللتين.

ومن الغلظ أربعة أشياء: العضدان والساقان والشفرة والذوائب.

ومن الرقة أربعة أشياء: العظام والأنف والخصر وأطراف الأنامل.

ومن الطول أربعة أشياء: الشعر والعنق والقامة والحاجب.

ومن التدملج أربعة أشياء: الرأس والعنق والساعدان والساقان.

ومن العراض أربعة أشياء: الجبهة والعينان والصدر والالية.

ومن الصغر أربعة أشياء: الفم والكفان والقدمان والأذنان.

ومن الضيق أربعة أشياء: المنخران ثقب الأذان السرة الموطأ.

ومن الصلابة أربعة أشياء: الثديان اللتان القبل عضلة الساق.

ومن الملس أربعة أشياء: ظهر الكفين الترقوة الأصابع العنق.

ومن النشافة أربعة أشياء: العينان المنخران الفم الفرج.

ومن الصفاء أربعة أشياء: الحدقتان البشرة الأسنان الأظفار.

ومن الكبر أربعة أشياء: الكتفان الركبتان الفخذان الموطأ.

ومن الأشياء البارزة أربعة أشياء: الأرداف الموطأ الكاهل.

ومن الحلاوة أربعة أشياء: الوجه والريق والعينان والنغمة.

ومن اللين أربعة أشياء: اللحظ النفس الكلام البشرية.
 ومن الحسن أربعة أشياء: الخلق والخلق والادب والطاعة.
 ومن الملاحاة أربعة أشياء: الضحك والنغمة والنوم والمشية،
 ومن النظافة أربعة أشياء: الوجه والفرج والابطان والاطراف.
 ومن الأشياء الشهية أربعة: الملامسة المحادثة المعانقة المعانبة.
 ومن الأشياء الخافية أربعة: الكعبان الزندان المرفقان الترقوة.
 ومن الصدق أربعة أشياء: المودة والحياء والعفة والأمانة.
 ومن السخونة أربعة أشياء: الموطأ الكفان المجلس باطن القدم.
 ومن الطيب أربعة أشياء: النفس النكهة الابطان الفرج.
 تمت الاربعات.

ومن الأشياء المهينة للباءة: التقييل، قال الاصمعى كل جماع لا قبل فيه فهو خداج
 يعنى ناقصا، وقال الجاحظ أربعة أشياء ممسوخة البركة: أكل الارز البارد والبوس على
 النقاب والغناء من وراء الستارة والجماع فى الماء قالوا وأحسن الشفاء وأشدّها تهيجاً
 وأوفى ما رقى الأعلى منها واحمرت ونظفت وحرفت وكان فى الأسفل منها بعض الغلظ
 وإذا عض عليها اخضرت فإن القبلة لهذه الشفة احلى وأعذب وقالوا إن أُلذّا القبلى قبلة ينال
 فيها لسان الرجل فم المرأة ولسان المرأة فم الرجل وذلك أنه إذا كانت الجارية نقية الفم
 طيبة النكهة فإنها تدخل لسانها فى فم الرجل ادخالاً يصيب ريقها وحرارة لسانها لسان
 الرجل فينحدر ذلك الريق وتلك الحرارة والتسخين إلى ذكر الرجل وفرج المرأة فيثير ذلك
 شبقهما وغلمهما ويقوى شهوتهما فيزداد لونهما صفاء وحسن.

وما أحسن قول ابن المعتز:

وكم عناق لنا وكم قبل
 نقر العصافير وهى خائفة
 وتلطف بن وكيع فى قوله:

ظفرت بقبلة منه اختلاسا . وكنت من الرقيب على حذار
 ألد من الصبوح على غمام ومن يرد النسيم على خمار

وأما كلام المجامع عند الباءة فإنه من كمال المسرة وتمام اللذة لأن كل من حواس
 الفاعل تكون مشغولة بلذة ما فالعين بلذة النظر والفم بلذة الرشف والانف بلذة الطيب
 والذكر بلذة الجماع فيحتاج أن تكون الاذن ممتعة بلفظ المحبوب لا سيما إن كان ذلك

الكلام مما يجلب الشهوة فتكامل اللذة فإن الملتذ يريد أن يجد اللذات المستفرقة فى شخص واحد ليم باجتماعهما صورة واحدة شريفة.

قال الشاعر:

وفى أربع منى خلت منك أربعاً فما أنا أدري أيها هيج لى كرى
أوجهك فى عيني أم الريق فى فمى أم النطق فى سمى أم الحب فى قلبى

وقال عمرو بن بحر الجاحظ كان بالهند امرأة تعرف بالالفية وذلك أنه كان قد وطئها ألف رجل وكانت أعلم زمانها بأحوال الباء وأن جماعة من النساء اجتمعوا إليها فقالوا أيتها الأخت أخبرينا ما نحتاج إليه ونستعمله وما الذى يثبت محبتنا فى قلوب الرجال وما الذى يتلذذون به ويكرهون من اخلاقنا وما ينبغى أن يعمل معهم ليستجلب به محبتهم قالت نعم: أول كل شىء أقول لكم إنه ينبغى ألا يقع له نظر إلا على زينة.

قالوا وما الذى يجب على الرجل أن يتقرب به إلى قلب المرأة؟ قالت الملاعبة قبل الجماع والرهز بعد الفراغ.

قلن فما الذى يكون سبب محبتهم لبعضهم بعض واتفاقهم؟ قالت الانزالين فى وقت واحد؟

قلن فما الذى يفيد مودتهما وصحبتهما؟ قالت أنى يكون غير ما ذكرت لكم.

ثم سألوها عن أصناف الجماع فذكرت لهن ذلك أضربت عن ذكرها لكثرة أقسامها. ومن أراد ذلك فليطالع الكتب المؤلفة فيها فإنها مشحونة بها.

وأما ميلهن إلى النكاح وشدة شبقهن فممنه ما حكى أنه كانت امرأة لها يسار وحال فخطبها رجل به يسار وحال وثروة فلم تفعل فقالت لها أمها يا بنية لم لا تزوجين بهذا الرجل فإنك لا تجددين مثله فقالت لا أريده لأنى سمعت أن فى وسطه ابرا عظيما مثل الودت ولا طاقة لى به قال فنشفع الرجل إلى أمها وسألها أن تشفع فقالت له قد ذكرت لها أمرك فقالت إنها لا تطيق ايرك فقال زوجينى بها واشرطى لها على شرطاً اننى لا أدخل منه شيئاً إلا بأمرها ويكون فى يدك تدخلين منه الذى تشتهين وتركين الذى لا تريدينه فقالت لا بنتها ذلك فقالت رضيت بهذا الشرط فلما كان ليلة العرس قالت له أمها أنت على الشرط قال نعم فلما خلا بها قال لها تقدمى وامسكيه بيدك وأدخلى منه ما تريد ابتك فأخذته بيدها وأدخلت منه مقدار عقدة وقالت يكفيك هذا قالت زىدى يا أمه عافاك الله فزادتها فلم تزل كذلك إلى أن لم يبق منه شىء فقالت أزيدك يا بنية فقالت إى والله يا أمى قالت يا بنية فأنت

قلت لا طاقة لك به فوالله ما بقى معى منه شىء فقالت البنت أسخن الله عينيك والله لقد كان أبى يقول إنك أى شىء وضعت يدك عليه طارت البركة منه وأنا لا أعلم وقد علمت الآن. صفة شربة نافعة للهوى وعليل النوى: باسم الله اللطيف الحكيم يؤخذ على بركة الله ولطفه: ثلاثة مثاقيل من صافى وصال العجيب، منقاة من عيدان الجفا وخوف الرقيب، وثلاث مثاقيل من بزر الاجتماع، منخولة من غلت الهجران والانقطاع، وأوقيتين من خالص الود والكتمان، منزوعة من عيدان الصدر والهجران، ويؤخذ من عطر البخور ولثم الثغور وضمم الخصور من كل واحد مثقالان، ويؤخذ مائة بوسة رمانية محكوكة مرضوضه منها خمسون صغار سكرية، وثلاثون زق الحمام وعشرون عصافيرية ويؤخذ غنج حلبى وشخير عراقى من كل واحدة مثقالان ويؤخذ أوقيتان من مص اللسان ولثم الفم مع الوجنتين، ويدق الجميع ويخلط ويذر على وزن ثلاثة دراهم غلصة مصرية، ويضاف إليها قرص الاعكان المطوية ويغلى بماء المحبة على شراب الشوق وخطب الطرب فى مرحل العجلة ويصفى الجميع على ديبقى سلطانى ويحل فيه أوقيتان من شراب الرضاب ويشرب على الريق من ثغور الاحباب ويكون الغذاء مزورة يقطين الاشتياق ويضاف إليها قلب لوز العناق وماء ليمون الاتفاق ويتناول بعد ذلك ثلاثة أرطال من المدام ثلاثة أيام ويتبعه برطلين من شيل الساقين ويدخل الحمام، نافع مجرب والسلام.

بعث بعض الظرفاء إلى محبوبية له مروحة وبأوقية زهر وسكر نبات وشرابه وعود ففهمت مراده وبعثت إليه خيطا أحمر وقطعة من صباره وثلاث كمونات سود وغاسول وزر ففهم مقصودها وصبر، والمراد من فعله أنه أراد بالمروحة نروح وبالزهر البستان وبالسكر النبات نبات وبالشرابة نشرب وبالعود نسمع الغناء، ومقصودها أنها عرضت بالخيط الأحمر أنها حائض وبالصبارة اصبر وبالثلاث الكمونات ثلاث ليال والغاسول أغتسل وأزورك.

وأهدت بعض القينات إلى الملك العزيز ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف فى بعض الأيام كبة من العنبر فكسرها فإذا فى وسطها زر ذهب وكانا يكتمان أمرهما خوفا من السلطان فلم يفهم معنى ذلك فارسل إلى القاضى الفاضل يسأله عن ذلك فقال ارتجالا:

أهدت لك العنبر فى وسطه زر من التبر دقيق اللحم
فالزر فى العنبر معناهما زر هكذا مستترا فى الظلام

كتبت بعضهن على عصابتها أصعد وتمكن على بطن معكن.

وكتبت أم القاسم بنت بلبل العطار وكانت من كبار المساحقات على خاتمتها مل من الباطل فرجع إلى الحق.

وأين هذا من قول بعضهن وقد قيل لها ارجعى إلى الحق فقالت الحق بعض مرادى. وهذا من الاجوبة اللطيفة وما أحقها بقول القائل شعرا:

مغرمة بالسحاق أضحت تبكى عليه بكل عين
كما اتقنت من الهيلول إلا تصنيف اسحق فى حسيني
وحكى أن رجلا دخل إلى بيت فوجد امرأتين وهما يتساحقان فجذب النى هى فوق
وقعد مكانها وقال هذا عمل يحتاج إلى حبال ورجال.
وقال آخر:

جرح يريد الفتيلة ايش تنفعه اللزقاق
وقال الشيخ زين الدين الوردى:

قولوا لمن تهوى السحاق الذى حرمة الله فما فيه خير
أخطأت يا كاملة الحسن اذ أقمت اسحق مقام الزبير
يحكى أن جدة بنت زياد المؤدب ذكرها المؤرخ الترحال نور الدين بن سعيد فى كتابه
المغرب وقال وهى من خنساء المغرب من نظمها وقد خرجت إلى وادى مدينة واد بالقرب
مع جوار لها فسبحت معهن وكان لها فيهن هوى:

أباح الدمع اسرارى بواد له فى الحسن آثار بوادى
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يطوف بكل وادى
ومن بين الظباء مهابة أنس لها لبي وقد سلبت فؤادى
لها لحظ ترقده لامر وذا لك الأمر يمنعنى رقادى
إذا سددت ذوائبها عليها رأيت البدر فى أفق السواد
كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد
وقالت ماجنة لمسحاقة ما فى الدنيا أطيب من الموز قالت نعم إلا أنه ينفخ البطن.

وقالت ماجنة لمسحاقة أين أنت عن الاصلع الاقارع الاحدب المربوق الذى كأنه بوق
العظيم الحوق الكثير العروق الذى يخرق الحزوق ويسد البشوق ويفتق الفتوق ويرفو
الشقوق ويقضى الحقوق ويأخذ بالخلوق الاجرد الاريد الذى كأنه الوتد أو رقية الاسد
الاحمر الاشقر المعجر الذى رأسه كالمحور وأصله كالانحر وفيه عرق أخضر كأنه عرق

لحم البقر فى رأسه كماء ووسطه قناة وفى أسفله مخلاة ولحيته فى قفاه يراك من حيث لا تراه لو نطح الفيل كوره أو دخل البحر ثوره كأنه غصن بان أو سيف يمان أو صقلانى عريان أو زنجى غضبان بل كأنه شيطان أو راهب بحران أو هامة هامان أو عتتر فى الحرب أو حارس فى درب أو رأس حمل أو ركبة جمل أو كوكب الذنب أو طن قصب أو ذنب التنين أو شوبك القيارين ينطح بغير قرنين ويمشى بغير رجلين ويصبر بغير عينين يدخل فى الظلمات وهو أحد البليات فى عنقه طوق من أسفل إلى فوق إذا ارتفع النهار يكون كالجلنار أتيه من ملك القندهار مدمج كالطومار يغوض فى البحار ويشقب بالابكار ويدخل فى الاحجار إذا جنه الليل أطال القيام والناس نيام.

فقال المساحقة أما علمت أن اللطف والنظافة والظرف واللباقة والتساحى والبراعة فى السحق الذى هو سبعون ومائة واحدة منها العقبى والاستكلاب والطنبلسب والتملح والمعوج والمقرطح والدارتردار والطاق برطاق والمخالف والمؤالف والشراعى وقبضه وبسطه وعقبه وضغطه والغطيظ والصفدعى والتفن والرهز وغير هذه، وأما أنتم فكل شىء لكم النوم على القفا والادخال فى الاست فإذا جهدتم جهدكم كان لون آخر وهو القيام على أربع ويسمونه الحمارى وتفتخرون به وأين هذا من أخذه سوقا وعمل وسؤال وعلل ورقدة وخلوة وحديث هند والزرقا ودعنا نبوران.

وقد بلغنا أن رجلا قبض على امرأة فى خزانة الشراب ورفع رجلها ليضعه بين شفرها فغلط وأدخله فى استها فتسمنت ورفسته فانصدع من حلقه ست وثلاثون خابية خمر ونحن فتجتمع منا الغانية الشكل البيضاء القعبة الشطبة الرطبة الغضة البضة التى كأنها ريحان أو قضيب خيزران بثغر كاللؤلؤ وذوائب كالارسان وخدود كشقائق النعمان أو تفاح لبنان وتدى كالرمان وبطن بأربعة أعكان وحر كأنه قبة الدار أربع فى ثمان أو قرنية عليها شونير أو أرنب حائم أو بطة سكارية بشفرين أغلظ من شفة البقرة كأنهما سنام نافر فى لون العاج ولين الدياج وبياض الفنك ودهنية الودك كأنه الركوة المنفوخة متوف محلوقة مضمخ بالمسك والخلوق كأنه كسرى أنوشروان فى صدر الايوان متهلل خذلان فرح ومرح ومعه من الملاحات ما يخرج عن حد الصفات من الاصابع المطرقة والاصداغ المرزفة والحواجب المزججة والخدود المذبحة والشعور المرجلة والنحور المزينة بالمراسل من الدر والياقوت والمرجان فى الغلائل الممسكة المبخرة بالعود الهندى المعجون بالعنبر مع أخرى تهادى كالفجر بل كالشمس والقمر فى منازل الصعود على الفرش الديقية والاردية

القصبية ومطارف الخبز المصضربات من رقيق القز المحشوة فوق الاسرة من الابنوس والعاج ومخاد الديباج المحشو فيها زغب الريش المحفوفة باللحاح السليمانية والدسبنات السوسية ويرانى النرجس مع أترج السوسن وتفتح أصبهان والسفرجل والرمان وأطباق الرياحين المشمومة بين تلك الافاويه المقمعة بالعنبر والوصائف الفارغات عليهن العقيان يتضوع من قراطقهن العنبر فيخلو معها بتلك المعائبات الشجية والنغم العذبة والاشارات اللطيفة والغمز بتلك الحواجب والجفون الساحرة السالبة لألباب ذوى العقول والآداب بالألفاظ الرقيقة المحركة للسواكن المسكنة للحركات بالغنج والشكل والبراعة واللمس الذى تضرب له العروق الهادية وتهدأ له العروق الضارية فإذا صافحت الخدود الخدود وانحدرت الدموع فيما بينهما برقة الشكوى ولطافة النجوى كالطلل على ورق الورد وتطابقت الصدور على الصدور وانضمت النحور إلى النحور واصطكت الثغور بالثغور وانتفت الساقان المدملجة بأخواتهما وتراكب الشفران على الشفرين واختلج كل جانب منهما على الآخر لم يقع أبقرط ولا جالينوس على بنصته ولا اركاعانيس على مجسه ولا افلاطون وارسطاطاليس على حسنه ولا بطليموس على حسابه ولا قس بن ساعدة على شرحه وبيانه ولا إبراهيم النظام على برهانه ولا النعمان على قياس ولا منصور بن عمار على صفاته حتى إذا علت الانفاس واستغرقت الحواس وارتفعت الحرارة الغريزية إلى الرأس وبطل فيما بينهما كل قياس نظرت إلى الحركات الحسية والضمائر الوهمية والطبائع الغريزية والالفاظ العشقية وقد ضبط كل عضو اقليمه واستكمل فيما هو فيه نعيمه بين مصر وقرص ومقابلة ومخايله ومخالبة ومناهبة وموائبة ومسالبة ورهز وغمز وشهيق ونهيق ونخير ونعير لو سمعه أهل الثغور لصاحوا النفير مع رفع ووضع وجذب ودفع وضم وشم والتزام وقبل وعمل أحسن من كل عمل كل ذلك بأنين وحنين وأدب وأرب حتى إذا حان الفراغ ووصلت اللذة إلى بطون الدماغ شملت روايح الروايح خمار ونظرت إلى اهتزاز غصن البان فى حلى الازهار فلو ابصر الفطناء ما هما فيه لحاروا ولو سمع بها الركبان لساروا فيا لها من لذة كاملة ونعمة شاملة.

قلت: وأنشدنى الشيخ شمس الدين الرئيس من لفظه لنفسه شعرا:

عشاقة النسوان منذ لمتها قالت دع اللوم ولن فى المقال

ما فى سويداء القلب إلا النسا ما حيلتى ما فى السويداء رجال

ونقلت من الإحاطة بتاريخ غرناطة تأليف الإمام العلامة ذى الوزارتين لسان الدين

محمد بن الخطيب - تغمده الله بالرحمة - قال المصنف المذكور كتب إلى سيدنا ومولانا

قاضى القضاة ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى صبيحة الانبياء بجارية تدعى هند:

أوصيك بالشيخ أبى بكره لا تأمن فى حالة مكره
واجتنب الشل إذا جئته جنبك الرحمن ما نكره

سبى لا زلت تنصف بالوالج بين الخلاخل والدمالج وتركض فوقها ركض الهمالج
أخبرنى كيف كانت الحال وهل حطت بالقاع من خير البقاع الرحال وأحكم بمروود المراودة
الاكتحال واكتحل بالسقيا الامحال وصح الانتحال وحصحص الحق وذهب المحال وقد
طولعت بكل بشرى وبشر وزفت هند منك إلى بشر فلله من عشيقه تمتعت من الربيع
بفرش موشية وابتذل منها أى وساد وحشية وقد أقبل ظبى الكناس من الديماس ومطوق
الحمام من الحمام وقد حسنت الوجه الجميل النظر به وأزيلت عن الفرع الايث الابريه
وصقلت الخدود فكأنها الامريه وتسלט الدلك على الجلود وأعزبت النورة بالشعر المولود
وعادت الاعضاء تزل عنها اللمس ولا ينالها البنان الخمس والسحلة يجول فى صفحتها
الفضية ماء النعيم والمسئول بينى من بينه الشعيم والقلب يرمى من الكف للرقيم بالمعقد
المقيم وينظر إلى نجوم الوسوم فيقول إنى سقيم، وقد تفتح ورد الخضر وحكم لزنجى
الضفيرة بالظفر واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ورش بماء الطيب ثم أعلق بالله
بالعود الرطيب وأقبلت الغادة تهديها الثمن وتزفها السعادة فهى تمشى على استحيا وقد ذاع
طيب الربا وراق حسن المحيا حتى إذا نزع الخف وأقبلت الكف وصحب المزمار وأجاب
الدف وداع الازج وتخوّر اللوى والمنعرج ونزل على بشر بزيارة هند الفرج اهتزت الارض
وريت وغوصت الطبايع البشرية فأبت.

ولله در القائل:

ومرت وقالت متى نلتقى فهش اشتياقا إليها الخبيث
وكاد يمزق سرباله فقلت إليك بساق الحديث

فلما انسدل الظلام وانتصفت من عريم العشاء الآخرة فريضة الاسلام وخاطت خيوط
المنام عيون الانام تأتى دنو الجلسة ومسارقة الخلسة ثم آن عض النهد وقبلة الفم والخد
وارسال من الخد الى الوهد وكانت الإمالة القليلة قبل المد ثم الإفاضة فيما يعيط ويرعب
ثم الاماطة لما يشوش ويشغب ثم اعمال المسير إلى السرير وصرنا إلى الحسنى ورق
كلامنا ورضيت فذلت صعبة أى اذلال هذا بعد منازعة الاطواق بسرة تراها العيد من حسن
المسرة ثم شرع فى حل التكة ونزع السكة وتهيات الأرض الغرار عمل السكة ثم كان

الراى الاستعجال وحمى الوطيس وضاق المجال وعلا الحرة الخفيف وتصافرت الخصور
 الهيف وتساطر الطبع العفيف وتواتر التقبيل وكان الاخذ الويل وامتار الانول من النيل ومنها
 جائر وعلى الله قصد السبيل فيها لها من نعمة متداركة ونفوس على سبيل القحة متهاكة
 ونفس تقطيع حروف الحلق وسبحان الذى يزيد فى الخلق وعظمت الممانعة وكثرت باليد
 المصانعة وطال التراوع وشكى التجاوز وهناك تختلف الأحوال وتعظم الاهوال وتخسر
 وتريح الاموال فمتى عصى ينقلب ثعبانا مبينا ونونه تصير سينا وبطل لم يهله المعترك الهائل
 والوهم الزائل ولا حال بينه وبين قربه الحائل فتعدى فتكة السليك إلى فتكة البراض وتقلد
 مذهب الارقاة من الخوارج فى الاعتراض ثم شق الصف وقد خضب الكف بعد أن كان
 يصيب البراء بطعته وسبق بمقت الله ويعنايته طعنة ابن عبد القيس طعنة تاتر لها نقد لولا
 الشعاع أضاءها وهناك هدا القتال وسكن الجبال ووقع التوقع فاستراح البال وتشوق إلى
 مذهب التنويه من لم يكن للتوحيد بمثال وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه يسيل على
 قدمه إني له عن دمي المسفوك معتذرا وقول حملته فى سفكه تعباً ومن سبات عاد عيانا
 وشجاع صار جبانا كلما شابهته شائبة ريبة أدخل يده فى جيبه فالحجرة الحية وماتت الغريزة
 الجبة وتقلب الخضر وخف اللغاب وتظاهر اللعاب ويخفق الفؤاد ويكبو الجواد ويسيل
 العرق ويشند الكرب والارق ولبس فى محل الامن الغرق ويدرك فرعون الفرق ولا يزيد
 الحال الا شدة ولا يعرف تلك الجارحة المؤمنة الاردة.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فكم مغرى بطول اللبث وهو من الخبث يؤمل الكرة ليزيل المعرة ويستنصره الجبال
 ويعمل باليد الاحتيال.

شعر:

انك لا تشكو الى مصمت فاصبر على الحمل الثقيل أو مت

فقال سيحدث الله بعد عسرا يسرا وبعد عى ثباتا اللهم انا نعوذ من فضايح الفروج اذا
 استغلقت أقفالها ولم تنسم بالنجيع أعقالها ومن معرات الاقدار والنكول عن الابكار ومن
 النزول عن البطون والسرر والجوارح الحسنة الفرر قبل تثقب الدرر ولا تجعلنا ممن
 يستحى من البكر بالغداة وتعلم منه كلال الاذاة وهو محل فضحت فيه رجال وفراش
 سكنت فيه أوجال وأعملت روية وارتيجال فمن قائل:

ارفعه طورا على أصبعى ورأسه مضطرب أسفله

كالحنش المقتول يلقي على عود لكى يطرح فى مزبله

أو قائل:

عدمت من ابى قوة حسه يا حسرة المرء على نفسه
 تراه قد مال على أصله كحائط مر على أسه
 وذكر أبياتا مستكثرة من هذا النمط أضربت عن ذكرها هموم لا تزال تبكى وعلل على
 الدهر تشكى وأحاديث تقص وتحكى.

قال كنت أعزك الله من النمط الاول ولم يقل وهل عند رسم دار من معول فقد جنيت
 واستطبت السمر فاستدعى الابواق من أقصى المدينة واخرج على قومك فى ثياب الزينة
 واستبشر بالوفود وعرف مسمعه المسمع حارفة الجود ونجح بصلاته العود وانجاز الوعود
 واجن رمان النهود من أغصان القدود واقطف بينان اللثم اقاح الشغور وورد الخدود وان
 كانت الاخرى فاخف الكمد وارض الشمد وانتظر الامد واكتد التوسم واستعمل التبسم
 واستكتم النسوة وأقص فيهن الرشوة وتقلد المغالطة وارتكب وجيء على قميصك بدم
 كذب واستنجد الرحمن واستعن على أمرك بالكتمان لا تظهر لعاذل أو غادر التبيان
 واستنشق الارج وارقب الفرج فكم غمام طبق وما هما وما رميت ولكن الله رمى واملك
 بعدها عنان نفسك حتى تمكك الفرصة وترفع اليك القصة ولا بشرى الى عمل لا يفى منه
 بتمام وخذ عن امام.

ولله در عروة بن حزام:

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهري بأشقر مزبد
 وعلمت انى ان أقاتل دونهم اقبل ولا يضرر عدوى مشهد
 ففررت منهم والاحبة فيهم طمعا لهم بعقارب يوم مفسد
 واللبانات تلين وتجمع والمآرب تدنو وتبرح وتحزن ثم تسمح وكم من شجاع حام
 ويقظ نام ودليل أخطأ الطريق وأظل الفريق والله عز وجل يجعلها خلة موصلة وسهلا أكتافه
 بالخير مشمولة وبينت أركانها لو كانت اليمن مأمولة حتى يكتر خدم سيدى وجواريه
 واسرته وسراريه وتصفو عليه نعمة باريه ما طورد قيص واقتحم عيص وادرك مدام غويص
 واعطى زاهد وحرم جريص بمنه وكرمه.

فصل: فى بعض ما كتبه المتظفات:

كتبت طرقة جارية النطاف على عصابتها بالذهب:

* ليس فى الحب مشورة *

وكتبت توفيق جارية ابن حمدان على برقعها:

* كمال المكارم اجتناب المحارم *

وكتبت سلامة حظية عبد الله بن طاهر:

* ليس على القلب منكم *

وكتبت عنان جارية الناطقى على عصابتها باللؤلؤ:

* اذ لم تستحى فاصنع ما شئت *

وكتبت فرحة جارية على بن الجهم على عصابتها بالريش:

* من صبر ظفر *

وكتبت مشتهى جارية القاسم العجلى على معجرتها:

* من واصله الحبيب هان عليه الرقيب *

وكتبت نزهة جارية الخصاص على عصابتها:

* من جاد ساد ومن بخل ذل *

ونقشت على فص خاتمها:

* من حن أن *

وكتبت كنوز جارية ابراهيم بن اسحاق على جبينها بالمسك:

* العشق والكتمان ضدان لا يجتمعان *

وكتبت نسيم جارية جميلة المدنية على جبينها بالغالية:

* مراغمة الرقباء فى مصالحة الاحباء *

وكتبت خلف جارية ابن حمدان على طرازها:

* من عشق ولم يصبر هلك ولم يعلم *

وكتبت المستحسنة جارية اللاحقى على طرازها الايمن بالذهب:

* من دارى خليله داوى عليه *

وعلى الايسر:

* من كشف الغطاء استحق العطاء *

وكتبت وشاح المؤيدية على طراز معجرتها بالذهب:

* الوفاء مليح والعذر قبيح *

قال على بن الجهم كنت عند اسحاق بن ابراهيم الموصلى فدخلت جاريته مهج الموصوفة بالجمال وقد كتبت على أحد خديها بالغالية:

من يكن صببا وفيها فـعناني فى يديه
وعلى الآخر:

خذ ملىي بعناني لا أمـانـعك عليه
وعن الجاحظ قال رأيت نشوان جارية زلزل قد كتبت على عصابتها:

ان للـنـرجس حـسـسنا وعيوننا أشتهيهـا
فأراها فـنـرـينى عين من أهواه فـيـهـا
وكتبت ترشف جارية هارون بن اسحاق على عصابتها:

أليس عجباً ان يبتا يضمنى وإياك لا تخلو ولا تتحدث
وكتبت جارية المتوكل زاجر على عصابتها:

إذا خفنا من الرقباء يوما تكلمت العيون عن القلوب
وفى غمز الحواجب مغنيات لحاجات المحب الى الحبيب
وكتبت نظيفة جارية يحيى بن خالد بن برمك على طوق لها:

ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها فى النار من فى عمره لم يعشق
والحب فيه حلوة ومراة فاسأل بذلك من تطعم أو ذق

وكتبت هاجر جارية محمد بن على على خمارها:

إذا نظرت نحوى تكلم طرفها فجأوبها طرفى ونحن سكوت
فكم نظرة منها تقرب بى الرجا وأخرى لها حى تكاد تموت

وكتبت حسانة البدوية جارية المعتز على برقعها بالذهب:

ألاحظها خوف المراقب لحظة فأشكو لطرفى ما ألقى من الوجد
فتفهم عن لحظتى عظيم صبابتى فتومى بطرف العين انى على العهد
وكتبت ملاعب على جبينها بالمسك:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه فان كنت مظلوما فقل أنا ظالم
فانك ان لم تحمل الذنب يا فتى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

تم الجزء الاول منه
مطالع البدور في منازل السرور
ويليه الجزء الثاني اوله
الباب السادس والعشرون
في الحمام وما غزى مغراه

فهرسك موهنوعات الجزء الأول من كتاب مهطالع البذور

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
مقدمة المصنف	٧
الباب الاول: فى تخير المكان المتخذ للبيان	١٣
الباب الثانى: فى احكام وضعه وسعة بنائه وبقاء الشرف والذكر ببقائه	١٧
الباب الثالث: فى اختيار الجار والصبر على اذاه وحسن الجوار	٢١
الباب الرابع: فى الباب	٢٥
الباب الخامس: فى ذم الحجاب	٣١
الباب السادس: فى الخدم والدهليز	٣٩
الباب السابع: فى البركة والقوارة والدواليب وما فيهن من كلام وجيز	٤٥
الباب الثامن: فى الباذهنج وتربيته	٥٥
الباب التاسع: فى النسيم ولطافة هبوه	٦١
الباب العاشر: فى الفرش والمساند والارائك	٧١
الباب الحادى عشر: فى الاراييح الطيبة والمروحة وما شاكل ذلك	٧٥
الباب الثانى عشر: فى الطيور المسمعة	٨١
الباب الثالث عشر: فى الشطرنج والنرد وما فيهما من محاسن مجموعة	٩١
الباب الرابع عشر: فى الشمعة والفانوس والسراج	٩٩
الباب الخامس عشر: فى الخضروات والرياحين	١١١
الباب السادس عشر: فى الروضات والبساتين	١٣٣
الباب السابع عشر: فى آنية الراح	١٤٩
الباب الثامن عشر: فيما يستجلب بها الافراح وهو خمسة فصول	١٥٩
الفصل الاول: قال كسرى النيذ صابون الهم	١٥٩

الفصل الثاني: فى تدبير استعمالها على رأى الحكماء	١٦١
الفصل الثالث: فى آداب متشيها وما يجب على مستعملها	١٦٥
الفصل الرابع: فى استهدائها واستدعاء الاخوان	١٧١
الفصل الخامس: فى من وصفها من الشعراء الاعيان	١٧٧
الباب التاسع عشر: فى الصاحب والنديم	١٩٧
الباب العشرون: فى مسامرة أهل النعيم	٢٠٩
الباب الحادى والعشرون: فى الشعراء المجيدين وهو مقدمة ونتيجة	٢٣٥
الباب الثانى والعشرون: فى الفحذاق المطربين	٢٥١
فصل: وينبغى أن يكون المغنى جميل الخلق صافى الخلق الخ	٢٥٣
فصل: فيما ورد للفضلاء فى مدحهم	٢٥٤
فصل: فيما ورد فى ذم الغناء	٢٥٧
الباب الثالث والعشرون: فى الغلمان	٢٦٧
الباب الرابع والعشرون: فى الجوارى ذوات الالكان	٢٧٩
فصل: فيما يتعلق بكتابة المتظرفات منهن على آلاتهن	٢٨٣
فصل: فى المولدات من الجوارى وغيرهن	٢٨٣
الباب الخامس والعشرون: فى الباءة	٢٨٩
فصل: ولما كان جمال المرأة وحسن تناسب أعضائها هو الداعى	
الرجل الى وطئها	٢٩٠
فصل: فى بعض ما كتبه المتظرفات	٢٩٩
فهرس الموضوعات	٣٠٣